عَابِدَة المُؤَيَّد العَظم

كيف نتقبل الناس ونتجنب إيذاءهم؟

الأجيال
للترجمة والنشر

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

كيفَ نتقبّلُ الناسَ
ونتجنّبُ إيذاءَهم؟

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

عَابِدَة المُؤَيَّد العَظَم

كيفَ نتقبّلُ الناسَ ونتجنّبُ إيذاءَهم؟

الأجيال
للترجمة والنشر

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

حقوق الطبع محفوظة للناشر
شركة الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

الطبعة الإلكترونية الأولى
٢٠١٧

العنوان الإلكتروني للمؤلفة
abida@al-ajyal.com

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وفاء وعرفان

يبدأ بعض المؤلفين كتبهم بإهداءٍ يختصّون به شخصاً عزيزاً عليهم أثيراً لديهم، ولكني آثرت أن أصنع أكثر من ذلك فأجعل أول كلمة في هذا الكتاب شهادة وفاء لأمي واعتراف لها بالجميل لا مجرد إهداء لها وحسب؛ فأنا مدينة -في النهاية- لها بقسم من أفكاره التي ربتني على بعضها وأملت عليّ بعضها الآخر لمّا اقتضت الظروف ذلك، كما أوحت إليّ بالكثير منها في أسلوب تعاملها مع من حولها. فوالدتي، بيان علي الطنطاوي، سيدة اجتماعية تحب الناس ويحبها الناس؛ تعيش معهم ولهم وبهم، فتطعم الطعام وتفشي السلام، وتسعد بفك الكربات وتفريج الهموم، وتحيط مَن حولها بالرعاية والاهتمام.

وقد كان لشخصيتها وطريقة تعاملها مع الناس أثر في حياتي وفي نظرتي إلى الآخرين حولي، ولعل ذلك كله قد تراكم في نفسي وفي عقلي الباطن فلفت انتباهي إلى ضرورة الاهتمام بالعلاقات الاجتماعية والقيام بحقها، فمن هنا جاء بعضٌ من أفكار هذا الكتاب. وهي أفكار قد توافقني أمي على بعضها وتخالفني في بعضها الآخر، إذ طالما تحاورنا في أمور فاتفقنا حيناً واختلفنا حيناً. وهذه ظاهرة طبيعية وصحية، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وإني لأرجو أن تتقبل كتابي هذا وأن تسامحني على ما خالفتها فيه وتتجاوز عني، ولعلها ستجد تعليلاً مقنعاً على صفحاته. وإني لشاكرة فضلَها وما بذلته من تضحيات في سبيل تربيتنا (أنا وأختيّ)، وأدعو الله أن يسعدها ويقر عينها وأن يلهمها الرضا دائماً وأبداً عنا، فرضاها من رضا الله. والله يرعاها ويحفظها.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فكرة الكتاب
وسبب اختيار الموضوع

سناء طبيبة تعمل في مستشفى الجامعة، كانت تظن نفسها إنسانة رائعة، محترمة، محبوبة، ناجحة في عملها ومتميزة في أخلاقها وتعاملها، وخصالها كلها حميدة وسامية؛ فهي لا تسيء لإنسان ولم تؤذِ أحداً قط، وتمتلك صفات عظيمة كثيرة.

هكذا كانت تُقوّم نفسها، لأنها ترى نفسها من داخلها وبعينيها هي. ولم تكن سناء -من أجل ذلك- لتعلم حقيقة شخصيتها، ولم تكن تراقب أبداً رد فعل مَن حولها على سلوكها معهم، بل كانت -فوق ما سبق- على يقين من أنها متفضلة على الناس لأنها تقدم لهم الخدمات الإنسانية مع الخدمات الطبيّة؛ فتسعى على راحتهم، وتمسح همومهم وأحزانهم، وتزيل معاناتهم وآلامهم، وتتحمل طباعهم وسوء خلقهم.

هكذا كان اعتقادها. إلى أن وقعت يوماً في محنة وتنكّر لها كل من تعرفه من أقاربها ومن العاملين معها. عندها اتهمتهم جميعاً بجحود ونكران إحسانها العظيم إليهم وأغلظت لهم في القول... فاعترفوا لها جميعاً بأنهم دبروا لها هذه المحنة تدبيراً لينتقموا منها! وبأنهم تخلوا عنها عن سابق عمد وتصميم؛ فهي تسببت (بشكل غير

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

مباشر) في موت أم وتيتم طفل، وفي تأخر شفاء بعض المرضى، وفي آلام نفسية وآلام جسدية لكثير من معارفها والعاملين معها. وغير هذا مما يؤذي ويزعج، وينال من الكرامة ويحط من الإنسانية.

فاكتشفت سناء فجأة كيف هي حقيقة سلوكها مع الناس وكيف يرونها، وأدركت -عندها- كم كانت مخطئة في تقديرها لنفسها وفي تقويمها لشخصيتها، وعلمت أنها غير محبوبة لتكبرها، وأنانيتها، وقسوة عباراتها، ولكثير غير هذا من الخصال التي تؤذي الآخرين.

فخرجت من تجربتها وحيدة محطمة يائسة.

* * *

هذه القصة عرضها -قديماً- التلفزيون في حلقات لتسلية الناس، ولكنها تُعرَض في حياتنا كل يوم وبطريقة غير مسلية! وقد لا أكون مبالِغة لو قلت أن معظم الناس (إن لم يكن كلهم) يظنون أنهم رائعون، محترمون، مُحِقّون، لا يَظلمون ولا يعتدون؛ فلماذا -إذن- يقابَلون بالسوء والإيذاء؟!

ويظنون أنهم مخلصون أوفياء، فيستغربون أنهم يقابَلون بالغدر والخيانة!

ويظنون أنهم يحبون الآخرين ويبذلون من أجلهم ويعطون ويضحون، فيُدهَشون أنهم يقابَلون بالبغض والجحود والنكران!

ويظنون، ويظنون... فهم يظنون في أنفسهم كل خير ويرون فيها كل فضل ولذا يَعجبون من عدم احترام الناس لقدرهم العظيم ولمواهبهم تلك. فهل نحن بحاجة لأن يدبر لنا الناس مكيدة أو فخاً

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

(كما دبروا لسناء في القصة السابقة) حتى نرى حقيقة أنفسنا؟

وإننا وإن لم نكن نسخة عن سناء (في عدم إدراكها عيوبها وحقيقة شخصيتها)، فإن كل واحد منا في داخله جزء من سناء. وطالما كذّبْنا أسماعنا ثم تناسينا كلمات حاول بها شخص مُحِب أن يلفت انتباهنا إلى شيء من عيوبنا (هذا إذا لم يحنق عليه بعضنا لجرأته تلك!). فهلا انتبهنا قليلاً لسلوكنا مع الآخرين؟

كلنا نتألم لما فعله الناس بنا، ونتأثر من كلمات قالوها لنا، **ولا نفكر أبداً بما فعلناه نحن بهم من تصرفات شائنة وما أسمعناهم من كلمات جارحة!** يرى أحدنا القشة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه، وإن هذا -والله- تصرف غير عادل: ننظر لأنفسنا بعيون منحازة ومحابية، ونعتقد أننا لا نخطئ أبداً ولا نؤذي أحداً، فنلوم الآخرين دائماً بدل أن نلوم أنفسنا، و**نعتبر النقص فيهم إن اختلفنا، والعيب بهم إن تضررنا، وننزعج منهم لأي هفوة، ونعاتبهم لأي زلة.**

وإن صدف واعترف واحد منا بخطئه فإنه يبرره بسبعين عذراً ولا يلتمس لأخيه عذراً واحداً لو وقع في نفس الخطأ.

* * *

وكلنا نقع في هذا، لا أكاد أستثني أحداً. أمثل لذلك بنفسي؛ إذ سهرت مرة وحدي متألمة مما فعله فلان بي. وقعدت حزينة أسترجع حوادث اليوم، فانطلق عقلي حراً يفكر، ومر أمامي شريط طويل من الذكريات أحصى لي تاريخ فلان معي، وإذا أنا أستخرج سجلاً حافلاً له فيه من الإساءات لي الكثير، فازداد ألمي وازداد منه ضيقي.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وطرق أذني أذان الفجر الأول فتنبهت أنه وقت الدعاء، وإذا أنا أدعو الله وأبتهل إليه ليزيل ما بي. ولعل الله قد استجاب دعائي، إذ تذكرت قصة سناء، فأخذ عقلي يدور في نواحٍ أخرى لم أعهدها من قبل، وتحولت من حيث لا أدري إلى التفكير بتجرد بعيداً عن مشاعري، فتأملت شخصية فلان العامة وسلوكه مع غيري، فوجدته -بالجملة- إنساناً محترماً خلوقاً ويحمل من العاطفة الكثير، فعجبت منه وصرت أفكر: لِمَ هو يفعل بي هذا إذن؟ وهل يقصدني أنا بالذات؟! ومرت عليّ مدة وأنا أفكر وأحلل وأدعو الله بصدق أن يريني الحق لتهدأ نفسي، ولبثت كذلك زمناً حتى بدأت تلمع في ذهني مواقف عديدة، مواقف أسأت فيها إليه وكلمات آلمته بها. فاكتشفت أنني آذيته كما آذاني. وكم فاجأني هذا الاكتشاف! وأذهلني إذ أدركت أن سلوكي وسلوكه ما هو إلا رد فعل متبادل.

عند ذلك أصابني الهم والغم وكبر علي الأمر وشق، فلا أرى إلا نفسي تصغر وذنبي يعظم. وصحا ضميري ونهش الندم قلبي، ولم أنم حتى طلعت الشمس!

* * *

ولم تكن هذه الحادثة عابرة في حياتي، فقد أيقظتني من سبات كريه، وأخذت أصحو شيئاً فشيئاً على سلوكي مع الناس كلهم، وبدأت أزن الأمور بموازين جديدة لم أعرفها من قبل أبداً. وبدأت أتنبه لبعض الأشياء.

ولقد كنت آسى كما يأسى غيري من المسلمين على إخوان لنا يُقتَلون هنا وهناك بأيدي الأعداء، ويصيبهم الأذى ويقع عليهم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الظلم، وكنت أحزن من مشاهد البؤس والشقاء والحرمان. **فاكتشفت أننا في حياتنا اليومية وفي تصرفاتنا مع الناس نفعل الشيء نفسه، فنحرم ونُشقي ونظلم ولا نكترث ولا نهتم. ولاحظت أننا نؤذي أقرب الناس إلينا ونسيء إليهم**؛ كأزواجنا وإخوتنا، وحتى أولادنا ووالدينا، ولا نستثني أحداً (ومثل ذلك نتلقى منهم).

ونحن نفعل ذلك تارة عن عمد: نصحاً، أو توجيهاً وتربية، أو انتقاماً، أو بغير ذلك من المبررات. ونفعله تارة أخرى سهواً من غير عمد. ولكنه في كلا الحالين فعلٌ مُؤذٍ ومخرب؛ فنحن بعبارة استهزاء نرميها نقتل إبداعاً، وبسوء ظن نظهره نجرح نفساً، وبنميمة ننقلها نخرب علاقة، وباستغابة شخص نصنع له عدواً، وبغمز ولمز نحطم كرامة... وهكذا ندوس على غيرنا ونحن ماضون في هذه الحياة، فلا نشعر بما نفعل، ولا نألم لما آلمنا به الناس ولا نكترث بما سببناه لهم، ثم نعتب على أعدائنا ونُعرّض بما يفعلونه بنا ونستنكر إهمالهم حقوق الإنسان وإساءتهم إلى كرامته.

فإن كنا نحن في علاقاتنا مع معارفنا المعدودين وأقاربنا القليلين لم نستطع أن نعيش بسلام ووئام، ولم نسيطر على المشكلات ونحد من الاختلاف والخلافات، فكيف ننتظر أن يتآخى المسلمون ويتحدوا (مع كثرة أعدادهم)؟

وإن لم نستطع في عوالمنا الصغيرة المحصورة أن نتسامح ونتجاوز، بل حتى أن نعدل، وبيننا رابطة الدم والرحم، وبيننا الخبز والملح (كما يقولون)، وبيننا التشابه في الأفكار والآمال... فلماذا ننقم على أعدائنا، وكيف ننتظر منهم أن يعدلوا فينا ويتعاطفوا معنا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وهم يحقدون علينا ويخالفوننا في كل شيء؟

وإن نحن لم نستطع أن نحقق أُجزءاً من الخُلُق الذي أُمرنا به والحد الأدنى من التعاليم التي ألزمنا إسلامنا باتباعها في بيئتنا المحيطة وفي تعاملنا مع إخوتنا المسلمين؛ فنحقق للإنسان كرامته ونحفظ له حقوقه وننصفه ونحترمه، فكيف نأمل أن ينتشر الخلق القويم وتسعد البشرية بإقامة دعائم الدين، وأن يحل العدل والإنصاف وتسود المساواة وكل القيم العالية بين أفراد المجتمع الضخم الكبير؟

وكلما أوغلت في الملاحظة والتأمل وصلت إلى أشياء مثيرة ومدهشة في تعامل الأقرباء والمعارف بعضهم مع بعض؛ إذ كنت أحسب أن البشر بين ظالم ومظلوم لا غير، وأن سبب الشقاق والجفاء بين الناس يرجع إلى أنهم بين معتد ومدافع عن حقه، وبين آثم قوي ومسكين ضعيف... فلما عشت الحياة أكثر أظهر لي الواقع أن العلاقات الإنسانية بيننا وبين معارفنا وأقربائنا متشابكة، وأن الحقوق متداخلة، فلا يوجد ظالم صاف ولا مظلوم صرف، ولا وجود لمحسن مواظب على الإحسان وآخر مسيء طول الوقت.

وتبينت أن الحق كثيراً ما ينقلب ويتغير؛ فيكون أكثره مع طرف، وبسلوك سريع طائش أو بكلمة خرجت من دون تروٍّ... تنقلب الموازين فيصبح الحق مع الطرف الآخر، ويصير الضحية هو المذنب ومن ابتدأ بالظلم هو البريء! وهكذا.

* * *

ولم أمكث إلا قليلاً حتى شغلني هذا الموضوع، وأثار فضولي

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

واستهواني، فقررت الاهتمام به وتتبعه في محاولة لتقليل الحزازات والحساسية بين الناس وللحد من المشكلات بينهم. فهو -فيما رأيت- سبب خلافاتهم بعضهم مع بعض، وهو سبب شقاقهم ونزاعهم وإعراضهم عن سماع الحق.

وما دفعني أكثر للاهتمام بهذا الموضوع هو تعلق مصير المسلم به؛ فقد ذكّرتني قصة سناء وصدْمتها بحقيقة نفسها بمن يأتي يوم القيامة واثقاً من نجاته، فهو آتٍ بصَلاة وصيام وزكاة، **ولكنه ينسى أنه قد شتم هذا وضرب هذا** وأكل من مال هذا... فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ثم تطرح عليه سيئات الناس، **فيجد نفسه ملقى في النار رغم ما قدمه من أعمال صالحة.**

فعلى سلوك الإنسان مع الناس يتحدد قسم ضخم من رصيده من الحسنات والسيئات، وبالتالي يتحدد مصيره. ولكننا نستهتر بهذا الحديث وأمثاله (أي من الأحاديث التي تحذر من إيذاء الناس) **ونهدر حسناتنا التي تعبنا في جنيها وتحصيلها بإساءاتنا المتكررة إلى من حولنا**، فقد نقوم الليل ونصوم النهار ونكثر من الأعمال الشاقة المتعبة المكلفة المجهدة، ثم وببساطة نرمي كل ذلك ونجعله هباء منثوراً لا وزن له بعمل بسيط خفيف نفعله ونحن جلوس مرتاحون فنفتح فمنا ونحرك لساننا بالاستغابة أو برمي الكلمات المؤذية والاستهزاء والاستهتار بالآخرين مما يمحو الحسنات، **فكأننا لا صلينا ولا صمنا.** وقد كان يكفي الله منا أن نهجر الحرام ونقوم بالفرائض، ولكننا نأبى الانصياع فنعصي الله ونفعل المنكرات ونأتي بعض ما نُهينا عنه، ثم نكثر من النوافل التعبدية.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فمتى سندرك أن الرحمة ورعاية حقوق الآخرين من أسس التدين ومن أهم شروط الإيمان ومن أصول التشريع الرئيسية؟ وقد دخلت امرأة الجنة (على قلة صلاتها وصيامها) **فقط** لأنها لا تؤذي جيرانها.

ومتى سنؤمن ونصدق بأن الاستغابة وسوء الظن والاستهزاء وأشباه هذه الأعمال هي من الكبائر التي يعاقَب المسلم عليها كما يعاقَب على شرب الخمر وعلى أكل لحم الخنزير وعلى السرقة، **فلماذا نتهيّب تلك الذنوب ونتجنبها ثم لا نجد غضاضة في مقاربة آفات اللسان؟**

ومتى سنتيقن ونتأكد من أن الفضائل الاجتماعية (كالكلمة الطيبة وإغاثة الملهوف وقضاء الحوائج والصبر على أذى الناس) أعمال تعبدية لها أجرها العظيم كما للصلاة والصيام وسائر العبادات، فنعطيها حقها ونقوم بها؟ فبدل أن نحج ثانية (وقد حججنا الفريضة من قبل) فنصرف المال في الحج نكفل بهذا المال يتيماً، وبدل أن نصوم نفلاً فنضعف نغيث ملهوفاً ونحن أشداء... وإن المسلم ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم، فأي خير أعظم من هذا؟ وأي فضل تبتغونه أكبر من ذلك؟

إننا لا ندرك عظم الخسارة التي نبوء بها بتجاهلنا هذا الجانب من الدين وعدم إعطائه الأهمية التي يستحقها؛ فالإساءة إلى المخلوقات عليها عقاب شديد من العلي الكبير، ولو كانت مثقال ذرة، **والعقاب عليها يكون في الدنيا قبل الآخرة؛ حيث يرتد ذلك علينا آلاماً وأحزاناً واكتئاباً ونقصاً من الأنفس والثمرات كما جاء في الحديث الصحيح،**

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

إذ لما نزلت آية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ قال أبو بكر: كيف الصلاح يا رسول الله مع هذا؟ كل شيء عملناه جزينا به؛ فقال: «غفر الله لك يا أبا بكر. ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء (الشدة والمحنة)»؟ قال: بلى. قال: «فذلك مما تجزون به». وقيل في تفسيرها إن المؤمن تُعجَّل له العقوبة في الدنيا. فهل لدينا الاستعداد لتحمل نتائج أعمالنا؟ وهل يعدل استمتاعنا بالاستغابة أو استهتارنا بحقوق الآخرين هذا الجزاء المخيف؟ والله لا يعدل، وإن دقيقة ألم تصيب المرء لكافيةٌ أن تنسيه أي سعادة حصل عليها بالنيل من الآخرين.

كما أن الخطأ مع البشر أخطر من الخطأ مع الله وأشد بأساً، لأن الله يسامح ويغفر ويقبل التوبة والإنابة (كما تعرفون)، أما البشر ففيهم الحقود واللئيم والمتكبر وقاسي القلب... وأنّى لمثل هؤلاء أن يتسامحوا معنا ويتجاوزوا عنا إن آلمناهم يوماً؟ فلا نجاة لنا منهم إلا بتجنب الإساءة إليهم حتى لا نكون يوماً بإيذائنا لهم تحت رحمتهم، إن شاؤوا غفروا لنا وإن شاؤوا أوقعوا علينا العقاب (أي بما أذن لهم به الله). فعلينا أن نجتهد ونعمل لنكون نحن فوقهم بتسامينا وعظم خلقنا فلا نسمح لهم يوماً بأن يُذِلونا بطلب صفحهم وتسامحهم.

* * *

كل ذلك جعلني أحاول دراسة العلاقات الإنسانية على الطبيعة لأفهمها وأتعلم التعامل معها وأبتعد عن ظلم الناس والإساءة إليهم بقدر الإمكان. فجربت قراءة الواقع، وراقبت سلوكي وسلوك الناس بعضهم مع بعض، ودرست رد فعلي وردود أفعالهم، واجتهدت

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لاستقراء الحافز الذي دفعني ودفعهم إلى الإحسان والإساءة. وقد أصبت حيناً وأخطأت في أحيان كثيرة. واستعنت بالعلوم التي تهتم بمثل هذه الموضوعات، واهتممت بقراءة الكتب التي تشير إلى العلاقات بين الناس، وحاولت الاستفادة من تجارب الخبراء والعقلاء وسمعت من الصغار والضعفاء... فكان هذا الكتاب.

وإني لأتوجه بالنصائح الموجودة فيه إلى نفسي أولاً (وأسأل الله أن يساعدني على الانتفاع والارتفاع بها)؛ فإني ما جمعت هذه المادة -في البداية- إلا لأعظ بها نفسي، وأذكّرها، ولأحميها من شرور أعمالها. ثم قلت: أعمّم النصيحة على الناس؛ فرب مبلغ أوعى من سامع. **فهذا الكتاب يساعد الفرد على تجنب الخطأ في تعامله مع الآخرين ويساعده ليسمو بنفسه ويتعالى عن هفوات الناس ويتجاوز عن تقصيرهم في حقه، فتقل خلافاته مع من حوله ويعيش محبوباً سعيداً مرتاح البال.**

وقد قصَرت خطابي فيه على أولئك الذين يعيشون في مجتمع إسلامي تشوبه بعض الأخطاء، سواء في التعامل بين الأزواج أو الإخوة والأخوات أو الوالدين والأبناء أو الجيران، أو في العمل بين الزملاء، وأمثال ذلك. وليس كتابي أبداً لأولئك الذين يعيشون حياة شاذة فيها خروج واضح عن الالتزام بتعاليم الإسلام وجحود ونكران لمبادئ الدين، فأولئك لا يحركهم مثل هذا الخطاب لأن الشر قد تأصّل في نفوسهم وطمس بصيرتهم، فلا ينتصحون إلا من رحم الله منهم.

وقد احترت ماذا أسمي هذا الكتاب ليكون معبراً عن محتواه

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

تمام التعبير، إذ خطرت ببالي مجموعة من الأسماء: «هذا هو الإنسان، فليقبل وليعذر بعضنا بعضاً»، «لماذا يسيء بعضنا إلى بعض؟»، «طبيعة الإنسان هي سبب خلافاته وسبب مشكلاته مع الآخرين»، «كيف نتعايش مع الناس بسلام ونتجنب المشكلات؟»، «﴿إِنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهُولاً﴾، فاعذروا الناس!»، «هذا نحن، فلنتقبل الآخرين»، «المعاناة مع الناس»، «الطبيعة البشرية والعلاقات الاجتماعية». وأخيراً ألهمني الله أن أختار العنوان الذي رأيتموه على غلاف الكتاب.

* * *

لقد اجتهدت قَدْرَ الإمكان (وأرجو أن أكون قد وُفّقت) لآتي بنبأ يقين عن طبيعة الإنسان وعلاقاته بالناس، ليكون من ورائها عبرة وعظة لكل من أراد أن يتذكر (فيتوقف عن إيذاء الناس ويعيش بسلام ووئام مع الآخرين) أو أراد شكوراً: من الله على حسن خلقه ومن الناس على حسن تعامله.

عابدة فضيل المؤيد العظم

جدة: آذار ٢٠٠٢

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

المبحث الأول

كيف نُقَوِّم أنفسنا

(فكرة الإنسان عن نفسه وفكرته عن الناس)

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

المشكلة الأولى

نظن أننا بلا عيوب ونستصغر أخطاءنا

كم تحت السماء من إنسان يعتقد أنه خُلِق بلا عيوب، وأنه يعيش بلا سيئات، وأنه سيموت بلا خطيئة! يظن نفسه ملاكاً ويفترض أنه يجسد المثالية في علاقاته مع الناس، ويرى في نفسه الكمال في حين أن الآخرين ناقصون، فيتعالى عليهم ويجرحهم، وقد يذلهم بأخطائهم.

ورحتُ أسرح بخيالي مع الإنسان، وأحلل نفسيته، وأعلل دوافعه للتملص من أخطائه وافتراض الكمال في نفسه، فوجدت أنها طبيعة البشر التي جُبلوا عليها. أليس القرآن قد خبّرنا بأن الكفار يحلفون يوم القيامة أمام رب العزة والجلال العالِم بهم المطلع على ما في سرائرهم بأنهم ما فعلوا سوءاً يستحقون به النار؟! أما نعت أعتى المجرمين أنفسهم بالطيبة والرأفة والرحمة واعتبروا إيقاع العقاب بهم ظلماً ينبغي وقفه؟ ألم تطلب المرأة المخزومية وقومها ألاّ تُعاقَب ولا تقطع يدها وهي معتدية وسارقة؟!

فالإنسان -وإن رأى عيبه أو أدرك خطأه- يستصغر ذنبه،

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ويستسهل غفرانه، ويتوقع أن يسامحه البشر؛ وإن خان وطنه أو غش وسرق أو نافق وكذب. وإن هو رأى ذنب غيره استكبره واستهوله ولم يغفر لصاحبه أبد العمر.

هذه هي طبيعتنا، ولكننا غافلون عن أنفسنا يقظون لغيرنا.

* * *

وكم من إنسان حولنا لا ينفكُّ يحدّث عن عيوب الآخرين وما تسببت به من أذى؛ فتارة يشكو من عيوب زملائه في العمل، وتارة من جيرانه، وأخرى من لِداته وأقرانه، ولا ينسى من شكواه أحداً حتى زوجه وأولاده وأمه وأباه! وطالما حاول بعض الناصحين (الذين يعرفون تفصيلات حياة هؤلاء الشاكين) تنبيههم إلى بعض ما فعلوه هم بالناس من ذنوب لا تغتفر، فتكون النتيجة أنهم يوجمون لحظة غير مصدقين، ثم تأخذهم العزة بالإثم فيحاولون الدفاع عن أنفسهم بحشد القصص والوقائع التي تؤكد أنهم بلا عيوب أبداً، وأن في مَن حولهم عيوباً لا تحصى ولا تغتفر: فهم أغبياء، ولا يقدرون المعروف، ولا يحسنون التصرف، قد تأصّل فيهم السوء، وسيطر عليهم الشر... فهم لا يتوقفون عن الإيذاء!

ولما بالغ بعضهم في تنبيه هؤلاء ولفت انتباههم إلى بعض عيوبهم (لا كلها) أعرضوا عن الناصحين لأنهم يتحاملون عليهم، فهم بلا عيوب ولم يؤذوا أحداً قط، واسمعوا هذه القصة التي رُويت لي:

- قالت: كانت لي صديقة في المدرسة دأبتُ على الخلاف

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

معها، وكنا نتعامل على مبدأ العين بالعين والسن بالسن؛ آذيتها فآذتني، ونالت مني فنلت منها. ثم مرت الأيام وخف الاحتكاك بيننا، وغيرت منهجي في الحياة وأعجبني اتخاذ التسامح منهجاً، فقررت التقرب منها ومحاولة الإحسان إليها (مع أني كنت متأكدة أن سبب الخلاف بيننا هو في طباعنا التي جبلنا الله عليها، ولو عدنا لما كنا عليه من القرب لاختلفنا من جديد). وفي إحدى الجلسات الهادئة اللطيفة خطر في بالي أن نضحك سوياً ونتندر بما كان بيننا، فذكّرتها ببعض الأخطاء التي وقعنا فيها كلانا، وكانت مفاجأة هائلة لي لمّا قالت إنها بريئة تماماً وإنها لم تؤذِني قط ولم تتعرض لي بسوء ولم تفعل شيئاً يؤلمني ولكني أنا التي ظلمتها وتهجمت عليها بغير حق، وكادت تبكي وهي تتذكر تلك الأيام! فقلت لها: "ويحك! تذكّري ما فعلتِه بي". وحاولت تذكيرها بمجموعة من الوقائع، ثم أردفتُ على سبيل التواضع: "إننا مخطئتان كلانا فلنستغفر ولنتسامح". فقالت (بعد كل ما سمعَتْهُ من حجج): "أبداً؛ أنت المخطئة وحدك وأنا لم أقترف شيئاً. وها أنت ذا قد اعترفتِ بنفسك على نفسك عندما أقررت بخطئك"!

- وقصت طالبة (في مجلس جمعها ببعض قريباتها) ما حدث معها فقالت: اجتمعت الطالبات في ساعة الفراغ في باحة المدرسة، فاقترحت إحداهن قائلة: "لننقد أنفسنا بأنفسنا فتتلو كل واحدة على زميلاتها ما تراه منهن من عيوب لنتعظ". قالت: فوافقتُهن لأنني فوق النقد فأنا بلا عيوب! وفعلاً أشبعت الفتيات بعضهن بعضاً نقداً فعيوبهن أكثر من أن تحصى، فلما جاء دوري لتنتقدني الطالبات حدث ما توقعته ولم يجدن فيّ شيئاً يُنتقَد، فأنا أنيقة ولطيفة ومتفوقة

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

و... فتجاوزنني إلى الباقيات!

وفيما كانت تقص قصتها تلقت من الجالسات عدة ملاحظات: بأنها مغرورة لأنها تظن نفسها بلا عيوب، وبأنها مراوغة لأنها استطاعت خداع صديقاتها، وبأنها تكذب في روايتها، إذ كيف لم تكتشف فيها صديقاتها ولو شيئاً يسيراً من عيوبها وهن يؤاكلنها ويجالسنها؟ فصُعقت من عيوبها التي سمعتها منا واتهمتنا بالافتراء عليها بعد أن شهدت لها صاحباتها بأنها بلا عيوب، ولعلها ندمت من بعد لأنها قصت علينا هذه القصة.

* * *

يوفر الله لبعض الناس تجربة متميزة ليمنعهم من تكرار الأخطاء التي وقع فيها الآخرون، فيوفر لهم مَن يخطئ أمامهم، ويجعلهم بذلك شهداء على بشاعة بعض العيوب. ولكنهم لا يهتدون ولا يتّعظون؛ فنراهم إذا تعرضوا لنفس الظروف -من بعد- يكررون تلك الأخطاء التي سبق وعابوها على من سبقهم. أي أنهم يسلكون سلوك الطرف المسيء والمخطئ، فيؤذون من يتعامل معهم ثم يحسبون أنهم بريئون لم يفعلوا شيئاً وأن الآخرين فقط هم الذين يخطئون في حقهم ويؤذونهم!

وآخرون يبتليهم الله بنفس ما آذوا به غيرهم رحمة بهم ليكفر عنهم، وليتعظوا ويكفوا أذاهم ويعالجوا عيوبهم ويتداركوا أخطاءهم قبل أن يفوت الأوان، فيسلط الله عليهم بذنوبهم من لا يخافه فيهم ولا يرحمهم (يسلطه الله من عنده، أو بدعاء ضحاياهم)، ويسلطه بنفس الطريقة وبنفس الأسلوب الذي استعملوه في ظلمهم الآخرين،

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وبنفس الشدة والمقدار أحياناً؛ الأمر الذي يبعث على الدهشة -حقيقةً- ويثير الرهبة من الله سريع العقاب ويزيد الإيمان بالله العادل الذي لا تغيب عنه ذرة في الأرض ولا في السماء. ولكنهم يغفلون ولا ينتبهون، بل إنهم يتحدثون بأنهم مبتلَون من غير ذنب ومعذَّبون من غير إثم، ثم يُعَقّبون: "إن الله يبتلي الأمثل فالأمثل، فلعل الله يريد رفع درجاتنا بهذا الابتلاء فنحن لم نفعل شيئاً (أي أنهم بلا عيوب ولا أخطاء)"!

فإذا نازلهم صاحب حجة فبين لهم أخطاءهم ووضح لهم عيوبهم بأدلة لا تقبل الشك عللوها بشتى الأعذار، حتى لتبدو وكأنها سلوك عادي مقبول! ومنهم من يُجمل أخطاءه فيبين أنه ما فعل ما فعله إلا ليتجنب مزالق ومشكلات أكبر، وإنه بهذا يخدع نفسه والآخرين فيبين أنه حكيم لا يخطئ، ويجعل من سقطاته فضيلة يشكر عليها بدل أن يذم ويلام.

فانظروا أيها الناس إلى الإنسان وتفكّروا بغرابته.

* * *

وأكثر الناس لا ينتبهون إلى الأخطاء البسيطة التي يقعون فيها في سلوكهم مع أنها من جنس ما يستكبرونه على الآخرين من أخطاء، أو يستصغرونها وهي تؤثر سلباً على مدى اقتناع الناس بشخصياتهم وتجعلهم يزهدون بما يسمعونه منهم:

- دأبت بعض السيدات على الاستماع إلى داعية تنصح وتنبه إلى أمور تستحق الانتباه، فكانت -مثلاً- تحذر من تجذر العادات

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الغربية في مجتمعاتنا وسيطرتها على حياتنا وتدعو إلى طرد هذه العادات والتخلص منها بعدما دخلت علينا من كل باب، وكانت تلك السيدة متحمسة أشد الحماسة وتتخذ كل وسيلة للإقناع، ولعلها كانت على الحق: فهي تدعو إلى نبذ الطعام السريع الضار بالصحة، وإلى تقليل البذخ والإنفاق على الموضات، وإلى الاهتمام بالستر وتجنب فتح الغرف على بعضها كما يفعل الأجانب (فيجعلون بيتهم صالوناً واحداً كبيراً ممتداً، فهذه العادة -التي بدأت تنتشر بيننا- لا تناسبنا نحن المسلمين)... فلما زوجت تلك الداعية ابنتها صُعق منها الجميع حين رأوا أن العرس قد سار تماماً كما تسير أعراس النصارى!

ولكن تلك الداعية لم تنتبه أبداً لما فعلته (وهي قدوة) وما اقتبسته هي من الحياة الغربية، وبقيت تعيب على الناس العاديين ما يقتبسونه. وقد لا يكون ما فعلته أمراً عظيماً، وهو موافق لطبيعة الإنسان الذي ينهى عن الخلق ثم يأتي مثله... ولكن سلوكها ذاك كان كافياً لصرف السيدات عنها وعن الاستفادة من دروسها.

* * *

والحياة كتاب قصص كبير، وفيه قرأت كيف ينظر الناس بعضهم إلى بعض وكيف يرى كلُّ واحد ذنبَ أخيه -ولو دَقّ- بحجم جبل أُحد ويرى ذنبه -ولو عَظُم- بحجم ذرة الرمل! فهو راض عن كل ما يصدر عنه وعاتب على أي سلوك من الآخرين:

- فالزوجة تنسى مع بخل زوجها كل مكرمة له وترى هذه الخصلة فيه أعظم بلية ابتُليت بها وقد تكرهه وتمقته، ولكنها لا ترى ضيراً في إسرافها وإنفاقها المال على الكماليات، وقد لا تجد في

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

إفسادها المتاع برميه أرضاً أثناء غضبها شيئاً يذكر، فهذا -برأيها- طبعٌ لا يمكنها التغلب عليه!

- والزوج يتأذى من إهمال زوجته لهندامها وأناقتها في حضرته، ولكنه لا يرى ضيراً في تقاعسه عن واجبه في تربية وتوجيه الأولاد والإنفاق عليهم، فهو يعتقد أن حاجته للترويح عن نفسه بعد العمل أهم وأجدى!

- والأستاذ ينزعج من الطالب إن أخطأ في الجواب أثناء شرح الدرس، ولكنه لا يجد بأساً في أن يلحن في كلامه أو يخطئ في إعراب كلمة معروف إعرابها، وهو خريج قسم اللغة العربية في الجامعة ويدرّس هذه المادة منذ سنوات!

- وإني لأستغرب ممن يجعل نفسه حكماً على الناس فيدينهم كلما بدر منهم ما لا يعجبه هو، ولكنه لا ينتبه إلى أنه قد نَصّب نفسه قاضياً عليهم (بلا شهادة) وأنه قد جعل من قناعاته قانوناً (من غير إجازة برلمان أو تفويض مجلس شورى) فمن يحاكمه هو؟ والأدهى أنه لا ينتبه لأخطائه المماثلة (فضلاً عن الأكثر ثقلاً) في حق أقاربه!

- وتفشت بين مجموعة من الطالبات بعض الكبائر كالغيبة والنميمة وسوء الظن والغمز واللمز فيؤذين بهذه الآفات كل معارفهن، حتى لتتمنى الواحدة منهن لو تجد ملجأ أو مغارة أو مدخلاً لتولي إليه هرباً من كلامهن الساخر اللاذع، ومن جراحاتهن التي تغلغل عميقاً في النفس ولا تخرج من بعد أبداً. ومع ذلك لم ترَ الطالبات في هذا أي بأس ولم يتوقفن عن سلوكهن المسيء يوماً، ولكن إن بخلت عليهن زميلةٌ يوماً بإعارة كراسة أو دعوة إلى كوب

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

من الشاي... يعاملنها وكأنها قد اقترفت كبيرة من الكبائر ويكون حسابها لديهن عسيراً.

لمّا سمعت هذه القصص وعاينت أمثالها في الحياة استغرقت في التفكير، ثم شعرت بفداحة ما نفعله مع الناس؛ فلو أننا رأينا فقط بعض عيوبنا (لا كلّها) التي يراها الناس ولا نراها، لكان في ذلك عبرة وعظة لنا. ولو قدّرنا حجمها الحقيقي وعرفنا كم تقللنا في أعين الناس لشعرنا بحياء شديد منهم ولما تجرأ فرد منا -بعد ذلك- على ذكر عيب أخيه، إن لم يكن خوفاً من الله فخوفاً من الناس أن يعاملوه بالمثل فيحقّروه ويعيّروه بعيوبه.

ولو عرف كل امرئ بشاعة عيوبه وأخطائه كما يعرفها غيره، ولو نظر لنفسه كما ينظر الآخرون إليها، لصارت العلاقات أفضل، ولخفّت التوترات، ولنَعِم الناس بالراحة؛ فالمعرفة تجعل المتشدق يحجم عن فرض حديثه على الجالسين بعد أن أدرك أن حديثه غير جذاب كما كان يعتقد، وهي تجعل المسيء يتوقف عن الإيذاء بعد أن رأى نفور الناس منه، وهي تجعل الطمّاع ينتبه لسلوكه فلا يتعدى على أملاك الغير.

والخلاصة:

كل فرد فينا يتغاضى عن شخصيته حتى ليظن أنه بلا عيوب، وعن سلوكه حتى ليخيل إليه أنه بلا أخطاء. فإن بدا له شيء من هذه العيوب والأخطاء استصغره واستحقره ولم يره مستحقاً الذكر.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

المشكلة الثانية

نعتقد أن عقلنا هو الأرجح مطلقاً وحكمنا هو الأصوب دائماً

نظرت إلى الناس فرأيتهم على أنواع بسبب النشأة الأولى والتربية والتوجيه اللذين تلقّوهما، ووجدت أن لكل فرد شخصيته المتميزة ونظرته الخاصة إلى الحياة.

ولكني رأيت الناس كلهم متفقين على أمر واحد؛ فكل شخص في هذه الدنيا معجب برجاحة عقله وأسلوبه الممتاز في مواجهة المشكلات، وكلهم يرى أن نظرته إلى الحياة صحيحة منطقية، بل هي دقيقة كل الدقة، ومن **ثَم فكلٌّ منا يتوقع من الآخرين أن يروا الأمور كما يراها، وأن يسلكوا السلوك الذي يشير إليه** ويتّبعوا ما يأتي به من حلول. فقلت لنفسي إن ما ردده الناس من قديم حق: «لما وزع الله العقول فرح كل إنسان بعقله وشكر المولى عليه»!

وهذه حقيقة قاطعة يعرفها الجميع ويلاحظها كل فرد. وهذا دأب كل إنسان؛ أن يعتز بعقله ويحرص على نشر أفكاره، ويعد حمل الآخرين عليها شرفاً له ومفخرة. ولكن أوَليس من الغريب أن احتل العقل هذه القيمة وهو عرضة للخطأ وللنسيان ولاتباع الهوى؟

أوَليس من أعجب العجب أن يحترم الفرد عقله كل هذا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الاحترام ويقدره كل هذا التقدير، ثم يستخف بعقول البشر جميعاً؟! فالقاعدة العامة أن الفرد عندما يعتز بعقله يستخفّ (من حيث يدري أو لا يدري) بآراء الآخرين وسلوكهم وأفكارهم وطريقة محاكمتهم للأمور، وقد يتهمهم بالجنون أو العته أو السفه أو بشذوذ التفكير فيثير الناس عليه. وإن هو أخطأ أو زل (وهو لا بد فاعل) فإن الشماتة ستلاحقه، وستكون سقطته بمئة سقطة:

- دأب رجل على انتقاد الجميع بأنهم لا يحسنون التصرف مع أبنائهم، وكان يظن نفسه رائعاً في هذا المجال؛ فهو يفهم كل النفسيات والشخصيات وينجح في كل الحالات. فكان يطلق النصائح، ويحاول حل المشكلات، ويبادر إلى رفع الخلافات، وكان يريد أن يحمل الناس جميعاً على أفكاره وأن يقنعهم بآرائه لينجحوا ويسعدوا. وقد حقق عقلُه السعادةَ لبعض الناس فظن أنه قد نجح ومضى في العمل. ولكن مَنْ حوله بدؤوا ينفضّون عنه واحداً بعد الآخر لمّا عرفوه جيداً، فقد لاحظوا أنه ليس كما يبدو أولاً؛ فهو ماهر في التأثير بالآخرين وخطف أبصارهم، ولكنه فاشل في تطبيق ما يدعو له من أفكار؛ فقد فشل مع أبنائه وأخفق في تربيتهم فضاع أكثرهم أو انحرف عن الطريق المستقيم. فهو لم يصلح لتسيير حياته فكيف يقود سواه؟

لقد أدرك الذين يعرفونه أنه بشر مثلهم يخطئ ويصيب وليس له ما يميزه إلا اعتقاده بأنه متفرد، ولا بد أنهم قد سعدوا جداً بهذا الاكتشاف! وآه لو أدركنا كم تسبّبَ هذا الاعتقاد في مشكلات، وكم أدى إلى اختلافات، وكم تسبب في أذى وحزازات. وكثيراً ما تدخّل البعض في ما لا يخصهم بسببه، وكثيراً ما أساؤوا وأفسدوا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

من حيث لا يشعرون:

- كثير من الأمهات إذا زوجت الواحدة منهن ابنتها راحت تتدخل في شؤونها وتبالغ في نصحها وتعلمها ما تفعله مع زوجها، فإذا خَطّأها من يرى ذلك السلوك لديها وطلب منها أن تكف يدها وتدع الزوجين بحالهما لم تتعظ لأنها تعتز بعقلها وترى أن تلك هي الطريقة السليمة لحل مشكلات ابنتها. كم من المرات سمعنا عن مثل هذه الحالة في الحياة أو رأيناها من قرب، فلا تكاد تمضي مدة حتى يدب الخلاف بين الزوجين الناشئين، وقد تصبح الحياة بينهما مستحيلة فيعيد الزوج البنت إلى بيت أمها ويهرب بعيداً!

- وأعرف أباً من هذا النوع؛ فهو يريد أن يتبع أولاده كلامه شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وكان -والشهادة لله- راجح العقل حكيماً في النظر إلى الأمور، ولكن مَن منا لا يخطئ؟ فقد نصح -مرةً- ابنه الموظف بأن يحل مشكلته مع مديره بالمواجهة، فيقول له ما يراه فيه من نقص وتقصير بوضوح وصراحة. واتبع الابن المسكين نصيحة أبيه (كما هي بلا تفكير) فقال لمديره: "أنت تتحايل على القوانين وتديرها لصالحك وصالح الموظفين الذين تحبهم، وتهمل مصالح الموظفين المستقيمين"! فتسبب لنفسه بمشكلة عظيمة انتهت بفصله من عمله. ولعل هذا الأب لم يدرك أنه نصح ابنه نصيحة من الواضح أنها خاطئة، ونصحه إياها من دون أن يطّلع على حقيقة المسألة ودقائقها وعن طبيعة الشركة وشخصية المدير، فهو سمع ولم يرَ كيف تسير الأمور عياناً فلعل ابنه قد نقل له صورة غير صحيحة، فكيف تسرع وطلب منه أن يتهجم بكلامه على المدير قبل أن يمحص ويتأكد؟ هذا أولاً. وثانياً هو لم يتفهم أن شخصية ابنه قد تكون مختلفة تماماً عن

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

شخصيته (وكثير من الآباء المتسلطين على أبنائهم يكونون كذلك)، فلا يمكنه أن ينفذ كل ما يقوله له بالكفاءة المطلوبة، ولا يمكن للأب ملازمته ليعلّمه كيف يتصرف خطوة بخطوة، ولذلك فإنه مهما تلقى منه من توجيه وتعليم فلن يكون يوماً مثله، فلا بد أنْ تغلب الابنَ طباعُه عندما يفاجَأ بموقف أو حادثة فيتصرف على سجيته. كما أن مشكلات كل إنسان نابعة من شخصيته، **ولو كان أحدنا مكان الآخر لما وقع في مشكلاته أصلاً، ولكنه سيقع في غيرها لا محالة!**

وإن أصحاب العقول الراجحة هؤلاء لا يتصبرون حتى يحيطوا بجوانب المشكلة ولا يضعون في حسبانهم اختلاف الظروف وتنوع القدرات وتباين الشخصيات والقدرات؛ إنهم لايرون إلا حلاً واحداً يقدمونه فيأتي ناقصاً قاصراً.

* * *

أما الحقيقة التي تفوت أغلب الناس فهي أن **الصواب يتعدد**، وليس شرطاً أن يكون الرأي السديد واحداً وأن يكون الطريق المؤدي إلى الغاية مفرداً، وإلا لشق الأمر على الناس وصَعُب.

ولذلك كان الاختلاف، ولو أراد الله لجمع الناس على رأي واحد، ولكنه لم يفعل وترك الخيار لهم في كثير من الأمور (حتى التشريعية منها)، فترك لهم -مثلاً- قضية الأسرى مخيراً إياهم بين أربع: فإما منّاً، وإما فداء، وإما الأسر، وإما القتل. وترك لهم اختيار يوم العقيقة وجعَلها بين ثلاثة: السابع أو الرابع عشر أو الواحد والعشرين. وكله صواب وصحيح، وفي ديننا الكثير من ذلك لأن هذا الاختلاف يوفر لنا السعة ويجلب علينا التيسير، بالإضافة إلى

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أنه يزودنا بالخبرات.

ولكن أغلب الناس يصرون على آرائهم بشكل عجيب، ويحبون أن يكون مَن حولهم من الناس نُسَخاً مطابقة لهم في الحكم على الأمور وفي السلوك، ويبذلون جهوداً مكثفة لإقناع الآخرين بصحة منطقهم (فالأمر صعب لما يبديه الآخرون من مقاومة وصلابة)، ولن تنجح في النهاية إلا ثلة قليلة في السيطرة والهيمنة على عقول من حولها.

وهؤلاء لا يَمَلُّون فنراهم يُمْلون علينا في كل مناسبة ما ينبغي علينا فعله ويخططون لنا ثم ينتظرون أن ننصاع لتخطيطهم ونحن أصحاب المناسبة ونحن الأدرى بظروفنا! فإن كان عرساً لأخ لنا أملَوا هم علينا المبلغ الذي يجب أن ننفقه وفي أي المصارف نصرفه، وإن كانت تعزية لواحد من موتانا حددوا طقوس العزاء وزمانه ومكانه وكأن الميت ميتهم وكأننا لا رأي لنا في الأمر، يفعلون كل هذا ثم هم يغضبون إن لم نستجب لعقولهم.

وما يزال بعض الآباء -إلى اليوم- يتوقون لتحقيق أحلامهم في أبنائهم؛ فهم يجبرونهم على دراسة فروع لا يريدونها، وعلى امتهان مهن لا يحبونها، وعلى مصاهرة عائلات لا يرضونها، وعلى تنظيم حياتهم بالطريقة التي يرتاحون هم (الآباء) إليها، ويعتقدون أنهم أعرف بمصلحة أولادهم منهم. وأنا لا أنكر أن ذلك قد يصيب تارات، ولكن الأغلبية يتعثرون ويفشلون وتلاحقهم التعاسة عندما نجبرهم على ما لا يريدونه. فلا يجوز لنا أن نعمم أحكامنا على الجميع.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وآخرون ينصحون الناس نصائح خاطئة فيبدّلون سلوكهم الأحسن إلى الأسوأ، ولشدة ثقتهم بعقولهم لا يشعرون بما أفسدوه:

- نصح أبٌ ولده الشاب بأنه إن أراد أن يعامَل معاملة الرجال فإن عليه أن يتصرف كالرجال. النصيحة جيدة حتى الآن، ولكن تتمتها غريبة؛ فقد نصحه بأن يتصدر المجالس (مع أنه أصغر الموجودين) وبألاّ يؤثِر بمكانه أحداً لأن في هذا تقليلاً من شأنه، وأن يشارك الكبار في حديثهم ويكثر من إبداء رأيه... فسمع الولد نصيحة أبيه وصار يجلس في مكانه ولا يبرحه (بعد أن كان مضيافاً مُؤثِراً) ويترك من هو أكبر منه قائماً بخدمة الضيوف! وصار يدلي بآرائه التي لم تنضج بعد فتبدو ساذجة أمام آراء الكبار. وليته يعلم ووالده كم بدا سلوكه مشيناً بعد النصيحة تلك.

* * *

لم تعد النصيحة اليوم تنفع أحداً، بل لم يعد أحد بحاجة إليها لرجاحة عقل جميع الناس! ورغم ذلك كثيراً ما يندم بعضنا ويتمنون (ولات حين مندم!) لو أنهم سمعوا النصيحة:

- لما تزوجتُ سكنت في بيت مستأجَر، فأضعتُ جل وقتي وجهدي في تنظيفه وترتيبه والعناية به، ولبثت -كل مدة- أفارقه إلى غيره فأكرر ما صنعت في البيت الأول. وقد تلقيت عدة نصائح (من أمي خاصة) بأن أخفف، فلم أستجب. حتى إذا ذهبت قوتي وضعف جسمي انتبهت فانتهيت. فلما انضمت إلى العائلة من تشبهني في هذا الطبع من النساء رأيت أن أفيدها من خبرتي وتجربتي، فنصحتها وبينت لها، فلم تسمع نصيحتي وحذت حذوي حتى صارت إلى ما

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

صرت إليه.

فكيف نتوقع من الناس أن يسمعوا منا ونحن لم نستمع لغيرنا؟!

ولم تعد المشورة -كذلك- مفيدة لأن كل امرئ يرجع إلى ما يمليه عليه عقله وقناعاته ولا يكترث بتجارب الآخرين ولا يثق بخبراتهم (ولو كانت أطول وأعمق) فلا يشاورهم أصلاً أو يشاور ويخالف.

* * *

وأعجب ما في هذا الباب أن العقل تتغير آراؤه وأحكامه على الأشياء وعلى الناس كلما تقدمنا في العمر وعاركنا الحياة؛ فينضج فيقبل على أمور ويتراجع في أخرى، وكلما تغير الفرد وبدل معتقداته حاول أن يقنع الناس بالتغير معه، وهذا غير منطقي ولا معقول:

- روّجَ أحدهم -مرةً- أن فلاناً البائع سيء ويخالط مالَه الحرامُ، وسأل الناس مقاطعته وسعى إلى التشهير به. ولم تمر سنة حتى وجد أنه مخطئ وأنه قد ظلمه بغير حق؛ فعاد ليغير قوله ويمدحه بعدما ذمّه!

فهل أعراض الناس بهذا الهوان لنستبيحها يوماً ثم نمتدحها يوماً لأن عقولنا العظيمة أوحت لنا بذلك؟ وهل يتم استرجاع الثقة بنفس السرعة التي فُقدت فيها؟ هيهات هيهات.

- وقد كان رجل يحب صديقاً له ويرافقه أينما ذهب ويفرضه على الناس فرضاً ويدافع عنه إذا غاب. وكان صديقه رجلاً ودوداً فأحبه الناس، ولأمر ما تقاطع الصديقان، فصار الرجل يحمل الناس

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

على بغض صديقه ويدفعهم إلى مقاطعته دفعاً لأنه هو قد قاطعه ولم يعد يحبه! فهل الناس إمّعة لا رأي لهم ولا ذوق ليتبعوا آراءنا وهوانا؟ فأي منطق هذا، ومَن منا يقبل به؟

ونحن لا يعجبنا أن الناس لا يقتنعون إلا برأيهم ثم نصمم نحن على آرائنا! فهل رضي أحد منا يوماً برأي غيره؟ هل تعرفون شخصاً إن سمع الحق انحاز إليه وإن رأى الحجة استسلم وإن علم الدليل أذعن له؟ أما أنا فلم أقابل مثل هذا.

وما الجدال في الدين والمراء في أمور الدنيا إلا ثمرة من ثمار اعتداد كل إنسان برأيه وعقله. وليس هذا بالخلق الإسلامي، ولكنه فاشٍ ومنتشر. ألم ترَوا إلى الذين يحرصون على أن تسير الحياة وفق قوانينهم وآرائهم، فإن اضطروا هم للخضوع إلى قانون أعلى تمردوا واعترضوا وإن كان القانون الآخر أعدل وأفضل؟ ولقد جاء النهي عن مثل هذا الخلق، ولكن أكثر الناس لا يتعظون، فيتمسك كل فرد بما انشرح له صدره وبما يوافق منهجه وشخصيته وأحياناً مزاجه وهواه، ولا يقبل -بعد ذلك- النقاشَ العلمي ولا الحجج المنطقية ولا أقوال الخبراء والمختصين (إلا من رحم الله).

والخلاصة:

إن أكثر الناس معجبون بعقلوهم وطريقة محاكمتهم للأمور، فلا يراجع الفرد قناعاته ليميز الخبيث من الطيب (إلا نادراً)، بل إنه يحاول حمل الناس -ولو قسراً- على اعتناق أفكاره.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

المشكلة الثالثة

نحسب أننا متفضلون على الناس بعطائنا

لماذا لا نقر ونعترف بأن كل فرد فينا يحسب أنه مغبون الحق ويرى نفسه شهيداً بين الناس الذين يعايشهم؛ فهو يبذل جهده في تعامله مع من حوله فيحسن إليهم مادياً ومعنوياً، ثم لا يجد منهم إلا القسوة والسوء والجحود والنكران؟!

- كانت شابة مثالاً للتضحية والإيثار وكانت تحسن إلى صديقاتها فأحببنها واعترفن لها بالتفضل والإحسان. وكان من جملة عاداتها أن تعود المريضة وتداوم على الاطمئنان عنها حتى تبرأ. وقد جعل ذلك العملُ لها رصيداً كبيراً بين صديقاتها، فكانت إذا أعلنت عن دعوة في بيتها ساعدها الجميع في الإعداد لها، وإن مرت بمحنة ساندها كل من حولها وساهموا في رفع الحرج عنها، وإن صارت عندها مناسبة توالت عليها الهدايا الفاخرة، إلخ. ولكنها نسيت ذلك كله حين مرضت ذات يوم فلم تسأل عنها غير صديقات معدودات ولم تتلقَّ سوى زيارات عابرات. لم يُرضِها كل ما وجدته من قبل من حفاوة وعرفان لأنها كانت تتوق إلى أمر واحد لم تجده (هو عين ما قدمته)، وبما أنها لم ترَ إلا شيئاً يسيراً منه فقد ظلت تعتبر نفسها شهيدة وأن أحداً لم يقدر بذلها وعطاءها، وبالتالي فإنها لم تُعوَّض

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

شيئاً! فكانت متألمة أشد الألم حزينة بسبب نكران مَن حولها لفضلها.

تعاطفتُ مع هذه الشابة لمّا سمعت قصتها (وكنت فتاة صغيرة) وتمنيت أن أفعل شيئاً لمساعدتها، ولكن أمي نبهتني إلى أمر هام قد فاتني وفات تلك الشابة، هو أن الناس قدرات؛ فما تحسنه تلك الشابة من البذل والتضحيات قد لا يحسنه غيرها، كما أن أحداً لا يستطيع أن يعيد لغيره عينَ ما قدموه له. من أجل ذلك ينبغي على كل فرد أن يقدر هذا، وحسبه أنْ أحبَّه الناسُ وسارعوا إلى التعبير عن حبهم له، وحسبه ما خصوه به من العناية والرعاية، وهذا شيء عظيم في زماننا لأن أغلب الناس صاروا ينسون المعروف ويجحدون الفضل.

فوجدت كلام أمي مقنعاً تماماً، وقد تعلمت منها درساً مهماً في ذلك الموقف أفادني في حياتي؛ فأنّى لفرد أن يحصل من الناس على عطاءٍ بمقدار ونوع ما قدمه لهم؟ وليس من المروءة -أصلاً- أن يمسك المسلم دفتراً للحسابات يدوّن فيه مقدار تفضله على إخوانه، بل عليه أن يرمي الخير وينساه، ولا بد أن يرتد عليه يوماً؛ لأن الناس -وإن كان فيهم الأجادب- فإن بينهم من يهتز ويُربي المعروف.

فليرضَ مثل هذا بما قُدِّم له وليعذر إخوانه، فهم لم يتقاعسوا لسوءٍ فيهم أو لاستهانةٍ به أو نكراناً لجميله، وإنما فعلوه عجزاً عن مجاراته؛ والدليل أنهم قد حاولوا التعويض بأمور أخرى.

* * *

هذه القصة فتحت لي الآفاق للتفكير في سبب إحجام بعض الناس عن الإثابة على العطاء مع تقديرهم له وقدرتهم على رده،

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فوجدت أن الخلل (لدى بعضهم) يكمن في التصور الذي يحمله في عقله تجاه ما يُقدَّم له:

(١) فمن الناس من يعتبر أن من الطبيعي أن يقدم الكبير للصغير، ولذلك فهم لا يفكرون أبداً بإثابة والديهم وأعمامهم وخالاتهم على ما يبذلونه لهم، وإنما هم يكتفون بالشكر ويمضون، وهذا خطأ.

والبعض الآخر يرى أن إحسان الغني إلى الفقير والقادر على العاني واجبٌ لا ينبغي الشكر عليه، وهذا خطأ؛ فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله. ولعل سبَبه قصورٌ في التوجيه أو اتباع للعادات السائدة.

(٢) وبعضهم الآخر يستكبر أو يستحيي أن يقدم شيئاً حقيراً لمن أولاه معروفاً عظيماً، فهو ينتظر فرصة كبيرة ليرد الجميل الذي طُوِّق به، ومثل هذه الفرصة قد لا تأتي أبداً. وصاحب المعروف غير مطّلع على الغيب، فهو لا يعلم صدق نوايا أولئك الذين أحسن إليهم وتقديرهم لفضله، ولذا فهو قد يعتبرهم من الذين يجحدون المعروف.

(٣) وبعض الناس يحجم عن العطاء لأنه منعزل عن معارفه لا يعلم ظروفهم، فتفوته فرص كثيرة كان يمكنه فيها إثابة الناس والإحسان إليهم.

(٤) والمرء -ولو كان معطاءً كريماً- ليس دائماً على حالة واحدة من الانشراح، فقدرته على العطاء تتغير وتتفاوت بين وقت وآخر؛ فقد يمر بضائقة، وقد يمرض، وقد يلازمه الضيق مدة فلا يستطيع تقديم شيء للناس.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

كما أني تنبهت إلى أن العطاء بين الناس يكون كموجات المد والجزر، فالدنيا دَوّارة، ومن كان يعطي اليوم هو الآخذ غداً، فلا يغترَّ مُعطٍ بيده العليا ولا يبتئسْ آخِذٌ بيده السفلى؛ إذ لا يدوم على حال إلا مغير الأحوال:

- عرفنا أخوين تبنّى الكبيرُ منهما الصغيرَ زماناً؛ فكان يُحسن إليه وينفق عليه، حتى إذا كبرا انعكست الأمور فصار الصغير يحمل عن أخيه الكثيرَ من المسؤوليات في البيت والعمل، في حين توقف الكبير عن الإحسان إليه لمرضه وقلة ذات يده.

* * *

إن الفرد منا يحسب أنه قد تفضل على غيره إن هو عاده في مرضه، أو فك كربة من كربه، أو أنظر عسره... وإنْ هذا إلا أقل حقوق المسلم على أخيه؛ فهو واجب له عليه، ولا يُعتبَر الواجب تفضلاً أبداً. بل إن الناس -اليوم- صاروا يقصرون في واجباتهم ويطلبون أكثر من حقوقهم، هكذا بكل جرأة، فقد اندثرت الأخلاق ومسَّ الجحودُ كلّ علاقة حتى علاقة الأهل بأولادهم:

- فقد تملص أبٌ من الإنفاق على ولده ورفض تعليمه أو السعي لتزويجه، وتركه يتعثر ويتخبط ويستدين، حتى إذا ما درس الولد وتوظف مدّ الأب يده ليأخذ منه المال، بل كان يأخذ منه لغير ضرورة ليرفه عن نفسه أو يشتري الكماليات. فلما مرض الولد مرضاً خطيراً واضطر الأب لإخراج شيء من المدَّخرات (التي جمع أكثرها من أموال ولده نفسه) لعلاجه عيّره دهراً بأنه أنفق أمواله عليه! حتى لقد تمنى الولد لو أنه مات في مرضه ذاك ولم يسمع هذا الكلام

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

المؤلم.

- وبالمقابل اعترف أبٌ فقال: "لقد أنفقت المال على أولادي لأعلمهم في أفضل وأشهر الجامعات واعتبرت -على الدوام- أنني قد تفضلت عليهم بعملي هذا، وكنت أنتظر منهم مقابلاً! ثم رأيت أصحابي وأقاربي يصنعون مثل هذا مع أولادهم، بل وأكثر منه، فاكتشفت أنني لم أفعل شيئاً يذكر؛ فأغلب العائلات اليوم تتبنى أبناءها فتعلمهم إلى آخر المراحل العليا وتجهزهم للزواج وتنفق عليهم، فما التفضل الذي قدمته، وكيف كنت أنتظر عليه أجراً؟!". وكم خجل الرجل من هذا الاكتشاف وشعر بنقص في عواطفه وفي أسلوب تفكيره، وربما ندم لأنه صرح بهذه الأقوال أمام الأغراب بعدما اكتشف أن الطبيعي أن يقدم الأهل لأبنائهم كل ما يستطيعونه ومن غير حساب.

* * *

كلنا فكر -يوماً- بهذه الطريقة ورأى نفسه يستحق التقدير والمديح والإشادة والذكر الحسن لما ضحى به ولما آثر غيره على نفسه، ولا بد أنه باء -يوماً- بصدمة من جراء تفكيره هذا. ولله درنا! فإننا ندرك الأشياء التي تُفرح النفوس ونقدّر ما يدخل السعادة منها على القلوب، ثم نتقاعس عن تقديمها إلى ذوينا ونتوقع -من بعد- أن يقدمها الناس إلينا، فكيف يكون ذلك لنا؟!

ولا أنكر أن فينا من بذل وقدم شيئاً متميزاً يستحق فعلاً الثناء والشكر، ورغم ذلك أهمله الناس ونسوه. وإن لذلك أسباباً منها أنه قد يكون بذل متكبراً مبيناً أن يده هي العليا، وقد يكون بذل الخبيث

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

من ماله ومنع الطيب منه... فإن كان بريئاً من ذلك وأمثاله فإن إهمال الشكر قد يكون لعلة فيمن حوله، وسيأتي بيان ذلك في ثنايا الكتاب.

ومهما يكن فإن من يفكر بهذه الطريقة هو عدو نفسه، لأنه سيرى نفسه عظيماً ويرى الآخرين أقل منه بذلاً وكرماً وعطاءً. والناس سينكرون عليه حين يطّلعون على حقيقته وسيعرضون عنه، لأنهم كلهم يشعرون بنفس الشعور ويتوقون للشيء نفسه وهم محرومون منه، فلماذا يخصّونه به وحده من دونهم؟

فهل فينا من يعتبر ويترك الإحصاء على الناس، ويتوقف عن عد ما يقدمه إليهم ويبذله من أجلهم، ويفكر بسواه من الشهداء (أي ممن بذل وقدم وضحى من سائر الناس)؟

* * *

وإن من يجهد نفسه بإحصاء ما يقدمه للناس ومحاسبتهم على بذلهم قد يتصبر عليهم مدة فيخفي مشاعره ويسترها، ولكنها تظهر بعد ذلك في لحن القول وفي السلوك، فيستعرض كل مدة على مسامع الآخرين شيئاً مما بذله من أجلهم، فيقول مثلاً: لولا أني درّست ابنك مجاناً ما نجح، ولولا أني اقترحت عليك دراسة التجارة بدل الآداب ما كنت وجدت عملاً، ولولا أني أنفقت عليك لتتعلم لغة أجنبية ما ارتفع راتبك... ثم يصبح هذا ديدنه فيفسد إحسانه بالمنّ، فتخرب علاقته بالآخرين. وسرعان ما يشحذ هذا الأمر ذاكرةَ من حوله فيمنون عليه هم أيضاً بما قدموه له، وتصبح العلاقات الإنسانية علاقات مادية تعتمد على الأخذ والعطاء فتفقد روحها، ويظل كلا الطرفين يشعر بالغبن وبأنه الأكثر بذلاً.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لقد أصبح المن اليوم كنشرات الأخبار؛ فهو يذاع على الملأ، ويتكرر، ولا نكاد نعرف فرداً لم يشرح للناس ما قدمه لهم وما بذله من أجلهم. وكم يألم الإنسان عندما يتلقى مناً على حسنة وصلته من غير سؤال ولا استشراف، ويألم أكثر عندما يرى أن العطاء يكون أحياناً جبلة وطبعاً لا يمكن لصاحبه التخلي عنه، فيفسده بالمن والأذى:

- أعرف سيدة كذلك. إنها لا تسعد إلا بالعطاء ولا تستطيع أبداً أن تتوقف عن الإحسان إلى الناس، فلا أراها إلا ساعية في فك كربة هذه أو مساعدة تلك، ثم هي تتصدق على ثالثة، ولكنها إذا تضايقت منهن أو أحست بأنهن لم يبادلنها تعاملها (وإن كن عاجزات) أبدت ندمها وأسفت على ما قدمته لهن وأكرهت نفسها إكراهاً على كف إحسانها!

* * *

ولن يستطيع الإنسان أن يمنع خيره عن الناس لأنه سيفقد الإنسانية ساعتئذ. كما أنه لا يستطيع الاستغناء عن إحسان الناس إليه أبداً؛ فبعد أن سمعت ورأيت بشاعة أن يمن المرء على أخيه قررت أن لا أقبل أي إحسان من أي فرد، ليس لأنني لا أحتاجه، وإنما خشيةَ أن يمن عليّ يوماً. ولم تمض إلا بضعة أيام حتى اكتشفت أن المرء قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه، ولا بد من أن نحتاج خدمات الناس ولا بد من أن يحتاجونا، فما لنا إلا أن نتقبل صدقات بعضنا على بعض. إلا أني **أنصح كل نفس بأن لا تُقدم شيئاً إلا عن طيب كامل منها، وذلك خشية أن يأتي يوم تمنّ فيه على غيرها.**

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

إذن لا يستطيع الإنسان أبداً أن يعيش من غير أن يعطي ويأخذ ويضحي ويبذل ويتلقى التضحيات من الغير، فلا بد أن يقدِّم ولا بد أن يُقدَّم له:

- وقد عرفت سيدة تحسب أنها تستطيع ذلك، فشعارها الدائم الذي دأبت على رفعه هو أنها لا تحب أن تطلب شيئاً ولا أن يقدم لها أحد خدمة، ولكنها في الحقيقة تفعل وتتعدى على الشيء الثمين وتستعمله وهو ليس لها؛ فبطريقةٍ ما تصل أشياء الناس (من آلات وأدوات) إلى بيتها فتحتفظ بها وتستخدمها دهراً، ثم تتعفف إن عُرض عليها الشيء اليسير كإعارتها مشبكاً للشعر أو ملاقط لتثبيت الغسيل!

والخلاصة:

كلٌّ منا يظن أنه متفضل بعطائه المادي والمعنوي على مَن حوله. والحقيقة أن كل فرد فينا يعطي ويأخذ باطراد، ولا يمكن أبداً أن نقيس بدقة مقدار ذلك، سواء أكان هدفنا مكافأة المتفضل علينا أم معاقبة المقصر معنا.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

المشكلة الرابعة

نتوقع الكمال في شخصياتنا ونزكّيها ونراها الأجدر بكل خير

لا يكتفي المرء بكل ما سبق من مبالغة في تقدير ذاته، وإنما يرى أنه يتحلى بأرفع الصفات، وأنه لا تصدر منه الهفوات فضلاً عن الحماقات التي يقع بها معظم الناس.

وكل فرد فينا يرى نفسه شيئاً متفرداً وعظيماً، فيتوق إلى كلمات الإعجاب وينتظر المديح والثناء، وغالباً ما يطول انتظاره.

وكم أتضايق من أناس كلما جلست إليهم أتحفوني بما فعلوه من مواقف مشرفة، وما بذلوه من إكرام وإحسان، وما كاله لهم الناس من مديح، ويتلون عليّ الثناء الذي سمعوه في عرض سخيف وممل، فهو يتكرر كثيراً. وطالما سمعت القصة نفسها مرات، إذ كلما دخل المجلس فرد جديد تليت عليه القصص مجدداً، وكلما جاءت مناسبة أعيد سرد سجل المدائح. وإن هذا الاستعراض يتعارض مع أبسط الأصول المعروفة، وهي وجوب الترحيب بالضيف وإظهار الاهتمام به، لا إظهار التفوق عليه.

وحتى يرفع المزكي نفسه عن الناس يكون بحاجة إلى تحقيرهم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لتتسع الهوة بينه وبينهم، واسمحوا لي أن أشرككم معي فيما أسمعه:

- فقد أعجبت ضيفة بديكور البيت الذي تزوره وأثنت على ذوق صاحبته الرفيع ثم شبهتها بفلانة (قالت ذلك تمدح الاثنتين)، لكن فلانة غضبت لأنهما تساوتا فدافعت عن تميزها (لتبين أنها الأفضل مطلقاً في هذا المجال) قائلة إن بيتها أكثر جمالاً وبهاء وأحكم ترتيباً وتناسقاً لأنها ذات خبرة عريقة في القواعد الأساسية للديكور وهي تستعمل كافة الأساليب الحديثة لتجميله وتنميقه ليبقى متميزاً متألقاً، مما يؤكد أنها متفوقة وضليعة في هذا المجال ولا يمكن لأحد أن يجاريها.

- وسألت ابني: لماذا لا تذهب إلى محاضرات فلان، فهو ذو علم وخبرة ولعلك ترجع بشيء نافع. فقال: أنا لا أحب سماع محاضراته لأنه ينفق نصف المحاضرة بامتداح نفسه، وهو خلال ذلك يسفّه غيره من الناس بشكل مبطن. كما أنه يسأل الحضور أثناء محاضرته أسئلة دقيقة لا يعرف أجوبتها غير المختصين، وهي أسئلة لا تنفع أجوبتها مَن يعرفها ولا تضر من يجهلها، حتى إذا عجزوا عنها (وأنّى لمثلهم أن يعرف إجابتها؟) سخر من جهلهم واستهزأ بهم، فيخرجون من محاضرته محبَطين مغمومين.

- ودأب رجل على انتقاد كل من حوله والاستخفاف بهم ليعلو عليهم، فيقول لهذا: أنت لا تحسن قيادة السيارة وقد كثرت الحوادث التي تتسبب بها وأنا لم يقع معي حادث أبداً، وللآخر: أنك تتأخر في مواعيدك وأنا يضبط الناس ساعاتهم على وصولي، وللثالث: أنت غير منظم ولا تستطيع ترتيب أولوياتك وتنسى ما تكلف به، أما

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أنا فلا أنسى شيئاً وأعرف كيف أنظم أموري، إلخ.

فالذي يمدح نفسَه يظن أنه الأفضل دائماً، قد أقنع نفسه بهذا وطفق يحصي سقطات الغير وزلاتهم ليثبت ذلك ويرضي قناعاته، فإذا رآها لا تزال قليلة ضمّ إليها ما يسمعه من سواد الناس (عن أخطاء بعضهم البعض) دون تثبت أو تأكد ليستكثر من زلات الآخرين وسقطاتهم لتبدو حساباته التي ترفعه هو وتخفض من حوله صحيحة، فيسخر ممن حوله ويستهزئ بهم ويقلل من شأنهم، وليته -بعدها- فعلاً خير منهم إنه مثلهم وأحياناً أقل منهم.

وقد يكون بعض من يزكي نفسه متميزاً فعلاً أو هو متفوق عن غيره في بعض الجوانب ولكن **تزكية المرء لنفسه تفقده التميز في نظر الآخرين، حتى لو كانت صفاته فريدة وبارزة حقاً؛ فالناس يتضايقون ممن يفعل ذلك ويميلون إلى التقليل من شأنه والانتقاص من مزاياه، وهم ينفرون من مصاحبته ويُعرضون عنه لأنهم لا يرون منه إلا تكبره عليهم.**

* * *

وكثيراً ما يبدو الناس مضحكين وهم يزكون أنفسهم، فأرى المرء فيهم يمتدح قوة شخصيته وهو ضعيفها، ويتكلم عن ذكائه وكل مَن حوله يعلم أنه متوسط الإدراك:

- كنت أسمع سيدة تشرح كم تحافظ على كرامتها وماء وجهها، ثم أراها بعد دقائق في مجلس الجارات تستعطف الجارة التي تجلس مقابلها لتدعوها إلى حفل زواج ابنتها، وتلتفت إلى الأخرى التي بجانبها وترجوها أن تقرضها مبلغاً من المال تجدد به بعض أثاث

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

بيتها، وهكذا.

- ولاحظت مرةً ورفيقاتي أن إحدى صديقاتنا لا تهتم بنظافة بيت الخلاء، فكان حمام بيتها وسخاً تظهر عليه البقع ويغطيه الغبار ويتناثر فيه الشعر، بل إنها كانت لا تهتم حتى بتطهيره من النجاسة. فقررت وصديقاتي (بعد أن زرناها عدة مرات وفي أوقات مختلفة وتأكدنا من إهمالها) أن نطرح موضوع النظافة والطهارة ونعظها بشكل غير مباشر.

أتدرون ماذا كانت النتيجة؟

لقد كانت النتيجة أن تحمست تلك المرأة معنا، فاستلمت هي زمام الحديث وشكت لنا بحرقة عن وساخة بيوت الناس وكيف تتحرج هي من غسل يدها في حماماتهم فضلاً عن قضاء حاجتها. وراحت تستفيض وتشرح عن النظافة وضرورتها وفوائدها، فنظرت كل واحدة منا إلى الأخرى، وأخذنا نحوقل ونسترجع سراً!

فماذا يمكننا أن نفعل وقد بلغ من شدة تنزيه الإنسان لنفسه أنه لم يعد يرى الأشياء الملموسة المحسوسة التي تُدرَك بالعين المجردة وبغيرها من الحواس، فكيف سيدرك الأشياء المعنوية والصفات السيئة التي لا يمكن رؤيتها ولا قياسها؟

* * *

وقد يعتقد الفرد بأن الحق دائماً في جانبه لأنه إنسان مسلم ملتزم ولأن غيره منحرف أو فاسق، أو لأن خصمه دونه في المكانة الاجتماعية... فينزّه نفسه -بناءً على هذه الحيثية- ويعتبر الحق في

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

جانبه مهما حدث ويظن أنه فوق المساءلة. وهذا خطأ بيّن، فقد حكم الصحابة ليهودي على مسلم ولم تمنع ديانته من أن يكون الحق في جانبه. ولذلك أمرنا الإسلام بأن نعدل ولو على آبائنا أو إخواننا، وأن لا نبرر لأنفسنا ولا ننزهها، وأن نرى الحق حتى في أنفسنا، فهي تخطئ وتغفو عن الحق:

- اشتكى سائق البيت لرب الأسرة من السيدة زوجته التي تؤخره مساء عن بيته ثم تطلب منه أن يأتيها في وقت مبكر صباحاً، وتتركه ينتظر لفترات طويلة في الحر الشديد من غير أن تقدم له الطعام والشراب. فلما جاء الزوج ليستفسر من زوجته عن حقيقة ما سمعه غضبت واعتبرت أنها فوق المساءلة وتعجبت من أن يستمع زوجها للسائق ثم يأتيها وكأنه اقتنع بكلامه! ولم يكن الأمر كذلك؛ فالزوج أحب أن يتبع الشرع فسأل زوجته عن صحة ما سمعه ليحق الحق كائناً ما كان، فهذا هو السلوك الإسلامي القويم، وعلي ﷺ لما اتُّهم تقبل ذلك وجلس مع خصمه أمام القاضي بكل تواضع وكان راضياً بأي حكم سيصدر عنه.

فما لنا نحن اليوم نستكبر أن نُسأَل ونعتبر أننا فوق الشبهات؟ ونستكبر -أيضاً- أن يشكك أحد في اتهام نلقيه بلا تثبت أو أن يطلب منا دليلاً عليه، فنحن نعتبر أننا على الحق دائماً فننزه أنفسنا ونزكيها وننسى أن الله سيسألنا يوم القيامة عن صحة ما ادعيناه.

وبالمناسبة، فغضب المرء أو تأثره من أمثال هذه القصة له سبب آخر مهم؛ فالناس يصنفون معارفهم جميعاً في درجات متفاوتة من القرب والبعد ثم هم ينحازون -عند الشقاق- إلى الأقرب فالأقرب؛

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فهم يقدمون أنفسهم على الناس جميعاً فيدافعون عنها ولو ضد أشقائهم، فإن كان الخلاف بين أشقائهم وأبناء عمومتهم انحازوا لأشقائهم، وهكذا فهم دائماً مع الرحم الأقرب. من أجل ذلك توقعت هذه الزوجة أن يكون زوجها أقرب إليها من السائق فيكون معها ضده ولو أخطأت، فلمَّا لم تجد منه ذلك أثار هذا أشجانها.

فالناس يظنون أن المروءة والشهامة تكون في التعصب لأقربائهم والدفاع عنهم في الحق والباطل، ويعتقدون أنهم إن قالوا الحق على آبائهم أو أبنائهم أو أزواجهم فإنهم يكونون قد عقوهم وتخلوا عنهم. والحقيقة أن **الناس يتحيزون لرحمهم بالباطل ولا ينتبهون؛ فيُملون لهم ليزدادوا ظلماً**، ويزيّنون لهم أعمالهم فيزدادون غياً، ويكونون لهم بطانة سيئة فلا ينصحونهم ولا يبينون لهم أخطاءهم وعيوبهم فيكونون عوناً للنفس الأمّارة بالسوء عليهم... ثم يقولون: "هذه هي الأخوّة وهذا هو التعامل الإسلامي المطلوب"! وأي اعتقاد هذا؟! ومن أين جاؤوا به وقد جاء ما يخالفه في القرآن وفي قول النبي الكريم؟

فالنصرة الحقة والمحبة المطلوبة تكون بالأخذ على يد الظالم لا بمساعدته على الظلم والمد له فيه. وقد حاولت عبثاً أن أقنع بهذا مَن أعرف من الناس فلم يقتنعوا، بل إنهم ما زالوا متأكدين من أن مَن يشهد على أخيه أو زوجه بالحق وينحاز إلى خصوم أقربائه ليعدل وينصف ويتبع أمر الله يكون امرَأ سوءٍ لا يُرجى منه خير!

* * *

وتزكية النفس تقودنا إلى التملص من أخطائنا:

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

- هل رأيتم تلك التمثيلية التي عرضها الرائي (والتي قالوا إنها مقتبسة من قصة حقيقية) عن الرجل العجوز الذي أمضى عمره في ظلم أقربائه وأصدقائه وأكل حقوقهم والعدوان عليهم؟ فلما أتاه الموت لم يمنعه الاحتضار من الدفاع عن نفسه (بدل الاستغفار وطلب الصفح من الناس!) بل جلس يقنع ذويه (الذين أشبعهم ظلماً) بأنه لم يخطئ في حقهم متعمداً بل بسبب ضعفه وكبره وتكاتف هموم الدنيا عليه مما أفقده توازنه! وراح يضخم معاناته النفسية ليبدو مقنعاً ومثيراً للشفقة، فأمثاله لا ضير أن يغضبوا ويسيؤوا ويؤذوا مَن حولهم لأن ذلك أمر خارج عن إرادتهم (حسب تبريره)، أما أقاربه جميعاً فلن يسامحهم بل هم مسؤولون عن كل خطأ أخطؤوه بحقه (لأنهم شباب فيستطيعون السيطرة على أنفسهم، ولأنهم قضوا حياتهم في دعة ولم يمسهم نصب من الدنيا ولا لغوب)!

لقد بدا الموضوع غريباً ومضحكاً جداً، فلِمَ لَمْ يُعفِ الله كبار السن من المساءلة -إذن- أو يخفف عنهم العذاب؟ وهل يوجد في الدنيا نفس لم ينلها من مختلف أصناف الهم أو الغم أو البلاء؟!

* * *

ومن الناس من بلغ مبلغاً عظيماً من الرضا والاطمئنان عن النفس، وهؤلاء يسخرون من الآخرين ويتعاملون معهم بعلو منفّر. وتكون مجالسة مثل هؤلاء نوعاً من التعذيب؛ فكل كلامهم يدور في أفلاكهم وحول إنجازاتهم، فيبدو جنون العظمة واضحاً بيّناً في كل تصرف من تصرفاتهم، فلا يخفى حتى على أولئك الذين يتعرفون عليهم حديثاً، وسرعان ما ينفرون منهم (حتى وإن كان لسلوكهم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

هذا سبب وجيه):

- تعرفت في إحدى الزيارات إلى سيدة لطيفة وجدت تقارباً بيني وبينها، فملت إلى مصاحبتها، واعتبرت ثناءها على نفسها نوعاً من المرح والفكاهة الذي يزين شخصيتها. ولكني -بعد أن قابلتها عدة مرات- رأيت أنه جزء من شخصيتها، فتارة تحدثني عن عدد اللغات التي تتقنها، وأخرى عن تفوقها في دراستها وأنها الأولى دائماً، وتارة ثالثة عن محبة الناس لها، فالكل يحبها! وكنت أعرف أن الذي يبالغ في الثناء على نفسه تكون عنده عقدة نقص، وفعلاً سخّر الله لي صديقة قصت علي قصة حياتها، فعلمت كم عانت وتعبت، وأدركت لِمَ هي تثني على نفسها كل هذا الثناء وشعرت بالشفقة عليها.

إن الإنسان الناضج الواعي يعرف حقيقة نفسه ويدرك مقدار قدراته ويستطيع لجم انفعالاته، ومثل هذا يعترف له الناس بمزاياه وصفاته من غير أن يذكّرهم بها كل حين وآخر بلسانه، بل يكفي أن يستمر على خلقه الكريم وتعامله السامي ولا بد أن يكتشف الناس فضله ولو بعد حين.

* * *

وليت الأمر ينتهي هنا، إذن لهان الخطب. ولكن للموضوع بقية؛ وهي أن كل فرد غالباً- يرى أنه الأجدر بكل خير والأَولى بكل إحسان من سائر الناس! فهو على درجة رفيعة من الخلق والدين، فيتمنى لنفسه الرزق الوفير والزوجة الصالحة الجميلة، وينتظر ألا تصيبه الأمراض ولا تطاله الابتلاءات، فإن أصابه شيء قال بعضهم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

(والعياذ بالله) معترضاً: "ما الذي فعلته حتى يصيبني ما أصابني"؟! نتألّى على الله وننكر ونستنكر لأننا نحب الخير لأنفسنا، ونتمنى أن نُبتدَر بالخير قبل غيرنا ودون سوانا لأننا نرى في أنفسنا الأهلية الكاملة لحيازته؛ فنحن أقدر من غيرنا وأفضل بأعمالنا وأحسن مقاماً ونديا... وننسى أن الله لا يحب من يزكي نفسه فهو أعلم بمن اتقى، وننسى أن من يتألّى على الله يمنع عنه الخير ويعطيه لغيره.

والخلاصة:

إن المرء يتفنن في ابتداع الأساليب لتنزيه نفسه وتزكيتها، والأعجب أنه يختلق ذلك ثم يصدّقه ويحاول إقناع الناس به، والأكثر غرابة أن كل فرد يرى أنه يستحق كل خير. هذا إن لم يرَ أنه يستحق (وحده وبلا منازع) الأفضل من كل شيء من دون الناس جميعاً.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

المبحث الثاني

حقيقة سلوكنا مع الناس
والأخطاء التي نقع فيها

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

تمهيد

لن آتي أبداً في حديثي عن الإنسان وتحليل نفسيته وشرح طبيعته بشيء من عندي، وإنما سآتيكم بما قرره الرب الذي خلقه والذي فطره والذي لا تعزب عنه شاردة ولا واردة منه. اقرؤوا القرآن تروا من هو الإنسان وتعرفوا حقيقته، فكل هذا مبيَّن فيه بوضوح، وقد أدركته الملائكة حين قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّمَاء؟﴾. ولقد قرأت فما وجدت للإنسان وصفاً أجمع ولا أفضل مما كتبه جدي علي الطنطاوي من قديم في مقالة رائعة سمّاها: «لا أؤمن بالإنسان» (وهي منشورة في كتابه «صور وخواطر»، وكانت رداً على مقالة لعبد المنعم خلاّف دعا فيها إلى الإيمان بالإنسان)، وأستأذنكم بأن أدرج -فيما يلي- مقاطع منها:

"وإذا كان الله الذي خلق الإنسان على أحسن تقويم وكرّمه وعلمه البيان يقول إنه ضعيف هلوع، جزوع من الشر، منوع للخير، منكر للنعمة، كفور قتور كنود عجول جدل، يطغى إذا استغنى، وأن هذا كله في طبيعته وتركيبه، تريد أن أؤمن به؟ قل لي أين الإنسان الذي تؤمن به؟ الإنسان الذي قتل أخاه وتركه في العراء حتى علّمه الغراب الأسود كيف يواري سوأة أخيه؟ أم الإنسان الذي ارتقى حتى صار يقتل بالقنبلة الذرية الآلاف من النساء والولدان لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ولم يذنبوا ذنباً ولا أعلنوا حرباً؟ أم الإنسان الذي

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

يخون عهده وينسى الخبز والملح على حين تفي الكلاب؟ أم الذي يُشقي غيره ليُسعد نفسه، على حين يتعاون النمل والنحل على ما فيه الخير للجميع؟ الإنسان الذي انفرد دون سائر الأحياء من ملائكة وحيوانات بالكفر بالله، لا يشاركه هذا «الشرف» إلا الشياطين؟

إني لأتلفّت حولي فلا أكاد أرى إلا آكلاً الدنيا باسم الدين، أو شارباً دم الوطن باسم الوطنية، أو سارقاً أموال الناس باسم التجارة، أو حافراً بئراً لأخيه وهو يبتسم له بسمة الإخاء، أو متعالياً على الناس باسم الوظيفة وهو أجيرهم. أهؤلاء هم البشر الذين نؤمن بهم؟ فما النتيجة؟ هي أن **الإنسان شر الدواب في الدنيا، وأخزى المخلوقات يوم القيامة ما لم يطهر نفسه بالإيمان، ويصلح فساد نفسه بالاتصال بالله.**

وهل أدَلّ على ندرة الحق والخير والجمال في عالم الإنسان من كونه جعلها مثلاً أعلى ومطمحاً من المطامح البعيدة؟ ولو كانت خلائق راسخة فيه وكانت طبيعة ملازمة له وما جعلها كذلك. فلو كان صادقاً ما كان يُمدَح الصادق بصدقه ويُعجَب منه أن لازمه وأقام عليه، ولو كان وفياً ما كان رابع المستحيلات عنده... الخل الوفي. إنما يطمح المرء إلى ما لا يملك".

هذه المقاطع التي اقتطفتها من مقالة جدي -رحمه الله- هي شرح موجز لطبيعة وحقيقة الإنسان كما جاءت في القرآن، أي الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وسوف نتابع على الصفحات التالية تفصيلات الأخطاء التي يرتكبها بعضنا في حق بعض كما هي على أرض التجربة والواقع.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الأول

نسيء الظن

"ملأ نفسي شعورٌ بالأسى والحسرة والألم، وأحسست باليأس والقنوط، وشعرت كأن الدنيا وصلت آخر الزمان حتى صار المحسن فيها مسيئاً والمخلص فيها مرائياً. وضاقت عليّ الأرض على اتساعها حتى كدت أختنق في كل مكان أخرج إليه، فقررت اعتزال الناس! وكان ذلك بسبب ما لقيته من سوء ظنهم في مواقف كثيرة خلال حياتي، ولكنها اليوم اجتمعت عليّ حتى كادت تهلكني حسرة".

هذه كلمات كثيراً ما سمعت مثلها أو ما يشبهها من الناس (ولم أنجُ أنا من الشعور بها ذات يوم). وأنقل لكم ما قالته إحدى الأمهات:

- كنت أكره أن تأتيني النساء بأطفالهن عند زيارتي حتى يتسنى لنا الحديث بلا صخب أو إزعاج أو أذى مما يسببه الأطفال عادة، وكنت أعامل النساء بالمثل فأذهب إليهن وحيدة. فلما توالت اعتراضاتهن عليّ تفكرت في الأمر ملياً، فوجدت أنني أشُقّ على ضيفاتي بهذا الرجاء؛ فأين يضعن أولادهن؟ وكيف سيتمكن صغارنا من تكوين صداقات جيدة إن نحن لم نوفرها لهم؟

وأعترف بأن الأمر استغرق مني وقتاً طويلاً حتى اقتنعت

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

بوجهة نظرهن، إذ بدأت ببطء أخرج من المثالية التي كنت أعيش فيها وأتعرف إلى الواقع الذي يعيشه الناس (وكنت قد رُزقت -عند ذلك- بأطفال جدد)، فصرت أحسب حساباً أكبر لمشاعر الصغار والأمهات، فتغيرت وأصبحت إذا استضفت النسوة أرحب باصطحابهن لأطفالهن. وظننت أني عدلت إلى الذي هو خير، وتوقعت -بالتالي- أن تفرح صديقاتي ويباركن فيّ هذا التحول نحو الأفضل ويشجعنني على المزيد في سائر أمور الحياة. ولكن كانت النتيجة عكس ما تصورت! وإليكم ما قالته لي إحدى المقربات: "نحن لسنا رهن إشارتك، وأولادي لا ينتظرون ترحيبك لأنهم لم يعودوا يرغبون أصلاً بزيارتك؛ فلقد أحسوا بعدم رغبتك بهم في الماضي وانتهى الأمر". وشعرت من كلامها وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة لتنتقم مني! وقالت لي أخرى: "لا أصدق أبداً أنك قد تغيرت، بل اكتشفتُ أنك تعملين بما يوافق مصلحتك؛ فأنت حين كنتِ مستغنية رفضتِ أن يفسد أحدٌ نظام أولادك وحياتك، واليوم وعندما رُزقت من جديد بأولاد صغار أطلقت هذه النظرية حتى تستفيدي منها أنت وتصطحبي أطفالك حيث شئت!" ثم عقّبَتْ: "أستحلفك بالله، هل ستبقين هكذا عندما يكبر صغارك أم أنك ستعودين لسابق عهدك؟".

وحتى لا أنهى عن خلق وآتي مثله تصبّرتُ وما أسأت الظن بهؤلاء، بل قلت لنفسي: لهنّ الحق ألاّ يصدّقنَ أني قد تغيرت حقاً؛ فالإنسان نادراً ما يغير سلوكه ولو بشكل طفيف، فكيف بمن ينقلب مثلي إلى الضدّ (في هذه الحيثية)؟ وقررت أن أتدرج في الأمر وأكتفي بدعوة الصغار إلى بيتي، فإن احتجت أنا للخروج لزيارة إحداهن خرجت منفردة (إلا إذا كانت الدعوة تشمل الصغار). فعلت ذلك

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

إثباتاً لحسن النية وظننت بأني قد حللت القضية بذكاء وحكمة، فماذا قالوا؟ قالوا إنني قد صرت حساسة ولم يعد من الممكن أن يتصرف الناس معي بطبيعية، وربما حسبوا أنني صرت أعتقد أنهم لا يريدون أولادي ولا يحبونهم فحجبتهم -من أجل ذلك- في المنزل وامتنعت عن حملهم إلى أي بيت! ولم يكن مني إلا أن قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

ما منا من أحد إلا وآذاه يوماً سوءُ الظن وجرحه وغيّرَ مسار حياته، فجعله يعدل عن الذي هو خير فلا يسعى نحو الأفضل والأتقى، أو يهمل الآخرين فيترك الإحسان إليهم ويحجم عن إبداء عواطفه الصادقة أو التعبير عنها بالقول أو الفعل، فالعطاء والبذل يحفزان بعض الناس ليظنوا بالآخرين السوء ويشككوا في نواياهم!

وقد سمعت عن أناس حلفوا بأن لا يقدموا شيئاً لمعارفهم خوفاً من سوء الظن هذا؛ فبعد أن أضاعوا وقتهم وبذلوا جهدهم ومالهم في إعداد وتقديم أشياء (مادية ومعنوية) ليسرّوا المقربين إليهم ويعبروا عن عظيم محبتهم لهم وكبير امتنانهم لفضلهم فوجئوا بسوء ظنهم فيهم، وهالهم أن الناس فهموا بذلهم وعواطفهم على غير ما أرادوه (فظنوها محاولة للظهور والشهرة أو تملقاً للوصول لمكاسب كبرى...)، فقرروا ألا يشقوا على أنفسهم ويبذلوا ما دامت النتائج غير مشجعة.

فنحن نشجع الناس -بسوء ظننا فيهم- على ترك المعروف بينهم ونخذّلهم عن تقديمه إلينا. فكيف نستسيغ بعدها أن نسيء الظن بغيرنا؟! كيف بالله عليكم، كيف؟

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وما منا أحد إلا وجرب الدفاع عن نفسه وإدراج الحجج في موقف أُسيء فيه الظن به، ولقي ما لقي من الاستغراب والتكذيب وهو صادق، فكيف لا نصدق حجج الناس بعدها، كيف؟

- فقد اشترت سيدة من سوق قريب من بيتها مكواة تعمل بالبخار، فأوصتها واحدة من قريباتها بأن تشتري لها مثلها، فلما أحضرتها لها اتهمتها بأنها تبيعها مكواتها تخلصاً منها لتشتري أفضل منها، ورفضت أن تستلمها منها فضلاً عن أن تدفع لها قيمتها. ولم ينفعها أن أرتها فاتورة الشراء وتاريخها، ولعل القريبة تلك اعتبرتها مؤامرة بُيّتت بليل بين البائع والشاري!

- وظنت سيدة أن خادمتها تتمارض لتتخلص من العمل وتنعم بالراحة على حسابها، فاغتاظت منها وحاولت إجبارها على العمل، وحاولت الخادمة -بدورها- إقناع السيدة بمرضها وضعفها فلم تقتنع، ثم تبين أنها مصابة بقصور كلوي حاد وماتت بعد أيام قليلة. ولعل السيدة قد اقتنعت -بعد ذلك- بأن الخادمة كانت مريضة حقاً!

* * *

وإسلامنا لم يكتفِ بأن نهانا عن الظن، بل علمنا أن الشك لا يعني شيئاً وليست له قيمة إن لم يعزَّز بالبيّنة والدليل، واعتبر **الإنسان بريئاً حتى تثبت التهمة عليه، ولا يدان إلا باعترافه أو بشهادة شهيدين، وليس أي اثنين من الشهود، بل من العدول الذين يوثق بقولهم**. وفي السنة درس عظيم؛ إذ لما قتلَ أسامةُ الذي قال: «لا إله إلا الله» قال له النبي : «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟»، فقال: يا رسول الله: لو شققت بطنه أكنت أعلم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ما في قلبه؟ قال: «لا، فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما في قلبه». وعلق القرطبي على ذلك في تفسيره فقال: "وفي هذا من الفقه باب عظيم، وهو أن الأحكام تناط بالمظانّ والظواهر لا على القطع واطّلاع السرائر". ولكننا **كثيراً ما نسوغ لأنفسنا الشق عن قلوب الناس وإدانتهم، وسريرة الإنسان في الشرع هي أهم من علانيته وهي التي تحدد قيمة عمله، فإن اتهم الإنسان فيها كان وقع ذلك شديداً عليه. فكيف نبيح لأنفسنا ذلك وقد رفضه النبي** ، كيف؟!

ولعل أسامة لما قَتَل ابتغى الغنيمة، ونحن مثله عندما نظن سوءاً؛ فإننا نقتل الإنسان معنوياً لنبتغي عرض الحياة الدنيا، فنفعل ذلك -مثلاً- لنؤكد أن فلاناً مسيء وأن الحق في طرفنا. وقد أجابنا القرآن على ذلك أبلغ جواب فبيّن أن المغانم الحقيقية عند الله: ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثيرَةٌ﴾، سواء أكانت مادية أم معنوية، فلا تبتغوها من الناس. فما لنا وللظن بالناس؟ فإنا إن تركناهم (وكانوا يكيدون لنا حقاً) حمانا الله منهم دون أن نرتكب محظوراً، وإن كانوا برآء نجونا من عقوبة الظن السيء وعوّضَنا الله (بالتزام أمره وتقوانا إياه) مغانم أخرى نحبها.

* * *

ولا يكفي حتى أن نرى بأعيننا أو أن نسمع بآذاننا لنسوغ لأنفسنا أن نظن السوء بالناس. نعم، ولا تعجبوا، فإن النوايا والخفايا التي تفرز السلوك لا يعلمها إلا الله، أشرح ذلك بقصة شهدتها بنفسي:

- فقد أعرضتْ مرة فتاة عن ابنة عمها فجأة وهي لم تؤذها بشيء، وكانت تحبها وتعتبر علاقتها بها ممتازة، فاستغربت. ثم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

تطوعت قريبة تريد الإصلاح فشرحت لابنة العم سبب إعراض الفتاة، فقالت إنها علقت تعليقاً في جلسة عائلية ظنت منه الفتاة أنها تسخر منها! فاتصلتْ ابنة العم بقريبتها على الفور تعتذر لسوء التفاهم وتشرح لها ما كانت تقصده من تعليقها. وبعد أن انتهت استفسرتْ: "ولكن لماذا لم تسأليني بنفسك لأوضح لك؟" فقالت: "رأيت أنه لا حاجة لسؤالك فإدانتك واضحة لا لبس فيها؛ فقد رأيتك بعيني وسمعتك بأذني، وأنا قريبتك وأعرفك جيداً"!

فتبينت أنه من هنا تنشأ الحزازات ثم الخلافات بين الناس: نظن السوء ولا نستبين، فتُصوِّر لنا عقولنا التي نحترمها جداً ونقدرها (كما بينت في الفصل الماضي) الظنّ يقيناً، ثم نتعامل مع الناس على أساس هذا الظن.

وإني لأتساءل: لماذا نتعجل الحكم قبل أن نتحقق؟ وهو علينا هين، فغالب ظننا هو بمن حولنا، وهم بين أيدينا، فلِمَ لا نسألهم؟ والصحابة لما رأوا على عمر (وهو الخليفة) ثوبين (وكان قد أعطى كل واحد منهم ثوباً) بدا لهم بجلاء أنه آثر نفسه عليهم، ومع ذلك سألوه، بل خاطبوه بلهجة عتاب لأنهم كانوا متيقنين من أنه أخطأ في تفضيل نفسه عليهم. ولكن لما أشار إلى ابنه فوقف ابنه وبيّنَ بأنه قد وهبه ثوبه ليصل الثوبين معاً فيناسبا حجمه زال اللبس واتضح الأمر، وتبين أن المظاهر قد تخدع فتؤدي إلى التحريش بين الناس.

وقصة الخضر ليست منا ببعيد، فقد رأى موسى بعينيه وأدرك بكل حواسه أن الخضر ارتكب خطأ بيناً عندما خرق السفينة وقتل الغلام، فلا يصنع مثلَ هذا عاقلٌ ولا يقبل بالإفساد مؤمن، فدانَه

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ولم يجد له عذراً، ولم يشفع له أن الله قد علمه من كل شيء علماً وأن موسى قد اتبعه أصلاً ليتعلم منه.

ومع ذلك، ورغم **ثبوت الرؤية، سأله موسى عن دوافع سلوكه،** وسأله وقد تعهد له بألاّ يسأله!

وكذلك نحن: يجب علينا أن نسأل قبل أن ندين، فلعل للأمر وجهاً قوياً. فإن كنا لا نستطيع أن نسأل بعض الناس لظروف فلِمَ لا نَكِلُهم إلى الله ما دام الأمر لم يتعدَّ الظن؟

* * *

وقد يكون في ظننا السيء بالناس شيء من الصحة؛ فالبشر ليسوا ملائكة وكثير منهم تكون دوافع سلوكه غير جيدة. ولكن نحن البشر نخطئ في تقدير الدوافع، فنفترض دافعاً واحداً للقيام بالعمل ونعتبره الأصل الذي قام عليه، وغالباً ما يكون هذا الدافع الذي افترضناه أسوأَ الدوافع المحتمَلة، وهو ما يحبط العمل في نظرنا. وهذا أيضاً من سوء الظن؛ فنحن -البشر- نشرك كثيراً في نيتنا فننوي من القيام بالعمل الواحد عدة نوايا، وكل نية يكون لها وزن مختلف عن النوايا الأخرى في حسباننا.

فمثلاً: قد يتابع أحدنا دراسته العالية لتعلو درجته في وظيفته (وهذا أصل حرصه على الدراسة)، ثم تكون له نوايا ثانوية تتفاوت في قيمتها لديه، كالحصول على لقب «دكتور»، وليرتفع راتبه، وليزداد علماً وفهماً، وليتابع أبحاثه، وليرضي حاجته إلى التفوق والتميز عن أقرانه، إلخ. فيدع الناسُ كلّ تلك الأسباب التي حفزته على الدراسة ويتهمونه بأنه ما درس إلا ليعلو ويتفاخر فقط! فيحبط

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

عمله عندهم، وتتدنى منزلته لديهم، وقد ينتج عن ذلك سلوكٌ معادٍ منهم تجاهه لأنهم لا يحبون المتكبرين.

إن كثرة انتشار سوء الظن أوقع بعض الناس في رعب قاتل من كلام الناس وتأولاتهم! فصاروا يحذرون أشد الحذر في سلوكهم لئلا تلاحقهم الظنون أو تلوكهم الألسنة. ورغم حذرهم ما زالوا يحسبون كل صيحة عليهم! فيعتبرون كل إشارة سلوكاً تآمرياً عليهم، ويرون في كل أمر عملاً موجهاً ضدهم، ويحسبون أيّ كلمةٍ استهزاءً بشخصهم أو غمزاً ولمزاً بقدراتهم.

وطالما بقينا نحن نسيء الظن تراجعت علاقاتنا بالناس وفسدت، ووقعنا في مهاترات ومشكلات معهم، وتسببنا لأنفسنا بالغم والهم من أوهام اختلقناها. فالظن لا يغني من الحق شيئاً؛ وإننا لنتألم من أشخاص وهم غافلون عن ألمنا لأنهم لم يتقصّدوا أذانا أبداً. ويحقد علينا آخرون ويخاصموننا ولا نعرف لماذا، فنحن -فيما نحسب- لم نتعرض لهم. بل إننا لنصدق مع الناس أحياناً بقلوبنا ومشاعرنا ونواسيهم بأفواهنا ونساعدهم بأفعالنا ومع ذلك يتهموننا في صدق نوايانا:

- تعاطف رجل مع صديقه الذي اضطر للعمل في بلد بعيد لم يكن يرغب بالإقامة فيه، فواساه ما استطاع وساعده في تجهيز متاعه، ثم اقترح عليه أن يشتري أغراض بيته الكبيرة التي يصعب نقلها ليخلّصه منها ويساعده بتحويل ثمنها نقوداً فيستفيد منها في غربته. وقد احتار الرجل كيف يتخلص من المتاع بعد أن اشتراه فأغلبه مما لا يوافق ذوقه ولا هواه، ثم كانت صدمة له لما أشاع الصديق

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

بأن الرجل ما فعل شيئاً مما فعل (من مساعدة وتسهيلات) إلا طمعاً بالمتاع واستغلالاً للظروف فأخذه بثمن أقل من الذي يستحقه.

هذه قصة وقيسوا عليها. فلكي نعيش بسلام مع الناس ولكي نكسب ودهم علينا أن نحسن الظن بهم ولا نُدينهم ونجرّمهم قبل أن نتأكد من شكوكنا بسماع أقوالهم ودفاعهم عن أنفسهم، أو -على الأقل- لنتصرف معهم بشكل ودي طبيعي حتى تثبت إدانتهم. وإنّا لن نؤمن حتى نلتمس للناس أعذاراً كما نلتمسها لأنفسنا، ولن نبلغ العلا حتى نلتمس للفعل الواحد أعذاراً عديدة.

* * *

والإسلام لم يطلب منا -بالمقابل- أن نكون مغفلين، وإنما طلب منا التثبّت والتيقّن من ظننا قبل التصرف بناء عليه، فإن تثبتنا لم يعد ظناً سيئاً وإنما صار يقيناً عليه أدلة، وهذا لا يعاقب الله الإنسان عليه أبداً، بل شرع الله لمن أُسيء إليه أن يستقيد وأن يعامل بالمثل؛ وإن كان التسامح أفضل وأعظم مثوبة عند الله.

والخلاصة:

نحن نتألم من الناس أشد الألم بسبب إساءتهم الظن بنا ونحن مثلهم نسيء الظن بهم وبغيرهم! والظن من أعظم الذنوب، وهو السبب الأول والعامل الرئيسي في تخريب العلاقات بين الناس.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الثاني

نتصرف بأنانية وأثرَة

ما قابلت -مذ فتحت عيني على الدنيا- إنساناً هو الإيثار والتضحية، وما في المسلمين اليوم نفس لم تداخلها الأنانية ويسيطر عليها الشح وتغلبها الفردية (إلا في مواقف معدودة استطاع بعضنا أن يوقى فيها شح نفسه وأن يخرج من دائرته إلى الاعتناء بإخوانه). وقد جلست أصغي إلى أحاديث النساء التي كانت تتردد من حولي طوال عشرين عاماً، فأجد قسماً منها يملأ القلب مللاً وضجراً، فلم أكن أسمع فيها إلا شكوى وأصداء أفعال الأزواج مع الزوجات الذين كان الله قد جعل بينهم مودة ورحمة، ترنّ هذه الشكاوى في أذني فإذا أنا أتعاطف معها، فإذا سمعت ما يقابلها من شكوى الأزواج بتُّ منزعجة من الفريقين جميعاً؛ فقد تعودت الزوجة أن لا تفكر إلا بنفسها وبحقوقها فهي تشكو دائماً مطالِبةً باهتمام أكبر من جانب الزوج بها وبالأولاد ولا يخطر ببالها أبداً أنه قد يكون متعَباً أو مشغول الذهن بشيء من أمور عمله. والزوج يأتي إلى البيت فينتظر أن يُستقبَل استقبال الأبطال وأن يكون موضع الترحيب، ولا يفكر أبداً بأن زوجته قد تكون ضَجِرة من صخب الأولاد ومتعبة من الأعمال المنزلية التي لا تنتهي، وقد يكون حبَسَها حابس عن إعداد الطعام في موعده

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فيغضب أو يعتب. وهكذا هو يفكر بنفسه وهي تفكر بنفسها، وهو يعظم حقه وهي تكبر حقها، فأين ذهبت المودة والرحمة؟

فلا تجزعوا إن استأثر مَن حولكم بالخير ونسوكم، ففي كل نفس شح مثل الذي رأيتم. ولا تنظروا إلى سلوك الناس بل انظروا إلى أنفسكم، وستجدون أنكم وإياهم على سواء! وما أبرّئ نفسي:

- سافرت مرة لمدة يومين إلى بلدي عازمة أن أقضي وقتي كله مع والدي لأرضيه وأبره، ولكن صديقاتي وقريباتي أغرينني باجتماعاتهن التي كنت مشتاقة إليها، فآثرت نفسي على والدي وصاحبتهن وتركته وحيداً حزيناً. فهل رأيتم كيف غلبتني الأنانية فنسيت حق الوالد واشتغلت عنه بما يوافق هواي؟

- وأعرف رجلاً كان يعشق الدخان، كان يدخن في البيت والمكتب والسيارة والمصعد ولا يبالي بما يسببه الدخان لغيره من أذى وإزعاج، ولا يقدر الضرر الذي يلحقه بزوجته وأطفاله الصغار الذين يشاركونه تنشقه الدخان راغمين، بل هو لم يلتفت إلى داء الربو الذي يعاني منه أحد أبنائه ويتفاقم سوءاً مع تدخينه أمامه. ولكنه عندما انصرف أخيراً عن التدخين لظروف صحية صار يعتبر كل من يدخن أمامه معتدياً مؤذياً قليل الذوق ويفتقر إلى اللباقة وينبغي عليه أن يكون مؤثراً فيفكر في غيره ويراعي صحتهم!

- وفي نفس الوقت غيّرَ أخوان مكان سكنهما، وكان الأكبر منهما ذا مال وسعة فاستأجر شركة نقلت له كل شيء، وتكفل أولاده الشباب بكل الأعباء الأخرى. أما الأصغر فكان مفلساً وليس له مَن يعينه إلا عاملين استأجرهما وأبناءً صغاراً كانوا يخربون أكثر مما

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

يصلحون. وفي غمرة انشغاله في نقل وترتيب أغراض بيته أرسل له أخوه الأكبر من يعاتبه لأنه لم يساعده وطلب منه أن يحضر على الفور ليقوم بواجبه!

وحتى تزدادوا يقيناً واطمئناناً إلى أن الأثرة قد عمّت بها البلوى، انظروا حولكم تروا قصصاً تشيب لها الولدان؛ والسبب في ذلك أن عقولنا موجهة إلى الداخل، متمركزة على الذات، والدليل أننا نحوم دائماً حول «الأنا» وأننا غارقون بهمومنا، فإن مسّ أحدَنا شيءٌ بسيط نسي الدنيا وما فيها وشُغل بهمه وحده ونسي هموم الآخرين ولو كانت عظيمة:

- في مساء اليوم الذي أعلمت فيه سيدة مريضة أقاربَها بأنها بحاجة لبتر إصبعين أصابهما المرض رأت عمتها تبكي بحرقة وتلطم وتتحسر، فظنتها تبكي من أجلها وفرحت لأنها تحبها، لكن سرعان ما اكتشفت أن عمتها تبكي لأن لصاً سرق ملابس النوم القديمة التي نشرَتْها على السطح.

* * *

والأنانية هي السبب في انعدام الذوق وقلة الانتباه:

- جاء رجل لزيارة صديق له في مكتبه ومكث طويلاً، ولم يأبه للمراجعين الذين ينتظرون خارجاً، فاضطر الصديق لاستقبال بعضهم في الغرفة المجاورة حفاظاً على خصوصية وسرية العمل، فانزعج الرجل من سلوك صديقه وعاتبه لأنه تركه وحيداً في المكتب (بدل أن يعتذر هو ويمشي)! ثم استأذنه في استعمال الهاتف للاطمئنان

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

على أهله في البلد الآخر، فأذن له ونبهه إلى أنه ينتظر مكالمة عمل ضرورية، فلم يهتم وأطال في المكالمة من غير داع وكلّفه مالاً كثيراً.

وهي السبب في قلة الوفاء:

- فقد قرر رجل أن يطلّق زوجته لأنه ملّ منها بعد أن اغتنى، فهو يرغب بالتجديد بالزواج بأخرى! ولم يهتم لمصير تلك التي رافقته في طور الفقر، ولم يفكر بمصير الأولاد الذين ما زالوا دون سن الرشد.

وهي السبب الرئيسي في تقاعسنا عن واجبات الأخوّة، فعندما نفكر دائماً بأنفسنا واحتياجاتنا ننتظر من الجميع أن يهتموا بنا ويستنفروا لرعايتنا وننتظر ذلك من أمنا وأبينا وأخينا وسائر أقربائنا ومعارفنا. فإن أهمتنا أنفسنا لهذه الدرجة وشغلتنا فهل يبقى متسع لنتفكر بالآخرين؟

إننا ننسى -في غمرة الحياة- أن للناس حقاً في أموالنا وفي أنفسنا؛ فالإسلام اجتهد في حثنا على العطاء والبذل والتضحية وجعَلَ بعضنا لبعض سُخريّاً. فمن ذلك أن نلاطف ونبتسم ونفك الكرب ونعين العاني، ومنه أيضاً الأشياء المادية، فنهدي ونبذل ونتصدق ونعير ونقرض ونكرم الضيف؛ فالتعامل المادي يؤثر مباشرة على المشاعر المعنوية، ولذلك لم يجعل الإسلام للمرء الحرية التامة والمطلقة حتى في التصرف بممتلكاته الخاصة، فلأمه حق بها ولأبيه ولأخته وأخيه... سواء بالأكل منها أو استعمالها بالمعروف، فالإسلام أمر بالبر وبالإحسان، ولا يمكن أن يكون المرء كذلك إلا بوضع ممتلكاته تحت تصرف الآخرين في بعض الظروف والأحوال.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ولذا أباح لنا الشارع الأكل من بيوت أقاربنا بلا إذن منهم، وأمرنا بأن نعود بفضل ظهرنا على من لا ظهر له، ولكن بعض المسلمين يجهلون هذا فيضنون بأشيائهم ويمنعون الماعون، ومنهم من يجعل من بيته متحفاً للعرض فيرتبه ويزينه ثم يقيد زواره فلا يسمح لهم باللمس أو الجلوس خوفاً عليه فهم يرون أن المتاع أثمن من مشاعر الناس، ولعل هؤلاء لا يعلمون أنهم الخاسرون وحدهم بهذا؛ فالناس يهجرون من يفعل مثل هذا الفعل، والعلاقات الاجتماعية الجيدة أثمن من الأشياء الجامدة، فالأولى توفر لنا الاستقرار النفسي وتسعدنا والثانية تتطلب منا القيام على خدمتها فتفني أجسامنا وتضيع أوقاتنا بلا فائدة ترجى من ورائها.

* * *

وبعض الناس إن قدموا معروفاً قدموه بأثرة، فهم يتخيرون الأقل والأسهل ولا يبذلون إلا الهين عليهم المناسب لهم. ومثل هؤلاء إن احتجنا إليهم (في خدمة محددة) لم نجد لديهم ما نريد بل ما يريدون هم أن يبذلوه، فيقدمون لنا خدمة لا نحتاجها ثم يظنون أنهم ساهموا مساهمة فعّالة في معونتنا ورفع الحرج والمشقة عنا!

- كانت السيدة التي تعد لعرس ابنتها بحاجة سريعة لأي مساعدة من قريباتها؛ فهي تحتاج إلى تنظيف البيت الذي ستسكنه ابنتها، وإلى شراء أشياء ضرورية من السوق، وإلى التردد على الخياطة... ولكن أختها اختارت أن تجالس والدتهما العجوز المقيمة في بيت السيدة وأن تطبخ للعائلة، فشرحت لها السيدة أنها ليست محتاجة لتلك الخدمة (فالوالدة حالتها مستقرة والمطاعم الجاهزة

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

كثيرة وهي تقدم أشهى الوجبات)، ورجتها أن تساهم معها بشيء آخر مما تحتاجه فعلاً، ولكنها استمرت في رعاية الأم والطبخ، وهي تظن أنها قامت بواجبها وزيادة!

وبعض الناس يطلبون بأثرة، فإن احتاجوا شيئاً سارعوا إلى طلبه ولم يراعوا الظروف:

- سافر رجل إلى بلد آخر بحجة رعاية أقارب له مات عائلهم الوحيد. فما مرت بضعة أيام على وصوله حتى بدأ يتململ من جو الحزن، ثم طلب من أقربائه أن يأخذوه إلى السوق، ثم صارحهم بأنه كان ينبغي عليهم أن يسلوه بأخذه إلى المنتزهات وأن يعرفوه على البلد. فدهشوا جداً من تفكيره بتسلية نفسه في ظروف الموت، وعجبوا من أن يطلب ذلك منهم وهم يكادون يموتون كمداً على فقيدهم.

وأشدها بأساً أثرة الوالدين؛ فبعض الآباء لا يبالون أن يأكلوا الطعام اللذيذ وأولادهم قيام ينظرون، ثم يتركون لهم الفتات. وقد سمعت عن أب يشتري اللحم لنفسه والخبز لأبنائه، فيأكله وهم حوله يراقبون ولا يترك لهم شيئاً.

وآخرون يحبون أن يكون أولادهم تحت تصرفهم في كل وقت وفي خدمتهم في كل حال، وهم لا يكفون عن الطلب ويطلبون أشياء غير مهمة ويحتاج إنجازها وقتاً وجهداً، ولا يقدّرون -لشدة اهتمامهم بأنفسهم- كم يلاقي أولادهم من المشقة في سبيل تنفيذ طلباتهم الكثيرة المتعبة. ولعل هؤلاء الآباء يستطيعون انتزاع ما يريدونه من أبنائهم تحت قهر البر والإحسان، ولكن لعلهم لا يعرفون أنهم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ينتزعون معها شيئاً من حبهم لهم ويقللون من احترامهم وقدرهم بأعمالهم الأنانية تلك.

ومنهم من يشفق على نفسه من الأعمال المملة المرهقة فيسلمها لأولاده تخلصاً من عبئها، فإذا كان يكره غسل السيارة وسقي الزرع أوكل إلى ولده هذه الأعمال ولو كان صغيراً لا يفقه منها شيئاً... وإنه ليترك أبناءه يتحملون ما لا طاقة لهم به من واجباته ومسؤولياته، ولا يبالي إن أهملوا في المقابل مسؤولياتهم وواجباتهم وقصروا فيها فهذا أمر لا يعنيه كثيراً، ثم يخرج هو في نفس الوقت ليرفه عن نفسه ويتمتع مع الأصحاب!

وتكون الأثرة حتى في الحب فتنقلب إلى ضدها! وطالما قتلْنا المقربين إلينا بحبنا، وقالوا قديماً: «ومن الحب ما قتل»، فيؤذي الزوج زوجته بغيرته، ويحد من حريتها ويضيق عليها حتى في المباحات، حتى ليدفعها أحياناً إلى التمرد والكيد في الخفاء.

* * *

إن هذه الأثرة بين الناس هي سر شقائهم، وهي أصل بلائهم، وهي فينا جميعاً. وهي غريزة فطرنا الله عليها، ولعله وضعها فينا -في الأصل- لتساعدنا على البقاء ولتحمينا من الأخطار، فلو أن المرء بدأ دائماً بإخوانه أولاً وترك نفسه لهلك، فجعل الله لكل نفس حارساً يحميها من داخلها هو حب الذات والحرص عليها، ثم وضع غريزة الأمومة، ثم محبة ذوي الرحم، وهكذا. ولو كان الأمر عشوائياً لشغل الإنسان عن نفسه بغيرها فهلكت، أو لانصرف الناس جميعاً لإيثار المريض والضعيف وأهملوا القوي الصحيح فيشقى من الترك. من

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أجل ذلك قدم الله ورسوله النفس على ما سواها في كل أمر: عليكم أنفسكم، ابدأ بنفسك، ثم الأقرب فالأقرب.

على أن كل شيء زاد عن حده انقلب إلى ضده، فينبغي أن نحرص على أنفسنا بقدر، وأن نتذكر أن الآخرين يجب أن يحافظوا على أنفسهم، ولذلك حث الإسلام بشدة على الإيثار، ووعد من يوقى شح نفسه بالفلاح والنجاة. وإننا كثيراً ما ننسى هذا فنتجاوز حدودنا في حفاظنا على أنفسنا فنطال حقوق الآخرين، لذلك كانت القاعدة العامة: «تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين»:

- وإني لأنظر فأرى ذلك واضحاً في الحرم؛ فبعض أفراد الجاليات يتكاتفون ويتراصون معاً ويمسك بعضهم بيد بعض، ثم يطوفون حول الكعبة كالسيل الجارف، فيضيقون على عباد الله، ويدفعون الطائفين حتى ليوشك ضعفاؤهم أن يقعوا أرضاً، أو يَدْخل كوع أحدهم في خاصرة امرأة فتتلوى من الألم، ويفرقون بين المرء وزوجه فيضيع واحدهم عن الآخر بسبب الازدحام. وقد نبهت أحدهم مرة لسوء سلوكه فأبعدني بقوة عن طريقه وتابع طوافه وهو يؤذي هذا وينحّي ذاك ليحجز مساحة له ولجماعته من المطاف. وما تسبب في سلوكهم هذا إلا الأنانية، فإنهم يحرصون على أنفسهم وعلى توفير مطاف واسع لهم وعلى اجتماعهم لكي لا يضيع واحدهم عن الآخر، ثم يحرمون سائر الطائفين من هذا الحق!

* * *

أكثر الناس أنانيون لا يهتمون إلا بأنفسهم وحاجاتهم فيقدمونها ولا يراعون مشاعر الآخرين، ومثل هؤلاء يسببون المتاعب الكثيرة لأنهم يتصورون أنهم يعنون الكثير لمن حولهم. ولذا فإنهم كثيراً ما

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

يصابون بالإحباط عندما يُعرض عنهم الناس أو يزدرونهم أو يحجبون عنهم شيئاً كانوا يعتقدون أنهم الأجدر به. والحقيقة أن هذه الأثرة تجعل الآخرين لا يهتمون بنا إلا قليلاً!

إن ترك الأنانية كسب عظيم لأنه يُخرج الفرد من دائرة التفكير في مَن آذاه ومن آلمه ومَن جرحه إلى التفكير بالغير وما فعله هو بهم؛ وهذا أهم درس لتعامل سليم مع الآخرين.

والخلاصة:

هل تألمتم وحزنتم أن وجدتم من يؤثر نفسه عليكم؟ إذا تألمتم وحزنتم فانظروا إلى أنفسكم تروا أنكم تؤثرونها على الناس أجمعين.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الثالث

نكيل بمكيالين

غريب أمر هؤلاء الذين يكيلون بمكيالين؛ كلما تعرضوا لظلم يرفضونه ويغضبون منه ويرفعون صوتهم عالياً طالبين الإنصاف والعدل. أما إذا ظَلموا هم أو جاروا على أحد فغضب وحاول الدفاع عن نفسه أو رفع الظلم عن كاهله، فإنهم ينكرون عليه ويستغربون من ثورته:

- أعرف شخصاً يكيل كل أمر بمكيالين، فلا تمر حادثة إلا حكم عليها حكمين مختلفين، فإن كانت ضده سفه صاحبها، وإن كانت لصالحه أظهر له الفضل! فيختلف موقفه ورد فعله على الحادثة الواحدة، وعلى السلوك الواحد، وأذكر مثالاً واحداً: فعندما تقاعس هو في أداء عمله وفُصل منه بسبب ذلك حنق على صاحب العمل وقال إنه ظالم ومتحامل. ولكن حين قصّر موظف يعمل لدى خاله نصحه بأن يبادر إلى فصله فوراً لأن مصلحة العمل فوق أي اعتبار!

- وسمعت عن تاجر كان يبيع بضاعته بالآجل، ولكنه كان يُغلظ على المدينين ولا يرحم ظروفهم ولا يوافق على إنظار معسرهم. وكان يشتري بالآجل كذلك، فلما جاء -ذات يوم- واحد من التجار الذين يبيعونه مطالباً بما هو مدين به له حنق عليه أشد الحنق ورأى

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أن تصرفه منافٍ للخلق الإسلامي الذي يأمر بإنظار المعسر!

- وتتألم زوجة من زوجها الذي بالكاد يسمح لها بزيارة أهلها ولا يظهر لهم الحفاوة الكافية إذا زاروه أو الود المطلوب إذا زارهم، ثم هو يزور أهله كل يوم ويطالبها بأن تظهر لهم كل مودة ويستقبلهم في بيته فيتوقع منها غاية الاحتفاء بهم.

- وأجتمع أحياناً بأم تزور قريباتها وصديقاتها فيعتدي ولدها الصغير على أولادهن وبناتهن ويؤذيهن، وربما ضربهن ودفعهن وأوقعهن أرضاً وهي ساكنة تراقب فلا تعترض، وبما استحسنت واستلطفت قوة ولدها وجرأته. ولكنها عندما رزقت بابنة وصار الأولاد يتعرضون لهذه الصغيرة بالضرب أو الأذى كانت تهبّ مذعورة ولهة للدفاع عنها، وتركض صارخة مستنكرة عدوان الأولاد وسلبية الأمهات في منع أبنائهم من الاعتداء على الصغيرة المسكينة!

- وتكاد تقتلني غيظاً سيدة لا أراها إلا تتكفف الناس أشياءهم، فهي تطلب من هذه ماكينة الكبة، وتستعير من تلك مجفف الشعر، وتقترض من جارتها الأرائك لتستقبل عليها الضيوف... ثم هي تتضايق إن طلبت منها إحداهن شيئاً ضرورياً (ولو كان تافهاً لا قيمة له) وترفض أن تعير الناس أي شيء. إنها لا تجد بأساً في أن تستعمل أغراض الناس لغير ما وضعت له فتؤذيها أو تتلفها، ثم هي تجد ضيراً شديداً إن استعمل الناس أشياءها فخربوها من غير قصد منهم، وإنها لتستخفّ بخوف الناس على أشيائهم الثمينة الغالية التي لا يُشترى مثلها كل يوم، ثم هي تضن عليهم باستعمالهم كوباً أو صحناً خشية أن ينكسر في أيديهم!

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

- ولا يتردد غالب السائقين في كل مرة يصلون فيها إلى الإشارة الضوئية على تقاطع في حجز المسار الأيمن (المخصص لمن يريد الالتفاف إلى اليمين)، فيقفون بسياراتهم أمام الإشارة الحمراء غير مبالين بأبواق السيارات المعترضة وراءهم ممن يحق لهم الالتفاف يميناً، وعندما يتحركون أخيراً بعدما تتحول الإشارة إلى اللون الأخضر لا يكلفون نفسهم عناء التفكير في الغيظ والمعاناة اللذين تسببوا فيهما لسائقي السيارات التي حجزوها وراء سيارتهم. ولكنهم إذا أرادوا الالتفاف يميناً ووجدوا أنفسهم محجوزين وراء سيارات أغلقت المسار الأيمن (كما يفعلون هم دائماً) ملؤوا الفضاء بزعيق البوق، وإذا كانوا في عجلة من أمرهم أتبعوه بالسباب والشتائم من كل نوع وشكل ولم يجدوا للسائق المخالف أي عذر فيما فعل.

وأخيراً سأنقل لكم حكاية طريفة نُشرت من قديم في مجلة المختار، حيث تغبط أم ابنتها المحظوظة التي يقوم زوجها على رعايتها؛ فيحضر القهوة لها إلى السرير كل صباح، ويعد لها الفطور، ويساعدها في أعمال المنزل المختلفة... أما ابنها -كما تقول- فهو مسكين وغير محظوظ أبداً؛ لأنه يعد القهوة لزوجته كل صباح في حين تستمتع هي بالاستلقاء في السرير، ويعد لها الفطور، بل ويحمل عنها بعض واجباتها المنزلية. إن حالته تثير الشفقة حقيقة!

وسواء أكانت هذه طرفة أم حقيقة فإن الحياة ممتلئة بأمثالها من الوقائع التي تظهر الفروق المريعة بين معاملة الحماة لكنتها ولابنتها مما يؤلم ويثير الأشجان ويبعث على الحزن، وإن كانت كثيرات من الحموات يؤكدن أنهن عادلات منصفات! والحقيقة أنهن غير منتبهات لما يفعلنه، وليتهن يفتحن صدروهن ليخبرهن من شهد

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الوقائع بالتفرقة في المعاملة التي تصدر منهن عن غير قصد -غالباً- لعلهن يتداركنها قبل أن يؤدي ذلك لحزازات يصعب محوها.

هؤلاء الذين يكيلون بمكيالين يعيشون بيننا، ننبههم فلا ينتبهون، ونشرح لهم فلا يفهمون، وننهاهم فلا ينتهون، ومنهم أنا وأنت؛ فكلنا نستسيغ هذا السلوك وكلنا نفعله، وإن كنا نتفاوت فيه أشد التفاوت، فيزيد عند بعضنا ويقل عند بعضنا الآخر.

وقد يبدو الأمر بسيطاً، ولكنه إن استمر يثير الحنق ويثير السخط ويدعو المرء إلى التمرد والثورة؛ فالعدالة من أهم شروط الجَرح والتعديل لتقويم الرجال، ومَنْ فقدَها فقَدَ ثقة الناس، ومن فقد الثقة فقَدَ شيئاً عظيماً قد لا يعوض.

* * *

وأبعد الكيل بمكيالين أثراً وأشده ألماً التفريق بين الأقران:

- أعرف داعية إلى الله يرغب بإصلاح الكون كله دفعة واحدة، فهو لا يكف عن التنبيه والإشارة إلى الأخطاء. وهذا أمر طيب ومحمود، وهو سلوك يُشكر عليه، لكن الغريب أن الأمر إذا وصل إلى أولاده فرق في الأحكام بينهم وبين أقرانهم. فهذا الداعية يطالب كل شاب بأن يتخشن ويزهد في متع الحياة ولكنه يغمر أولاده بالعاطفة ويسعى ما في وسعه ليجنبّهم صعوبات الحياة ومشاقها، وهو يطالب الفتيان بالتضحية ونكران الذات ولكنه يخشى على ابنه الشاب من بذل أي جهد في خدمة ضيوفه أو جيرانه ويتعلل بأن صحته لا تساعده على ذلك.

- وفي حفلة مدرسية كبيرة وُكِّل أستاذ بشراء الهدايا، ولم يكن

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

إلا مكلفاً، فلا المال ماله ولا الهدايا منه، إلا أنه لم يجد بأساً بأن يفرق بين الأقران من التلاميذ، فحرم المستحق وأعطى من لا يستحق وخص مَن يحبهم بالهدايا الأغلى والأجمل، وجعلها وسيلة لإحقاق الحق الذي يراه (وهو مخطئ في رؤيته)، فآلم الأطفال وأحزنهم واشترى دينه بدنيا غيره.

- وأعرف سيدة عجوزاً بلغت ابنتها مبلغ النساء وهي لا تعرف شيئاً من أعمال المنزل ولا فنون الطبخ، وما تزال إلى اليوم مدللة تجاب طلباتها مهما كانت وتُخَص بالعناية وتُحاط بالرعاية. ولكن تلك السيدة تنتقد أي أم تحب بناتها فتخصهن برعاية مشابهة، فهي ترى ذلك دلالاً لا مسوغ له ومنقصة ينبغي تداركها وتحجم -بالتالي- عن خطبتهن لأبنائها!

- وحظروا في إحدى حفلات الزواج اصطحاب الأطفال، وهذا أمر طبيعي ومقبول، ولكن إحدى المقربات سوغت لنفسها أن تخرق القانون لصالح أبنائها وحدها فأتت بهم، وكانوا أول القادمين وآخر المغادرين. ولم تجد ضيراً في صراخهم وإزعاجهم المدعوين، ولم تأسف للتخريب الذي أحدثوه أو الإزعاج الذي سببوه، ولم تقدم عذراً شافياً لأقربائها الذين كانوا يتساءلون عن سبب واحد مقنع لهذا التمييز. لكن حين جاء أطفال العائلة الآخرون في نهاية الحفل (ليشاهدوا احتفالات العرس وليروا قريبتهم العروس) اعترضت تلك المقربة بشدة، وتساءلت باستغراب كيف يأتون ودخول الأطفال ممنوع؟!

* * *

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

بعض الناس ييسر لهم الله أن يكونوا في موقعين متباينين في آن واحد ليجنبهم مزالق وقع فيها الآخرون، فيتعرضون في حياتهم لمواقف ومصاعب سبق وعاينوها بكل تفصيلاتها وما زالوا يعيشون فيها (فهم على علم تام بها واطلاع عميق على ملابساتها)، والمفروض أن بإمكانهم تجاوزها وحلها بحكمة وعدل ومعرفة المخطئ من المصيب؛ لما لهم فيها من خبرة وسعة تجربة، ولكنهم يجورون ولا ينصفون، فبأي عذر يعتذرون؟

يمر بذلك من اشتغل بالتدريس وهو ما يزال طالباً، ومن أسس عملاً وهو لا يزال موظفاً، ومن لها زوجات إخوة ثم تزوجت فصارت لها حماة... فبعض هؤلاء تتبدل آراؤهم بين لحظة وأخرى ويكون ولاؤهم متأرجحاً بين الطرفين؛ فالرجل الذي يَدْرس ويُدَرّس يرى معلمه مخطئاً في حقه، فإذا اشتكى منه طالبه كان الطالب هو المخطئ في حق ذلك الرجل، والبنت ترى زوجات أخيها مخطئات في حق والدتها ولكن حماتها مخطئة في حقها.

وإني لأعرف دواء لهذا الداء، إن تجرعناه أحل العدل بيننا محل الظلم والقسط مكان الجور؛ إنه دواء قديم وصفه لنا نبينا فنبه إلى أن أحدنا لا يكون مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وقد وضحه العامة حين قالوا: «ضع إصبعك في عينك، فكما يؤلمك سيؤلم غيرك إن وضعته في عينه». ولكن أكثرنا لا يتذكر هذا ولا يراعي المبادئ والقيم إلا حين يحتاج إليها في تعامل الناس معه، أما حين يكون هو المستفيد فإنه لا يبالي:

- وُظِّف رجل في شركة وكان من شروط عقده أن تهبه الشركة

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

سيارة، ولكن تسليم السيارة تأخر لأن الموظف السابق (الذي أنهى عقده) تأخر في تسليم هذه السيارة وماطل متعمداً لأنه يريد استعمالها في حاجات شخصية له. فلم يَرُقْ للموظف تقاعس الشركة عن إجبار هذا الموظف المماطل، كما وجد أن تأخره في التسليم (وقد انتهى عقده) سلوك ينافي الورع ويخالف الإنسانية. وبعد سنتين تخلى هذا الرجل عن وظيفته، فهل تتخيلون ماذا فعل؟ لقد أخذ يماطل في تسليم السيارة التي ينتظرها الموظف الذي سوف يحل محله بفارغ الصبر وقال معللاً: "لِمَ العجلة؟ وما الضرر الذي سيحدث لو تأخرتُ أسبوعاً في التسليم؟"!

نحن في الواقع لا نلاحظ الصورة المنفرة التي نظهر بها للآخرين بسبب ما يظهر من تصرفاتنا المخالفة لمبادئنا وأفكارنا التي نطرحها أمامهم، حيث نطالبهم بالعدل والإنصاف والتقوى في التعامل بعضنا مع بعض، ثم نكون نحن أول المخالفين.

* * *

والأصل أن لا يدفعنا بغضنا لقوم إلى ظلمهم وعدم العدل معهم، ولكن أستثني من ذلك شيئاً مهماً؛ فالعلاقة بين الناس علاقة من طرفين، قد يسيء أحدهما فيها ويستمر في الإساءة فيفسدها. ونحن بشر قد نتغاضى مرة، وقد نسامح تارة، وقد نعاتب، ولكننا -في النهاية- نغضب ونمتنع عن الإحسان إلى مثل هذا الشخص. فمثل هذه الحالة لا تسمى كيلاً بمكيالين أو تفريقاً بين الأقران:

- فأنا أعرف أماً تعامل ولديها المتزوجين بطريقة مختلفة، وقد لمتها في نفسي في البداية، ولكني عذرتها حين رأيت سلوك ولديها

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

معها، فواحدهما لا يبرها ولا يهتم بآلامها ولا بآمالها، ثم يتوقع منها الكثير. أما الثاني يؤثرها بنفسه وماله ويهتم لكل ما يصيبها ويحترم أمومتها ويخدمها. فكيف ستعدل بينهما وهما لم يعدلا فيها؟ وكيف تساوي المحسن بالمسيء وهما لا يستويان؟

- وأعرف صديقين خالفا بعضهما في تقديم الهدايا والعطايا إلى معارفهما؛ فأما أحدهما فإلى النقص وأما الآخر فإلى الزيادة. ولم يكن نقص الأول عن حاجة ولكن بخلاً وتقنيناً، فكان يسرف في حاجاته كلها ويقتر على معارفه (فلا يكاد يبذل ماله لأحد)، أما الثاني فكان يبالغ في الإنفاق والعطايا والهدايا. وكانا يخرجان في أصحابهما فلا يجد الأول ضيراً في أن يقبض يده في التكريم والإطعام، ولا يستحيي الثاني من الحياة عالة على الناس. ثم مرضا مرة كلاهما في مدة قصيرة فأُحرج كل من جاء يعودهما، إذ كانت هدايا الأول رمزية وكانت هدايا الثاني ثمينة فاخرة. وهو أمر أثار سخط الأول واستياءه، ولكن كل واحد منهما لقي ما قدمه حاضراً.

والخلاصة:

نحن نخطئ ونكيل بمكيالين (وإن كنا نتفاوت في ذلك) مع أنه خطأ كبير؛ فهو يثير الحفيظة ويحجب الثقة عن فاعله وينفي عنه العدالة، والثقة هي رأس مال الإنسان، والعدالة هي من أهم صفات الرجال في الجرح والتعديل.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الرابع

نُقوِّم الناس بسلوكهم معنا

إن على المسلم الحق -قبل استيائه من شخص ما، ونقمته عليه، واتخاذه تدابير ضده- أن يدرسه ويحلل مواقفه: من حيث هو كائن بشري له شخصية اجتماعية متفردة كوّنتها طائفة من العوامل ونتج عنها طائفة من الأخلاق والسجايا، ومن حيث هو فرد له آثار إيجابية وسلبية على من يلوذ به، وعلى معارف آخرين يتصلون به صلة قوية أو ضعيفة. عندها يستطيع أن يحدد ملامح شخصيته وأن يتفهم سلوكه.

أي عليه أن يتجرد من مشاعره الساخطة الثائرة ويسعى بصدق لمعرفة العوامل التي دعت ذلك الشخص إلى السلوك السيء. فيقف على دينه وأخلاقه، ويطلع على أخباره وسلوكه، ثم يعمد إلى إدانته.

فليس إذن للمسلم بد من العناية بدرس شخصية من أساء إليه على الجملة، وأثره في من حوله، ثم المقارنة بين هذا السلوك الذي يسير عليه الشخص مع الناس ومعه هو بالذات. وله بعد ذلك أن يتخذ منه موقفاً فيعاقبه أو يدينه، شرط ألاّ ينسى العدل والتقوى.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

هذا الفحص السريع للشخص في غاية الأهمية، وذلك لأن كل إنسان أحس يوماً بأن فرداً أو أفراداً لا يستسيغونه، وبأن سلوكهم وكلامهم موجه ضده وجفاءهم وغلظتهم له وحده. فإن درسهم جيداً أدرك أنها غالباً ما تكون طبيعتهم الشخصية وأسلوبهم في التعامل مع الجميع، وعندها سيهون عليه الأمر.

فبعض الناس يَبدون دوماً عابسين بسبب مزاجهم السوداوي، وآخرون لا يميلون إلى الاختلاط بالناس فهم غير قادرين على إظهار الحفاوة لمن يقابلهم. ومنهم ضعيفو الذاكرة فإن قابلونا لم نشعر بحرارة اللقاء، والسبب أنهم ينسون ما يخصهم فكيف سيذكرون -وهم لا يعرفوننا إلا لماماً- أسماءنا وكل ما يخصنا ليسألونا عنه ترحيباً بنا؟

فإن انتهينا إلى هذا الحد من البحث، أي إذا عرفنا الإنسان وعرفنا سلوكه ثم وجدناه مختلفاً معنا وحدنا، وجب علينا أن نبحث عن سبب ذلك فلعل العيب فينا؛ فنحن لا نرى ما يسببه سلوكنا من رد فعل لدى الآخرين. وإليكم موقفاً بسيطاً يوضح ما أردته:

- التقيت مرة وأنا طالبة بإحدى معلماتي وأنا أسير في الشارع فبادرتني بابتسامة (وكانت لطيفة محبوبة بين الطالبات)، فلما اقتربت منها زمت شفتيها وأجابت على تحيتي بجفاء والتفتت إلى الناحية الأخرى. فحزنت، ولكني -أيضاً- تعجبت وتساءلت: لماذا تغيرت ابتسامتها إلى تجهم؟ وفيما بعد عرفت السبب بجلاء؛ إذ لمّا لمحتها من بعيد فوجئت بها (وكانت ما تزال تعلّمني) فاستحييت وشغلني أمر هندامي، فتلك كانت المرة الأولى التي تراني فيها بغير ثياب

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

المدرسة، فانطبع ذلك على وجهي بطريقة سيئة مما جعلها تظن أنني كرهت لقاءها. فإذن تعابير وجهي جعلتها تنفر مني، ولو أني لم أبدُ كذلك لقابلتني كما أحب وأشتهي.

هذا مع الانتباه إلى أن سلوك الفرد يصدر عن جملة من المسببات، فهو تفاعل لكل ما مر به من ظروف طول حياته. ولذلك نلاحظ اختلاف الناس في ردود أفعالهم؛ فلو أني اصطدمت بمجموعة من الناس وأنا أشق طريقي في الزحام لكان رد كل واحد مختلفاً عن الآخر؛ فهذا يبتسم ويقول: "لم يحدث شيء"، والآخر ينظر شزراً ويتابع طريقه، والثالث يسبني ويتوعدني، وقد يتشاجر الرابع معي!

والسبب أن كل واحد فيهم يرى الأشياء بمزاجه وحسب تجاربه، فيحكم -بناء عليه- لي أو عليّ، فليس سلوكي هو السبب الوحيد في تعامل الناس معي، وإنما يرجع جزء ضخم من ذلك إلى شخصياتهم وتجاربهم والمبادئ التي تلقوها، وإلى نشأتهم الأولى، وإلى الضغوط التي يتعرضون لها. والأشياءُ التي حدثت في حياتنا منذ لحظة الولادة حتى الساعة (سواء تذكرناها أو نسيناها) تؤثر بالطريقة التي نشعر بها ونتصرف بها. وهذه الأحاسيس مَخْفيّة لا نراها (وقد لا يعلم المرء نفسُه الدافعَ الذي دفعه لسلوكه هذا) ولكننا نرى السلوك المنبثق عنها واضحاً جلياً. مع ملاحظة أن البيئة التي تفرز السلوك تختلف حتى بين الإخوة، فهي ليست واحدة لدى الجميع؛ إذ تختلف أعمارهم وأجناسهم وطباعهم الأصلية وطرائق معاملة والديهم لهم (فالأهل لا يستطيعون أبداً أن يعاملوا أولادهم معاملة متطابقة وإنما متشابهة)، فانتبهوا.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ولا ننسى أن لكثرة الأعباء دوراً هاماً ومؤثراً في سلوك الناس؛ فالمسؤوليات الجسيمة الملقاة اليوم على عاتق كل فرد تشتته وتجعله يغفل عن بعض الأشياء المهمة أو تؤخره عنها؛ فمثلاً مشاغل الحياة والسعي على المصالح تنسينا الود والمرحمة، فتصرفنا عن تفقد معارفنا وتصرفهم هم أيضاً عن زيارتنا أو السؤال عنا، فيفهمون منا غير ما نريد ونفهم منهم أنها جفوة عن سابق عمد وتصميم زهداً بنا ورغبة عنا إلى غيرنا. ويكرس هذا المفهوم أن العلاقات الاجتماعية اليوم لا تخلو من بعض المهاترات، فيدخل الشيطان من هذا الباب ويفرق بين الناس.

فإذا وصلنا إلى هنا كان من السهل علينا أن نتجاوز عن أخطاء الناس، ونتحكم في أنفسنا أثناء تعاملنا معهم فنشفق عليهم أو ندينهم أو نسامحهم أو نعاتبهم. فلن نستطيع استيعاب الناس واحتواءهم والعدل معهم إلا إذا فهمنا دوافعهم وتعمقنا في شخصياتهم وسألنا عن ماضيهم وحاضرهم، وعرفنا كيف يسلكون في المواقف المختلفة.

* * *

على أننا كلنا نجهل تلك الحقيقة فنقوِّم الناس بما نعرفه نحن عنهم، وبما نراه نحن شخصياً منهم (من دون الناس) وبما قدموه لنا وحدنا، فإن كان خيراً فخيرٌ هم في نظرنا، وإن كان شراً فشرٌّ كلهم برأينا. ولو نظر ناظر في الناس لرأى أنهم يقوّمون بعضهم البعض بعين الغضب أو عين الرضا، وفي كلا الحالين يظلمون ويتعدون. وإني لأراقب سلوك الناس فأراه كما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الحب أعمى والبغض مبصر، فإن أحبني الناس بالغوا في مدحي وإن كرهوني بالغوا في قدحي. وإليكم طرفاً مما أشاعته بعض النساء عني (ولا أذكره على سبيل الفكاهة، وإنما هو ما حدث فعلاً):

- كانت تقول إني عاقلة، وكانت تستشيرني في أمرها، وطالما أشادت بما نصحتها به. ولكني اليوم بالنسبة إليها ضحلة التفكير، ومشوَّشة، وغير متوازنة.

- كانت تقول إني غبية جداً، فلما أحبتني صرت ذكية جداً، بل إنها تسأل الناس: مَن أكثر ذكاء أنا أم هي (وهي ترى أنها في غاية الذكاء)!

- كانت ترى أنني لا أحسن التربية وأن أولادي أنانيون ومدلَّلون، فلما أحبتني صارت تتحدث في المجالس عن تربيتي المتميزة لأولادي وعن القيم التي يحملونها والأولويات التي أراعيها في التعامل معهم.

وهذه بعض الأمثلة، وإن هؤلاء النسوة -لا شك- مبالِغات في الحالين، فأنا دون ما قلن في أشياء وفوق ما قذفنني به في أشياء، ولكنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

ونحن نفعل ذلك ببعضنا البعض لأننا نحكم على الناس بمعرفتنا القديمة بهم وبما شاع عنهم، فإن كنا نحبهم غفرنا لهم ونمنا عن سيئاتهم، وإن كرهناهم صحونا لهم ووقفنا على هفواتهم، ولم يفتنا مقدار قطمير منها، وقد نخترع لهم من سلوكهم البريء أخطاء:

- في ظروف موت دخلت سيدة المجلس فسلمت على الجميع

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وقبلت الحاضرات، وكذلك فعلت مع قريبات المتوفاة. وكانت مفاجأة لمّا قالت لها صاحبة البيت بعد أيام: إنك يوم الوفاة لم تسلمي علي، ولم تعزيني، ولم تواسيني في مصابي.

فانظروا، لقد أخطأتْ صاحبة البيت حين نسيت أن السيدة سلمت عليها وأنها عزتها بصدق، ثم جعلت ذنبها ذنوباً، وهو (إن صح) ذنب واحد (هو التقصير في التعبير)! والسبب أنها لا تحب تلك السيدة كثيراً، فرأت ما أوحى لها به عقلها الباطن ولم ترَ ما حدث أمام عينيها.

- عملت إحدى صديقاتي مدرّسةً فنشأت بينها وبين بقية المعلمات في المدرسة علاقة وثيقة، وبالغت كل واحدة منهن في حب الأخريات والتعلق بهن. وكانت لكل منهن عيوب ملازمة لها، لكن صديقتي لم تكن ترى منهن شيئاً (رغم أن عيوبهن كانت واضحة تماماً). وذات يوم وقع بينها وبين واحدة من المدرّسات خلاف بسبب التنافس على تدريس شعبة بعينها، فلما أحست صديقتي بالأذى من زميلتها تفتحت عينها على عيوبها وصارت تراها على صورة هي أبشع وأقتم من حقيقتها، وكانت من قبل لا ترى منها شيئاً! وهي ما زالت لا ترى شيئاً من باقي المدرسات لأنهن لم يتعرضن لها، وقد مهدتُ لها أن تكون واقعية عملية ولا تبالغ في تقدير باقي زميلاتها المدرّسات حتى لا تُصدم يوماً بهن كما صدمت بإحداهن من قبل، ولكنها لم تصدقني حتى اللحظة.

ونحن كلنا مثلها؛ **لا ندرك طبيعة الناس حتى يصيبونا بالأذى، ولا نقدّر عظمتهم حتى ينالنا شيء من عطائهم. وهذا ظلم**، فكيف

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

يتسنى لكل محسن أن يشمل بإحسانه الجميع؟ وكيف من الممكن أن يؤذينا كل فرد إيذاء شديداً حتى نعلم أنه بشر فنتراجع عن تقديسه؟

* * *

ونحن غالباً نُقَوِّم الناس من داخلنا، أي حسب تجاربنا الخاصة فنحترمهم ونقدرهم أو نسبهم ونبتئس منهم. ولأجل هذا فإننا نهتم بصفة واحدة من صفاتهم ونهمل بقية خصالهم، فيكون حكمنا عليهم غير منصف، بل يكون خاطئاً ومجانباً للصواب:

- فقد تناهى إلى سمعي أن أحد الرجال ناضج عقلياً ونفسياً ورائع وناجح في حياته، وكم فوجئت بهذا التصريح، فزوجته صديقتي الحميمة وأنا أعرفه جيداً، وهو فاشل ربَّ أسرة وزوجاً وأباً وحتى موظفاً. فلمّا استفسرت تبين أنه إنما كيل له هذا المديح لأن مَن مدحه يعاني من تقصير أولاده الشديد في حقه، وهذا الرجل يولي والديه كل عناية ورعاية ومحبة (على حساب واجباته الضرورية). فصار الرجل لديه ناجحاً جداً ومثالاً يحتذى في سلوكه كله، فتأملوا!

- واعترف شاب بأن والدته كانت تستعمل الدهاء والمكر والخديعة للسيطرة على والده، فنشأ الشاب كارهاً لتلك الصفات، وصار كلما التقى أحداً متصفاً بها أعرض عنه وترك التعامل معه مهما كانت صفاته الأخرى جيدة.

* * *

ونحن في حياتنا اليومية لا نراعي ظروف الناس والأحوال التي قد تطرأ عليهم فتؤثر في سلوكهم تجاه الآخرين؛ فمَن حولَنا هم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

بشر، والبشر قد يغضبون وقد يحزنون، وقد يصيبهم صداع قوي، أو قد تزعجهم رداءة الجو، أو تشغل عقلَهم مشكلةٌ لم يجدوا لها حلاً أو مصيبة حلت بهم؛ فيظهر أثر ذلك على قسمات وجوههم ويبدو في تصرفاتهم.

من أجل ذلك ينبغي أن لا نصنف كل سلوك يصدر من الناس على أنه مقصود ومخطط له، فغالباً ما يكون عشوائياً. فليس كل سلوك مؤذ دليلاً على سوء أو بغض، خاصة إن كان غير متوقع ولا معهود. وإنما هي ردود فعل النفس البشرية، وهذا أمر خارج عن الإرادة وكلنا فيه سواء؛ وطالما أحسسنا بالضيق والاكتئاب ففاجأْنا الآخرين بسلوك لم يتعودوه منا (بسبب حساسيتنا الزائدة في تلك الفترة العصيبة) فآذيناهم وآلمناهم. فينبغي أن ننتبه لهذا فيراعي كلُّ طرفٍ الآخرَ ولا يألم منه، وإن كان أَلِم في موقف ما فليعلم أن الطرف الآخر قد أَلِم منه أيضاً في هذا الموقف أو في آخر مشابه.

فلا تعتبوا ولا تحزنوا إن قوبلتم يوماً بجفوة أو بوجه عابس، فغالباً لا يكون ذلك كرهاً للقائكم ولا انزعاجاً من صحبتكم أو ضجراً من معشركم، وإنما لأسباب شخصية أخرى، فما يعتري البشر من حالات أكثر من أن يحصر. وكيف تعتبون عليهم ونحن كلنا مثلهم؟ إذ طالما ألمّت بنا ملمّات فجعلتنا ننتهر أولادنا ونغلظ في القول لأزواجنا:

- فقد قذف ولد الكرة على رأس أبيه من غير قصد وهو يلعب فسبه وضربه ضرباً شديداً مؤلماً، ولما عاتبته الأم صرخ في وجهها ثم صفق الباب وخرج. والسبب أنه غاضب لأنهم لم يحصل على

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الترقية التي كان يحلم بها، فلم يحتمل بعدها أي شيء وراح ينتقم ممن حوله ويشفي غليله بأقرب الناس إليه.

وكلنا شعر يوماً بالحاجة للوحدة، وبرغبة جامحة للاختلاء بالنفس، وتمنينا لو نبتعد عن أحب الناس إلينا، فضلاً عن الأباعد الذين ينبغي أن نتجمل أمامهم، فلنقدر هذا في غيرنا:

- كانت لسيدة قريبة تحبها وتأنس باللقاء بها والاجتماع معها، ولكنها جاءتها يوماً بلا موعد ولا اتفاق مسبق، وكانت -حينها- في حالة تحتاج معها إلى الاختلاء بنفسها والابتعاد عن الناس، فلم تستمتع بصحبتها ولم تسعد بقضاء وقتها معها، بل تضايقت من وجودها معها وهي في هذه الحالة العصيبة، فأحست القريبة بذلك وحزنت لأنه ظنته نفور منها، فما عرفت فيما بعد السبب عذرت السيدة وتقربت منها من جديد.

والخلاصة:

نحكم على الناس ونعاملهم بما نراه نحن شخصياً منهم ولا نهتم بدراسة أو مراقبة سلوكهم مع الآخرين، وهذا غبن لهم؛ فقد يكون ما كرهناه أو أنكرناه فيهم هو أسلوبهم في التعامل الذي لا يحسنون غيره، أو يكون حالة طارئة ستزول. وإلا قد يكون العيب فينا وما سلوكهم إلا رد فعل لسلوكنا السيء معهم.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الخامس

نكره أن يتفوق الناس علينا

الإنسانية في خطر، والإنسان مهدد من أخيه الإنسان! لقد أوشك أن يموت الخير ويذهب العرف بين الناس، فالإنسان مهدد بالغبن والتجاهل، وهو عرضة لأن يجرَّد من فضائله ومن مزاياه ومما حباه الله به من نجاح لئلا يتفوق على من حوله ويتقدم عليهم.

هذه هي الجريمة البشعة التي نرتكبها بحق إخوتنا: نثبطهم وكأننا نمسك معولاً وندق به من آتاه الله شيئاً من التميز فاستثمره. نفعل هذا بدل أن نفرح لهم ونبارك خطواتهم ونتمنى لهم التوفيق والنجاح، ونفعله وكأن كثيرين منا لم يقرؤوا الواقع ولم يعرفوا أن من الممكن أن ينجح الكل ويفوز الجميع:

- عمل طبيبا أسنان في عيادتين متجاورتين، وكان الأول يمني نفسه بأن يكون الأبعد شهرة والألمع اسماً والأكثر مراجعين لما يراه في نفسه من فهم وعلم يتفوق بهما على جاره، ولكن وبعد مزاولة المهنة تهافت الناس على الثاني وكان الأوثق لدى الناس حتى لكانت تشد إليه الرحال من الأماكن البعيدة. فلم يَرُق الأمر للأول فصار يجلس في الناس يتحدث عن الأخطاء التي وقع فيها جاره ويخذلهم عن اللجوء إليه، وإذا غاب الثاني يوماً واضطر واحد من مراجعيه إلى

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الدخول على الأول أوهمه أن جاره قد أخطأ في معالجته وتهاون في إصلاح سنه فلا ينبغي أن يثق به مجدداً ويذهب إليه للعلاج.

بل إننا نثبّط من لم يؤتِه الله شيئاً من التميز فجد وعمل ليحظى بأي نصيب من الخير؛ نثبطه وهو يستحق وسام الأبطال، ونثبطه وهو يسعى إلى المعالي ويفعل ما ينبغي أن يفعله كل إنسان، فالخلافة التي ائتمننا الله عليها هي في تقديم أي عمل بنّاء فعّال، كإعمار الأرض وخدمة البشر بأي عمل نافع. ولذلك أجزل الله العطاء لمن يترك صدقة جارية أو علماً أو حتى ولداً يربيه تربية إسلامية صحيحة، فيكون منه الخير ويدعو له:

- ابتلى الله إحدى الشابات بعاهة مستديمة فحاولت تجاوز ذلك بالجد والاجتهاد (لتُدرِّس من بعد وتكون لها طالبات، فينتفعن هن بعلمها وتنتفع هي بدعائهن). فتفوقت على قريباتها جميعاً بمجموع درجاتها، فلم يعجبهن ذلك ولم تكن لديهن الهمة ليدرسن ويتفوقن، فأخذن يثبطنها بالسخرية من جِدها واجتهادها، وجعلن من اهتمامها بالدراسة وحرصها على التعلم شيئاً مُعيباً يُخجَل منه بدل أن يكون فضيلة ومفخرة، وصرن يقنعنها بأن لنفسها عليها حقاً ولهن حقاً فلتؤت كل ذي حق حقه ولا تبالغ. ولم يكن هدفهن إلا ثنيها عن الجد حتى تتساوى وإياهن في الكسل والإهمال!

وتزداد الحرب شراسة إن جاء الخير لمن نراه حقيراً وضيعاً، أو وصل الفضل لمن نراه ليس له أهلاً، أو طال التكريم مَن هو غير جدير به برأينا. فيتألّى بعضنا على الله ويعترضون على ما أصاب المولى به عبده من نعمة، فنقول: لماذا فلان وغيره أحق منه؟! وكيف فلان

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وهو كذا وكذا؟ فنعدد معايبه وننسى أنه رُبّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، وأن مثل هذا قد يكون خيراً من ملء الأرض من أمثالهم، فنحن نحكم على الظواهر والله هو العليم بالسرائر، وهو العليم الخبير الذي يرزق من يشاء ولا يُسأل عما يفعل، فالله يقدر بعلمه ويفعل ما يريد.

وبهذا يتألم المتألي مرتين: مرة لأن الخير مُنع عنه، ومرة ثانية لأن الذي أصابه الخير شخص لا يراه أهلاً له. وفوقها سيبوء المتألي بغضب الله ومعه الحسرة والندامة مما اكتسبه فلان، وطالما كانت مفاجأة حين منَّ الله على رجل فقير مسكين بثروة كبيرة، أو على شاب حدث بعمل جيد وراتب عال، أو على طالب ببعثة مجانية للدراسة في جامعة معتبرة... وطالما أثار هذا حفيظة أقربائه ومعارفه الذين كانوا لا يحبونه ويعتبرونه أقل منهم شأناً.

* * *

ومثل هؤلاء الناس يحاولون ثني المرء عن التقدم قدر الإمكان، فتارة يتهمونه ويتهجمون عليه فيقولون إنه لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بالواسطة أو بالغش والتحايل لأن قدراته وجهوده لم تكن -برأيهم- لتساعده أبداً بالوصول إلى المعالي! وتارة يستعملون ضده الأساليب المعروفة في الحرب النفسية فيُتجاهَل هو ويُمتدَح غيره إن قام بنفس عمله! (فيقتنع بأنه لا يتميز عن أحد بشيء فيهمل قدراته وينسى طموحه ويعيش كسائر الناس؛ يأكل وينام مكتفياً بوظيفته التقليدية وراتبه المتواضع). وتارة ثالثة يُنفّرونه من الهدف الذي وضعه لنفسه فينعتونه بأنه هدف سخيف لا يستحق التضحية أو أنه

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لا يتناسب مع ميوله أو مع مكانته الاجتماعية، وهكذا.

وهم أيضاً يتضايقون من أي مظهر من مظاهر التفوق ولو كان عشوائياً ومن هاو مبتدئ، فكيف سيفعلون لو أراد الله أن يجعل من ذلك الشخص (الذي اجتهدوا لثنيه عن النجاح) شيئاً مذكوراً، وكيف سيوقفون نجاحه وتقدمه وقتها؟

لقد علمتني الحياة أن الذي لا يشجع بوادر النجاح أو يمدح المتفوق والمتميز يكون هو الخاسر وحده، أتعرفون لماذا؟ لأن سنة الله قد قضت بأن الذي يعمل ويجتهد سيتفوق وينجح، شاء الناس أو أبَوا، وقفوا معه أو حاربوه، ساعدوه أو تركوه. وإنما الفرق في نظرة الإنسان (إن نجح) لهؤلاء الناس، فهو إما سيحمل لهم التقدير طول حياته لأنهم آزروه وساعدوه، وسيحاول الإحسان إليهم، وسوف يذكرهم في المحافل والمجالس وفي كل مكان يصل إليه معترفاً لهم بالفضل، فينالهم هم أيضاً التقدير والفخر. وإما سيدرك أنهم لا يحبونه ولا يسعدون لنجاحه فينبذهم ويتنكر لهم (وبذلك يُرَد عليهم ما فعلوه).

وعلمتني الحياة أيضاً أن أسلوب التجاهل الذي يتّبعه بعض الناس مع من أظهر نجاحاً (تثبيطاً له) لا يفيد أبداً، بل بالعكس إنه يزيد المرء تصميماً على النجاح ويمنحه قوة عظيمة ليتفوّق أكثر، فيثبت لنفسه ولغيره أنه أهل للخير الذي أصابه وأنه يستحق التقدير والثناء.

وباختصار فإننا لا نستطيع ثني المجتهدين عن التقدم والنجاح بعد أن ذاقوا حلاوة ذلك، ولا يمكننا تثبيطهم عن الوصول إلى

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أهدافهم بعد أن اقتربوا منها. فلنبادر -إذن- إلى مباركة خطواتهم وتشجيعهم حتى لايفهموا ذلك بطريقة خاطئة لا نقصدها، فيظنوا أننا لا نحب لهم الخير أو نراهم لا يستحقونه... ولنعلم أن نجاحهم ليس مفخرة لهم وحدهم وإنما هو مفخرة لكل من يلوذ بهم. ولنحاول أن نفعل نحن شيئاً مهماً أو شيئاً مفيداً كما فعل هؤلاء لأن هذا هو الصواب.

* * *

إن الرغبة في التفوق والتميز غريزة، وهو أمر طيب لأنه يدفع المرء إلى العمل المثمر، ولكنه يصبح أحياناً مرضاً يُخشى منه (وقد يصل إلى حدود المشتبهات التي نُهينا عن الاقتراب منها) إذا كان على حساب حقوق الآخرين وجهدهم وكفاحهم، فيهادن المرء الناجحين ويُظهر الفرح والرضا والقبول لما نالهم، ثم يخطط في الخفاء للوصول إلى مناصبهم مستعملاً أساليب غير مقبولة لإزاحة المتفوقين من طريقه ليحظى هو بما أعد لهم أو ليفوز بما هو حق لهم:

- اختيرت فتاة أعرفها معلمةً مثاليةً في إحدى المدارس سنة بعد سنة فأسرّت إليّ أختها بما يلي: لقد عملت أختي بالتدريس لتثبت نفسها، وأنت تعرفين أن قدراتها محدودة، فكانت تتصنع المثالية وتمثلها تمثيلاً. وقد نجحت في خداع مَن حولها ولبثت سنوات المعلمة المثالية وحدها وهي تنحي سواها من المدرّسات بأساليب ملتوية، رغم أن فيهن من هي أقدر منها.

- وسمعت عن موظف ينتهز الفرصة ليعلو أمام مديره (ولو على حساب بقية الموظفين في دائرته)، فإذا وجد من زملائه الآخرين

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

تقصيراً اجتهد، وإذا وجد كسلاً نشط، وباستغلاله الفرص وبجهده البسيط يبدو وكأنه الأفضل دائماً (لما يبديه بسلوكه من فروق)، ويظهر الباقون وكأنهم مقصرون.

وإن هذه الرغبة في التفوق تعظم النفس وتوليها من الأهمية أكثر مما ينبغي، فتجعل الإنسان مغروراً، وتزين له الزهو والتفاخر إن لمس تميزاً في شخصه، فيتعالى ويحقر الآخرين:

- فقد عرفت مرة سيدة تحدّرت من عائلة كانت لها مكانة وثروة في ماضي الأيام. ولكن تبدل الحال من سنة الله في خلقه، وقد تبدلت حال هذه الأسرة حتى باتت كسائر الأسر توسطاً في الجاه والمال. ثم تزوجت تلك السيدة فلزمها هاجس التميز عن زوجها والتفوق عليه بالدرجة الاجتماعية والمكانة والجاه، فكانت تتكبر عليه وتأسف أن أولادها الصغار يحملون اسم أبيهم وصفاته الدونية في حين لم يحملوا شيئاً من صفات عائلتها المتميزة العظيمة. وكم عانى زوجها وعانى أبناؤها من هذا الأمر الذي أحال حياة الأسرة كلها إلى شقاق ونزاع دائمين. وما هذه الدعوى إلا تفرقة عنصرية لا تجوز ولا تنبغي، وهي جاهلية يرفضها الإسلام.

* * *

وقد تؤدي الرغبة بالتفوق إلى الحقد والحسد، ولا تعجبوا؛ فالتحاسد بين الأقران معروف، اقرؤوا التاريخ لتتأكدوا، وما طعن الكافرون بكثير من الأنبياء إلا غيرة وحسداً، وهذا نبينا تعرض لما تعرض لمثله إخوانه من الأنبياء من قبل؛ فقال الكافرون: ﴿لوْلا نُزِّلَ هذا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتينِ عَظيم؟﴾، وأول جريمة قتل

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

في الأرض كانت بسبب هذا... وبذلك يبدو طبيعياً أن يطال الحسد عامة الناس. ونحن نرى هذا واضحاً في واقعنا، فبعض الطلاب والموظفين يصرّحون بكراهية زملائهم لأنهم أثبتوا تميزاً أو تصدروا المنصب الذي كانوا يتمنونه لأنفسهم، وقد يحاولون تشويه سمعتهم أو إيذاءهم، ومثل هذا مشهور معروف في تلك الأوساط.

* * *

وينبغي أن أوضّح أمراً مهماً؛ فالأفكار السابقة جعلت بعض الناس يحجمون عن التميز أو التفوق مع ما وهبهم الله من المزايا والقدرات تواضعاً أو خوفاً من أن يصيروا يوماً من المتكبرين، وهم يحاولون أيضاً ثني الآخرين خوفاً عليهم من هذه العواقب. وهذا خطأ وهو مخالف للإسلام، ولو فعله كل المسلمين لما حظينا بعالِم ولا فقيه ولا بقائد فذ ولا بفاتح مقدام.

إن هذا الاعتقاد (التفوق يؤدي دائماً للتكبر) لبس وقع فيه البعض فقعدوا عن الخير، إذ ليس كل من جدَّ وعمل متكبراً هدفه البروز والشهرة، وليس كل من جلس عن المعالي متواضعاً غايته البعد عن الشبهة. فالمهم هو النية وعليها المدار كله، والقرائن المصاحبة قد تساعدنا على تمييز المخلص من الانتهازي. إنما من المهم، بل من الواجب، أن يسعى كل واحد إلى إجادة عمل أو مهنة ليكون فعالاً منتجاً وليكون كما أراد له الإسلام؛ فالله لا يحب القعود عن المعالي، بل يشجع الطموح. ولذلك شجع أن يكون التنافس بالعمل الصالح، وفي العلم النافع، وفي إنفاق المال بوجوه الخير، حتى روي أنه لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه. وأباح أن يكون كل ذلك جهرة لو كانت المصلحة في ذلك أكبر.

والخلاصة:

لا يستسيغ المرء ولا يحبذ أبداً أن يتفوق غيره عليه، وخاصة أقرانه لأنه يحس بالتنافس معهم ويشعر بتفوقه عليهم في المواهب والقدرات، ولذا فقد يمقت المرء الناجحين لأجل هذا أو قد يحاول ثنيهم أو صرفهم عن الجد والعمل ليكون هو وإياهم على سواء.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ السادس

نظلم الناس ونأخذهم بالشبهات

يقع في روع كثير من الناس أنهم وحدهم المظلومون، وأنهم ضحايا لغيرهم، وأنهم مساكين يتلقون الظلم وهم برآء لم يفعلوا شيئاً... وقد **يكون كثير من الناس مظلومين حقاً، أي كما يرون ويعتقدون، ولكنهم في الغالب ظالمون أيضاً وإن كانوا لا يعلمون!** إذ من الصعب الاحتراز التام من الظلم؛ فهو كدبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء. وهو من شيم النفوس إن غفا الإيمان، وكثيراً ما يغفو! والظلم من سنن الحياة الدنيا لأنها دار ابتلاء وليست دار عدل، ولكن الله قد حرّمه على نفسه وجعله محرّماً بيننا لما له من أبعاد فظيعة في التحريش بين أفراد المجتمع المسلم، فعلينا الانتباه له.

وأقصد بالظلم أيّ حيف يقع على المرء، ولو كان كلمة بسيطة آذت مشاعره، فهو يكون في الشيء اليسير ويكون في الأمر العظيم. **وعلى ذلك فإن الإنسان يَظلم ويُظلم كل يوم باطراد في تعامله مع مَن حوله، فلا ينجو من ذلك كبير ولا صغير، ولا غني ولا فقير، ولا قوي ولا ضعيف**... وإن اختلفت النسبة وطريقة الظلم.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فبعض الناس يظلمون أكثر من بعضهم الآخر لأنه يُشبَّه لهم فيتسرعون، وفي كثير من الأحيان تغرهم المظاهر والظروف وتزين لهم النفس الظلم فيتبعونها. ولذلك لم تُشترط العدالة فقط في الجَرح والتعديل وإنما اشترط معها الضبط، فالعدل قد ينسى أو يغفل أو يسهو، فتثبّتوا أيها المسلمون قبل أن تحكموا على الناس أو تفصلوا بين البشر. وإليكم أسباباً لظلمنا بعضنا البعض:

(١) **نحن نظلم لأننا نعتبر الأقران والأقرباء والمعارف حزمة واحدة**، ونفترض أنهم كلهم على رأي واحد وموقف واحد، فنعاقب الناس بذنوب بعضهم البعض ولا نستثني؛ فنكره البنت إذا أغضبتنا أمها، ونقاطع العائلة إذا أساء إلينا فرد منها، وإذا لمسنا خصلة سيئة من إنسان افترضنا أنها موروثة وأن كل أسرته كذلك، فنمتنع عن مصاحبتها أو مصاهرتها، وهكذا. وهذا لا يجوز أبداً (إلا إذا ثبتت صحته بدليل قوي)، وهو مخالف حتى للقوانين الأرضية التي وضعها البشر واعتمدوها.

(٢) و**نظلم لأننا نسمع من طرف واحد** ولا نتمكن غالباً من الوصول إلى الطرف الثاني في النزاع (لأسباب مختلفة)، وبالطبع يحشد الطرف الذي أمامنا كل الأدلة لبراءته مما يعزز موقفه لدينا، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من الناس يظنون أن ما يتفوهون به لا يعتبر ظلماً أو إيذاء فالإيذاء هو في الأفعال فقط:

- اشتكى طالب من أن مدرّسه قد عاقبه بغير ذنب أذنبه وطرده من غرفة الدرس، فلما سمع أبوه بالواقعة استشاط غضباً وتوجه إلى المدرسة متّهِماً المدرس سلفاً وقبل أن يستمع إلى دفاعه، ولكنه حين

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ووجه بالذنب الذي ارتكبه ولده تبين له أن الولد هو المخطئ وهو البادئ بالظلم وهو المعتدي، فقد تجاوز حدود الأدب مع أستاذه فتطاول عليه وأهانه أمام جميع الطلاب فكلمه بلهجة وقحة وبعبارات غير مهذبة فاضطر الأستاذ إلى معاقبته ليحفظ شيئاً من كرامته.

فينبغي أن نعتبر من أمثال هذه الوقائع ولنعلم أن هذا الأب قد وصل للطرف الآخر في النزاع وعرف منه الحق، ولكن هذه صدفة وغالب الناس لا يستطيعون الوصول للخصم، أو يتقاعسون عن ذلك ظناً منهم بأن الأمر واضح بَيِّن فهو لا يحتاج لسؤال، فيُخدَعون بما سمعوه ورأوه فيَظلمون. وقد نبهنا الإسلام أن لا نستعجل في الحكم قبل أن نتحقق (وحتى لو جاءنا الرجل يحمل عينه المقلوعة بيده فلعله هو قد قلع عيني خصمه). **وينبغي أن ندرك أن الطرفين يكونان -على الأغلب- مخطئَين معاً ولكن بنسب متفاوتة**، ولكننا نحكم لطرف واحد فقط بالبراءة المطلقة وللآخر بالإدانة الكاملة، ونتمادى في ظلمنا هذا حتى ليرفض بعضنا أن يسمع من الطرف الثاني بعد أن سمع من الأول. وإن أصر رجل مظلوم على أن يعمل السنة ويجُبّ الغيبة عن نفسه ويشرح وجهة نظره أو تفصيلات ما حدث فإنه يتهم بأنه أفّاك يريد أن يلوي الحقائق ويرتب الحوادث -بعدما تبينت- ليبرئ نفسه عدواناً وظلماً.

(٣) **ونَظْلم لأننا نقتنع ونؤمن بالرواية الأولى للقصة** فيكون الفضل للسابق (سواء كان عدلاً أو مجروحاً، ثقةً أو ممن يُشَكّ به) وللانطباع الأول، والانطباع الأول مهم جداً وعليه الحكم قد يدار على الغالب، إذ يصعب جداً -من بعد- محوه وإن كان خاطئاً.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

كما أن بعض الناس جُبِلوا على الشكوى وآخرين جُبِلوا على الصمت والتحمل، فمن سمع شكوى الشاكي ورأى سكوت الطرف الآخر حسب الأمر حقاً وحكم بظلم الثاني للأول.

(٤) **ونظلم لأننا نثق في بعض الناس دون بعضهم الآخر**، فإن جلسنا للفصل والحكم وسمعنا أقوال الطرفين لم نشهد بالحق، وإنما صَدّقنا روايات الذين نحبهم مهما كانت وملنا إليهم، فنوالي بذلك طرفاً على الدوام ونُكذّب الآخر، وننسى أن الناس كلهم يخطئون ويصيبون، وأن فيهم من يغفل وينسى، وأن فيهم السذج الذين يسهل خداعهم، وأن منهم من تلعب به الأهواء أو تخدعه التوسلات أو مَن علمته الحياة الانحراف؛ فمع نقص الإيمان وغياب تقوى الله أتقن كثير من الناس (حتى الأغبياء منهم) فن الالتواء والتخفّي والتصرف بدهاء، فباتوا يعرفون من أين تؤكل الكتف، فيسبقون إلى رواية الحوادث بطريقة فنية تجعل المسيء محسناً والمحسن مسيئاً، أو قد تزيد المسيء إساءة وتبرئ من ابتدأ العدوان. وقد يساعدهم على ذلك سرعة تصديق الناس لهم لجاههم أو مالهم.

وكم ظلم هؤلاء ناساً أبرياء. وكثيراً ما سمعت قصصاً بُدِّلت وغُيِّرت حتى صارت قصصاً أخرى، وأكثرها شيوعاً قصص زوجات الآباء مع الأبناء، والخلافات على الأموال، ولا بد أنكم تعرفون منها الكثير. فلا تكونوا عوناً لأولئك الظلمة على أقربائهم المساكين، فكثير من الناس يجيدون التمثيل فيبدون للعامة رُحَماء محسنين وهم قساة عتاة، ويبدون عظماء كرماء وهم مراؤون بخلاء، فضعوا هذا نصب أعينكم ولا تقولوا هذا ابن عائلة مشهورة فلا يمكن أن يسيء، وهذا على خلق ودين فلا يمكن أن يظلم... فالمرء بعمله

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لا بحسبه، وحتى المؤمن التقي قد يوسوس له الشيطان فيضعف ويسيء في الخفاء (في حين يبدو للناس جميعاً أنه تقي محسن دائماً وفي كل حال).

وللقرابات أثر بالغ في الأسباب الثلاثة الأخيرة (أي سماع طرف واحد، وتصديق الأسبق، والثقة في طرف دون الآخر)، فنرى أهل الزوجة يتعاطفون معها ضد زوجها وأهله وإن كانت ظالمة لأنها أقرب وأحب إليهم، ونرى أهل الزوج يتعصبون له وإن كان متعسفاً لأنه أقرب وأحب إليهم... وهكذا.

(٥) و**نظلم لأن الحكمة تخوننا أحياناً**، فلا ننظر إلى الحوادث بعمق ولا نقدّر أبعاد الأمور، ولا نستشرف أثرها مستقبلاً:

- فقد ظن عم أنه إن وقف مع ابن أخيه (وهو محق) ضد أبيه يكون مشجعاً له على العقوق، فآثر أن ينصر أخاه ظالماً ولم يأخذ الحق على يديه. وكانت النتيجة أن ظن أخوه أنه محق فتجبر ولم تعد تنفع فيه نصيحة، وامتد ظلمه إلى بقية أولاده ثم وصل إلى ذلك الأخ الشقيق الذي تقاعس (من البداية) عن الأخذ على يديه.

(٦) و**نظلم بسبب شبهة** نعتبرها دليلَ إثبات، فندين ونحكم بها على الناس، فنتهم المرء بذنب ربما لم يدرِ أصلاً أنه وقع فضلاً عن أن يفعله، فيفاجَأ المسلم بإدانته والحكم عليه بقضية لم يعلم بأنها حدثت فكيف يكون هو الجاني فيها؟! ومع ذلك لا نقبل أبداً أن نسمع دفاعه، فنظلمه، وقد نكتسب بغضه من ورائها:

- زار الرجل عمته وبصحبته ابنه الصغير، فطلبت منه أن يرتب حوائج اشتراها لها في غرفة التخزين (التي لا تدخلها إلا نادراً)

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وانشغلت هي مع ضيفاتها ففعل وانصرف، وبعد أسبوع اتصلت العمة بالهاتف وأخذت تعنف الولد الصغير وتلومه بقسوة بالغة، فآلمته أشد الألم. ولمّا تناول الأب السماعة وسألها عن السبب (فالولد لم يذنب ولم يخطئ) قالت إنها تعاتبه لأنه لعب بمحتويات المخزن فانشعر الإناء الزجاجي الضخم التي تحفظ فيه الزيتون فسال زيته على الأرض وخرب المتاع الذي وصل إليه. فأكّد الأب أن ولده لم يدخل المخزن أصلاً (يوم رتب لها الحاجيات) وبقي في الحديقة يلعب بدراجته، فاعترفت العمة بأنها لم ترَه يدخل، ولكنها أصرت على اتهامه لأن أي ولد لم يزُرها منذ ذلك الحادث! ولم تتقبل أي دفاع، وظل الولد مداناً بالشبهة وتغيرت معاملتها لهما لأنهما كذبا ولم يعترفا! حتى تبين -من بعد- أن حفيداً لها زارها قبلهما هو الذي فعلها من غير أن تنتبه له!

(٧) و**نظلم بسبب فكرة مسبقة**. سمعت مرةً هذه العبارة اللطيفة: "إذا عُرف عنكِ أنك تسيقظين مبكراً فنامي للظهر ولن يصدق أحد أنك تفعلين ذلك!"، وكذلك يتعامل الناس في الدنيا:

- فقد عُرفت فتاة بأنها مؤذية وكثيرة التهجم على الأخريات، وذات يوم أرادت أن تكون لطيفة فتواسي واحدة من قريباتها أصيبت بمرض خطير، فاقتربت منها لتؤازرها وتخفف عنها مصابها. ولكن تلك القريبة (ولِما تعرفه عن الفتاة من فكرة مسبقة) اعتبرت تلك المواساة إيذاء أو شماتة، فرفضتها وصدتها وتضايقت منها.

- في إحدى الزيارات العائلية انكسر زجاج النافذة الكبيرة المطل على الحديقة، فسارع صاحب البيت إلى اتهام ابن أخيه الصغير،

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فتعجب الحضور وسأل أحدهم: "ولماذا هذا الولد بالذات؟"، فقال: "لأنه في الزيارة الماضية مزق الستارة، شهد بذلك باقي الأولاد؛ فهو ولد مخرب، وقطعاً هو الجاني هذه المرة أيضاً"! وتساءل الحضور: "هل يكفي أن يمزق ولدٌ مرةً ستارة ليصير المتهم الوحيد في أي جريمة؟ وهل يصلح أولاد -دون السابعة- للشهادة؟! هذا افتراء". وبينما كان أبو الولد يهم بالقيام للتحقيق في الموضوع جاء الخبر اليقين ببراءة ابنه، فقد ألقى ولد آخر الكرة ناحية الزجاج فأرداه فُتاتاً على الفور.

(٨) و**نظلم بسبب أدلة واهية**؛ فتكون ظاهرياً دليلاً للإدانة، ولكن المرء لو تذكر التفصيلات ودرس الظروف لوجدها أدلة باهتة لا يُعتَدُّ بها:

- ففي جلسة عائلية صرح أخ لأخيه بأنه يود إقامة مشروع تجاري بطريقة مبتكرة، فتعجب الأخ من أن نفس الفكرة قد راودته، وتحمس وفتح الأدراج وأرى أخاه المخططات التي أعدها والدراسات التي قام بها. فاتفقا -بعد مداولات- أن يمضي كل في مشروعه، على أن يقيم كل منهما فرعاً منفصلاً وكل فرع في جهة تخالف الأخرى من البلد.

أما الأخ الأول فتأخر عن مباشرة مشروعه، فلم يصنع فيه شيئاً خلال سنوات، وأما الثاني فمضى فيه وربح. فاعتبره الأول معتدياً سرق مشروعه ونسبه لنفسه واحتكر أرباحه (بحجة أنه هو الذي طرح الفكرة أولاً). وحاول الثاني أن يذكّره بأن مخططاته كانت مرسومة من قبل أن يسمع منه بدليل أنه قد أخرجها جاهزة من الدرج أمامه،

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وذكّره بأنهما اتفقا أن يعملا معاً وهو الذي تأخر، ولكن الآخر لم يقتنع وأصر على اتهامه الخاطئ.

(٩) **ونظلم لأننا نتدخّل فيما لا نعرف تفصيلاته** فلا نتابع الحوادث من أولها ولا ندقق في مراحلها، ولا نفكر بالنتائج الطبيعية والسنن الأرضية التي تحكم حياتنا، إنما نقومها ببعض ما ينتج عنها وهذا قد يوقعنا في الخطأ:

- فقد أبدى رجل (خبير في الأجهزة المحمولة) رغبته بشراء الهاتف المحمول المستعمل الذي يمتلكه قريبه، فآثره به وبسعر أقل، ولم يشتره إلا بعد أن فحصه وقدر سعره بواسطة المختصين، وكان راضياً سعيداً بهذه الصفقة رغم أن الهاتف تعطل واحتاج إلى صيانة أكثر من مرة (فهو مستعمَل، وقد تم البيع على هذا الأساس)، ولكن رجلاً آخر من العائلة (لا يعرف تفاصيل الصفقة) تطوع للدفاع عن المشتري فلام البائع ونوّه -بتهذيب- بأنه ما باع ذلك الجهاز لقريبه إلا ليتخلص منه لأنه يعرف أنه لا خير فيه، ولولاه لما وجد ساذجاً غيره ليشتريه! وقد دهش مَن سمع القصة مِن هذا الظن ومن الفهم الخاطئ للموضوع، بمن فيهم الرجل الذي اشترى الهاتف!

(١٠) و**نظلم لأننا لا نعلم الغيب** ولا نعرف الحقائق ولا ما يدور في الخفاء، **فنصدق ما نسمعه عن الناس من إشاعات ونتقبل فوراً كل ما يدور من أحاديث في اللقاءات والاجتماعات والزيارات**، ونسلّم بكل ما يقال فيها ونتناقله بدل أن نتوقف فيه. ثم نتعجب كيف يصدق الناس ما يسمعونه عنا من دون تحقق! وإن بعض الملابسات لتخدع وتوحي بأن ما سمعناه كان حقاً وهو كذب وبهتان، وقد أنكر النبي

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيسلّم بها ويصدقها ثم يخبر بها ويفشيها وينشرها، فروى مسلم: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع». ونحن كذلك: يُقال لنا إن فلاناً طُرد من العمل لأنه غير أمين فنصدق، ثم يتبين أنه هو الذي استقال. ويقال لنا إن فلاناً طلق زوجته لأنها امرأة سوء فنقتنع وننشر ذلك بين الناس، ثم يتبين أنها هي التي اختلعت منه لأنه تارك للصلاة، إلخ.

من الإنصاف عدم التأثر برأي الناس بعضهم في بعض؛ فلا نعتبر آراء الناس في الآخرين أمراً مسلماً به، ولا نتقمص رأيهم في الآخرين إلا بعد التثبت. وعادة يحتاج المرء وقتاً ليكوّن انطباعاته عن معارفه، ثم تتثبت هذه الفكرة لديه طول الدهر ويصعب تغييرها، فكان لزاماً علينا أن نتأنّى في الحكم على الأشخاص وأن لا نتسرع في أخذ الأحكام جاهزة حتى لا نتبنى آراء خاطئة نظلم بها الناس. فينبغي أن نتأكد بأنفسنا مما نسمعه عن صفات فلان وأخلاقه، لأن الناس قد يضلوننا عن الحق بعلم أو بغير علم، فلا نجرح ونعدل إلا بعد معاشرة المرء أو السفر معه أو معاملته بالدرهم والدينار (فلعل الناس تبخسه حقه فتظلمه، أو تبالغ فتنزله منزلة رفيعة لا يستحقها).

وبعض الناس يزينون -من عند أنفسهم- القصص المختلَقة (التي يسمعونها) لتزداد جاذبية ولتصبح أكثر إثارة، فيضيفون عليها كلاماً من عندهم ثم ينقلونها للآخرين ويصدقهم الناس!

وكثيراً ما تحدث وراء الكواليس أشياء مهمة، ولو عرفناها باكراً لغيرت هذه الحوادث مجرى سلوكنا. أو على الأقل عدّلت فكرتنا عن الناس، **فنحن نحكم على الأمور من ظواهرها فنظلم**، وهذه النقطة

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

مهمة جداً، وطالما وُصم أشخاص -ظلماً- بطباع وعيوب ليست من شخصيتهم أبداً، ولكنها لصقت بهم لأنهم فعلوها مرة (تحت ضغوط أو بسبب ظروف معينة):

- قضت سيدة يوماً في بيت قريبتها فأشاعت من بعده أنها أم غير منصفة؛ فهي تظلم ولدها الصغير لتلتمس الكبير. والتعليل أن الكبير قام بكل واجباته فسمحت له أمه أن يقضي وقتاً طويلاً باللعب بالكمبيوتر أما الأصغر فكان مهملاً ولذلك عوقب بالحرمان، لكن السيدة لم ترَ ما حدث قبل حضورها بل رأت الكبير يلعب مسروراً والصغير يتنقل أمامها متجهم الوجه حزيناً والأم تنتهره فظنته مظلوماً مسكيناً.

ومن هذا الباب **الظلم بسبب الطيبة وقلة التجارب**؛ فنفهم الكلمات والمواقف كما نراها أمامنا وننسى أن لكل علاقة إنسانية تاريخاً قديماً وذيولاً وملابسات لا نعرفها، فنحكم على الحاضر وننسى أن الحاضر هو نتاج الماضي الطويل (ولا بد من تأثير الماضي على الحاضر). **فنحن نرى النهايات ولا نعرف البدايات، فنظلم ونرى أمامنا حقائق مبتورة أو مشاهَد صغيرة**، فنظن أننا فهمنا منها الحقيقة كلها، وهذا خطأ. فالعلاقات بين الناس تتكون بالتدريج، وتغلفها الخصوصية، فلا يمكن فهمها من موقفين. **فإن صادَفنَا سلوكٌ غير لائق من إنسان مع قريب له (أو جورٌ أو تعدٍّ)، فلنعلم أن سببه قد يكون نفاد صبره من مواقف لم نشهدها وليس قلة تهذيب أو ضعف تقوى منه**. فمثلاً إن كنا نعرف أن فلاناً يقدر أخاه الأكبر الذي رباه ويحبه ثم انقطعنا عنهما ثم سمعنا -بعد مدة- أن الصغير قد اختلف مع الكبير فلنعلم أنه ليس لسوء فيه ولكنه لأمر جلل حدث، أو لأمور

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

صغيرة كثيرة فاتتنا، أو لأن العلاقة بينهما قامت على أساس خاطئ فانهارت. ولا تنسوا أن مجتمعاتنا تحضّ الصغار على احترام الكبار وتوقيرهم، الأمر الذي يمنع الصغار من الشكوى ويجبرهم على تحمل ظلم وقهر الكبار فيبدون (لمن لا يعرف التفصيلات) وكأنهم ظالمون مقصرون في حقوق ذويهم من الكبار، وإن كنت لا أنفي أن الصغار يجورون ويظلمون ويتعدون على الكبار.

ولنتذكر دائماً أن لكل نفس قدرة معينة على التحمل فلا تستطيع التسامح بعدها أبداً، وظلم ذوي القربى أشد من ظلم الأغراب، وإنه ليغور عميقاً فلا يكاد يمحى أثره أبداً مهما طال الزمن. وأغلبنا جرب شيئاً من هذا، ولكن الناس ينتظرون منا أن نسامحهم نحن على كل ما فعلوه ويطلبون منا أن نودهم كسابق عهدنا (ناسين ما آلمونا به).

ولعل من هذا الباب (أي الظلم بسبب عدم معرفتنا الغير) **جهلنا بطباع وثقافة الآخرين ومدى علمهم بالأصول والآداب الاجتماعية،** فنتوقع ممن نتعامل معهم سلوكاً يتوافق مع كل ذلك، ولكنهم قد يجهلونه لسبب ما فيبوؤون بسخطنا وهم لا يعلمون:

- جاء رجل لزيارة صديقه، ففتح له البابَ ابنُه المراهق فسلّم عليه بود ولطف وأخبره أن والده ليس في البيت (ولم يخطر بباله أن يدعوه إلى الدخول، فماذا سيفعل ذلك الغلام مع رجل كبير؟)، فتلكأ الرجل قليلاً ثم مضى، وذهب يحدّث بسوء تهذيب ذلك الغلام. ولكن الغلام لم يكن يعرف أن اللباقة تستدعي أن يدعو الرجل إلى دخول البيت ويقدم له شيئاً يشربه ويؤنسه ريثما يحضر والده، فأبواه لم يُعلّماه ذلك من قبل كما أن والده لا يصحبه في زيارات

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الكبار أبداً، لذلك فهو لا يعرف إلا عالم الصغار البسيط الذي يتقبل بصدر رحب مثل هذا التصرف. ومع ذلك لم ينجُ الولد من توبيخ والده ولومه على سوء سلوكه!

(١١) **ونظلم بسبب التسرع**:

- سمع الأب جلبة فأسرع إلى غرفة الاستقبال، فرأى ابنته الصغيرة واقفة أمام حطام آنية الورد الثمينة التي نهاها مرات ومرات عن الاقتراب منها، فبادر إلى ضربها ضرباً موجعاً، وبعد إنزال العقوبة بها أتاح لها الفرصة للدفاع عن نفسها فأخبرته بأن أخاها هو الذي كسر الآنية ثم هرب!

* * *

إن الظلم لَذنبٌ عظيم مخيف خاصة وأن أثره يمتد؛ فإن وقع أحدنا في مصيبة ظلماً أو اتُّهم بلا توثق كثر أعداؤه وانصرف عنه محبوه وتركوه وحيداً وهو أحوج ما يكون إليهم، ولا يفيده أن يكون بريئاً، فالناس يصدقون الإشاعات مهما كانت. ولذا قد نكون يوماً نحن الضحية! فلنحذر ولنتحرَّ في سلوكنا مع الآخرين لعل الله يذب عنا ويمنع الظلمة من الوصول إلينا إن اتقيناه بحفظنا الآخرين.

وإذا كان المتهم من ضعفاء الناس كانت المصيبة أعظم؛ فهؤلاء قد لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم ولا يتحملون افتراء الناس عليهم، فإن وقعوا لم تقم لهم قائمة وكانت القاضية. فيكون ذنب مَن ظلمهم أكبر. ولذلك نهى النبي عن ظلم الضعفاء وشدد في الوصية بهم.

والخلاصة:

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لأسباب متنوعة نظلم كلنا بعضنا بعضاً ولا نستثني، طبعاً مع تنوع الأسلوب واختلاف الشدة. وليس بيننا بريء من الظلم وإن أقسم على البراءة منه! فلا بد أنه قد وقع فيه في وقت ما مع شخص ما. والظلم ذنب كبير ولو كان بالشيء اليسير القليل، فنتهاون فيه وهو عند الله عظيم.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ السابع

نجور في تقدير حقوقنا واستعادتها

من روائع عدل الله أن أباح للمظلوم أن يقتص بقدر مظلمته، فمن اعتدى علينا جاز لنا أن نعتدي عليه بمثل ما اعتدى علينا. هذا شرعنا: «العين بالعين والسن بالسن»، شرط أن نلتزم فيه التقوى فيكون مقروناً بالعدل والقسطاس المستقيم.

ولو تُرك القود تبعاً لتقديرات الناس وهوى النفوس لما استطعنا أن نوقف بطش الناس بعضهم ببعض، فكلٌّ يسعى لسحق خصمه بذريعة القصاص، أو استعادة الحق، أو رفع الظلم عن النفس. **أي أننا نبالغ في تقدير حقوقنا ونجور في استعادتها**.

أرى ذلك بين الأطفال بالصورة المصغَّرة؛ فإذا داس أحدهم على قدم آخر (ولو بلا قصد) جاء المصاب لأمه يبكي ويرجوها، بل يلح عليها، أن توقع بأخيه أقسى وأشد العقوبات التي تخطر في عقله الصغير؛ فهو يريدها أن تحرمه من اللعب، ومن الحلوى، وتضربه، وتتركه في البيت وحيداً وتذهب للنزهة مع العائلة... فهو يتلو عليها لائحة طويلة من العقوبات التي يراها نزيهة عادلة في مثل هذا الموقف! وتترك بعض الأمهات أولادهن لينتقموا لأنفسهم فأرى

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

كيف يهجم واحدهم على أخيه بشراسة حتى ليؤلمه ألماً شديداً أو ليكاد يؤذيه أذى فعلياً. وليته بعد هذا يقنع ويرضى، فهو يشكو لأمه من أنه لم يتشفَّ منه بعد (وكأنه غريم له وليس أخاه!). وإن كان هؤلاء صغاراً لا يدركون فيبالغون، فإن مثلهم يفعل الكبار:

- أخذت سيدة ثوباً فاخراً غالي القيمة إلى كواء ليكويه لها فأفسده بقلة خبرته، فطالبته بتعويض مالي يفوق ثمنه فرفض ولم تتمكن من إجباره، فدعت عليه بأن يمرض مرضاً خطيراً ينفق عليه من المال بقدر خسارتها في ثوبها وينفق -من بعد- كل ما يملكه من دار ومتاع وأن تمرض زوجته وأن يمرض أولاده... فلِمَ كل هذا؟! وما ذنب الزوجة والأولاد ليمرضوا ويصيبهم السقم، فلعلهم لا يعرفون ما فعله أبوهم أو لعلهم غير راضين عن تهربه من تحمل مسؤولية خطئه؟

- وتعرضت زوجةٌ لظلمٍ من والدَي زوجها (تتعرض لمثله كثير من الزوجات)، فأفحشت في سبهم والكلام عليهم، وبالغت في تقدير حجم إساءتهم، ومنعت أولادها من زيارتهم، بل ربتهم على كره أهل زوجها جميعاً وسائر أقربائهم ومعارفهم وجيرانهم، وكل من يلقي عليهم التحية (وإني لا أبالغ وأقول حقاً!).

- وأخطأت امرأة فاعترفت لزوجها بأن أهلها أجبروها على الزواج به وأنها لم تكن راغبة فيه. فكبر الأمر عليه، ولم يشفع لها أنها تقوم بحقوقه كاملة وأنها حاولت أن تحبه وأن تتقرب منه، فافتعل لها المشكلات، ثم تركها معلقة منذ سنوات وتزوج عليها وأنجب، وما تزال إلى الآن في بيت أهلها ولم تنصفها المحكمة حتى اليوم.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ومثلها كثيرات.

إننا -باختصار- نتصرف كما قال أهل الأمثال: «من رشني بالماء حرّقته بالنار»، بل ربما زدنا على ذلك!

* * *

ولعلنا لا ندرك أن الإيذاء يكون -غالباً- متبادَلاً بين الطرفين، فهو سجال؛ هذا يبدأ الإساءة فيكيل له الآخر مثلها، فيعاجله الأول بالرد فينتقم الثاني، وهكذا. فلا يكون في هذه الحالة ظالم ومظلوم، وينتفي القصاص، وتكون هذه بتلك فتكون مقاصّة بلا وسيط. ولكننا لا ننتبه أبداً إلى أننا قد استعدنا ما لنا من حقوق وانتهينا، بل نظن أنه ما زالت لنا بقية لدى الآخرين فنجتهد في استرجاعها. ولو دققنا في حساباتنا لتداركنا الأمر قبل أن يتفاقم، أي لوصلنا لهذه النتيجة: "لم يبق لنا شيء"، وطوبى لمن ينتبه لهذا فيوقف المساجلات وينهي الحرب الباردة.

والواقع أننا لن نستطيع تسديد اللكمات للناس كلما فعلوا شيئاً لا يرضينا، أو أن نعقد لهم محاكمة كلما آذونا، فالإنسانية تقتضي أن نتغاضى ونتسامح، خاصة وأن أغلب المظالم التي توقع العداوة والبغضاء بين الناس معنوية، فنظرة قد تؤذي المرء أذى شديداً، وتنبيه صغير في غير محله قد يجعله يأرق ليالي منزعجاً، إلخ. ومن هنا تبدو صعوبة تطبيق العدالة، أي مبدأ «العين بالعين والسن بالسن»، فكيف سيحسِب المرء حجم أو قيمة كل ألم مسه وكل أذى وقع عليه ليأخذ حقه بالعدل فلا يُظلم ولا يَظلم؟ وبم يضمن المستقيد أنه آلم بقدر ما تألم وآذى بقدر ما تأذّى؟

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وإن كان الله قد أباح «العين بالعين والسن بالسن» وسيلة إلى العدل وإحقاق الحق إلا أنه آثر الصبر والعفو وحضنا عليه ودفعنا إليه، وقد تعهد لنا بأن يزيدنا بالعفو عزاً ورفعة ووعد بأن يدافع عنا إن كنا حقاً مؤمنين. ولذا كان في العفو مخرج عظيم؛ فالله عليم بالسرائر وقادر على قياس الأضرار بدقة، وبالتالي فهو كفيل بأن يعوض المظلوم بقدر مظلمته، هذا مع ما يُرْبيه له من مضاعفة لحسناته.

إن أمامنا فرصة للتسامح إن أضعناها لم نلقَ مثل جزائها، فرصة نستطيع أن نكتسب بها أجراً عظيماً. وليس معنى ذلك أن نقعد لا نصنع شيئاً ونذير للمعتدي خدنا الأيسر، فإن رب السماء لا يقبل بهذا. وهذا ما يزيد الأمر تعقيداً وصعوبة، فكلما دعونا للتسامح ظنها الناس دعوة للضعف والاستكانة، وليست كذلك؛ فالعفو إن كان عن مقدرة وقوة لم يكن ضعفاً أبداً، إنما الضعف ما كان عن جبن وعجز. فانتبهوا.

* * *

ولكن الناس لا يتسامحون، وهم -فوق ذلك- يبالغون؛ **فأحياناً لا يتعدى الأمر بينهم الاختلاف اليسير في وجهات النظر، إلا أن بعضهم يعتبره مسوغاً للفرقة والقطيعة ويديره ليكون فاتحة للخصام والشقاق**، ويبدو اليوم ذلك واضحاً بين ألصق الناس. ولا أدري هل كثرت هذه الحالات في عصرنا أم أنها كانت قديمة ولكن من عاشوا قبلنا أغفلوا الحديث عنها؛ فالخلافات انتشرت، ومع قلة التسامح اشتدت وتصعدت حتى هددت أسمى وأرفع العلاقات وزعزعتها «الأمومة» و«الأبوة»، واسمحوا لي أن أشرح لكم التفصيلات:

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فعقوق الأولاد للآباء أمر مألوف معروف وهو كثير، ولذا أوصى الشرع بالوالدين إحساناً وشدد في الوصاية، ولكنه لم يتعرض بالمقابل لوصاية الآباء بالأبناء إلا لماماً، لأن الله جعل الأمومة والأبوة غريزة فلا يستطيع الإنسان السوي عنها فكاكاً ولا منها مهرباً، وإن الإنسان ليتعب ويشقى ويجمع المال لأولاده، ولا يحب أن يتفوق عليه أحد إلا ولده ولا يسره شيء قدر مسرته بتميز ابنه ونبوغه، وإنه ليسامح ابنه مهما فعل معه (إلا نادراً) ويألم لأي شيء يصيبه لأنه قطعة منه.

ولكننا صرنا نرى بعض الآباء يشذّون عن هذه القاعدة؛ فإذا أخطأ أولادهم الصغار غير المميزين بحقهم في أمر هيّن بسيط عاقبوهم عليه عقاباً قاسياً: فقد حرقت أم يد ولدها بالماء الساخن وتركته يتألم أياماً لأنه كتب بقلم الحبر على الحائط، وقضى أبٌ الليل بإيقاظ ولده كلما غفا عقاباً لأنه أيقظه مرتين في الليلة الفائتة! وإذا كان أولادهم كباراً حرموهم من الميراث أو رموهم بالعقوق وهم لم يفعلوا ما يستحق هذا العقاب أو ما يستوجب هذا الغضب وتلك النقمة.

ولا أدري كيف تطاوع هؤلاء الآباءَ ضمائرُهم ليفعلوا بأبنائهم مثل ذلك وهم فلذات أكبادهم، بل حتى كيف يمكن أن يفكروا بهذه العقوبات (حتى ولو لم يفعلوها)؟! بل إن بعضهم يعتبر أن ما حل بأولاده من البلاء دليل على عقوقهم فيُسَر لأن الله انتصر له منهم! وإن من أكبر الآلام للأبناء أن يتخلى الوالدان عنهم؛ فهما الملجأ الأول والأخير لهم، وهما من يملك المشاعر الصادقة الوحيدة في هذه الدنيا القاسية، وهما نبع الحنان ومصدر الحب الذي يُفترض

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أنه لوجه الله فلا مصلحة من ورائه فهو يعطي ولا ينتظر مردوداً، وأنه الحب الراسخ الذي لا يهتز ولا يتأثر بأي سبب (كائناً ما كانت قوته، فكيف به إن كان ضعيفاً تافهاً؟).

وإليكم قصة شهدتها وأنا صغيرة، وكنت أراها كبيرة من الكبائر ولكنها لم تعد كذلك بعدما سمعت من قصص الناس وقرأت عنها، وإنما سردتها لأعلق عليها:

- آذى مراهق والدته وأتعبها في توجيهه، ولم يكن بدعاً بين أقرانه، فالتربية مهمة صعبة، والمراهقة مرحلة حرجة، لكنها سارعت إلى الركوع والسجود والدعاء عليه بالموت العاجل الأكيد! ولو تفكرت الأم لعلمت أن هذا دعاء عليها وليس عليه؛ لأنه إن مات استراح من هذه الدنيا وربما عجل إلى الجنة التي نتمناها كلنا (لأنها ستندم وستستغفر له)، أما هي فمن سيعيد لها ولدها؟ إنها ستقضي بقية عمرها تبكي وحدها وتتألم، فهي الخاسرة الوحيدة في دعائها. وهذا ما حدث لتلك الأم؛ فقد مات ولدها وبقيت وحيدة تضرب كفاً بكف على ما فرطت فيه.

وإني لا أدري **لماذا يسارع الناس إلى رفع أيديهم للدعاء على غيرهم (سواء أكانوا أولادهم أو سواهم من الناس) قبل الدعاء لأنفسهم بأن يريهم الله الحق حقاً ويريهم الباطل باطلاً؟ فلعلهم زلوا أو ضلوا أو ظلموا وهم يحسِبون حقوقهم ويُقوِّمون الوضع بعيونهم المحابية التي تلتمسهم وتتوسط لهم وتتقبل أعذارهم.**

وبعد ذلك، وبعد أن يطلعهم الله على الحق، عليهم أن يجتهدوا بالدعاء بأن يرزقهم الله اتباع الحق ويرزقهم اجتناب الباطل؛ حتى

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لا يتحولوا من مظلومين إلى ظالمين فيأثموا ولا يُستجاب دعاؤهم.

ثم إني لأتساءل: **لماذا يسارع هؤلاء إلى الدعاء على من آذاهم بالويل والثبور ولا يدعون لهم بالهداية والكف عن الأذى والرجوع إلى الحق؟** خاصة إن كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم؛ فإن صلاح هؤلاء فيه الخير الدائم للجميع، **أما فسادهم ففيه الأذى لنا قبل سوانا**؛ فهم رحمنا وأهلنا في النهاية، **وما يصيبهم من محن وابتلاءات سيطالنا أيضاً**. وإنهم إن استمروا على فسادهم أصابنا شيء من أذاهم مجدداً لأننا أقرب الناس إليهم ومن أكثر من يتعامل معهم. وقد شكا رجل لابن المبارك بعض ولده فقال: هل دعوت عليه؟ قال: نعم. قال: فأنت أفسدته.

ولعلّي أطالب الإنسان بأكثر من طاقته؛ فهذا خلق الأنبياء، فقد أصاب النبي جزء يسير مما يصيب كلاً منا، وأصابه المشركون وأدموه، فقال وهو يمسح الدم: «ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وصحيح أن بعض الأنبياء دعا على قومه لمّا أيس منهم، ولكن أولئك كانوا قوماً كافرين، أما نحن فلسنا كذلك، بل إن أغلبنا يعيش بين أهله وقد لا يحتك إلا بأقرانه وإخوته في الإيمان، فلماذا يستعجل ويدعو عليهم؟

وإن في معذرة الكافرين تأليفاً لقلوبهم، وكذلك من كان من قوم عدو لنا؛ ففي الدفع بالتي هي أحسن كسب لودهم، فكيف إن كانوا من قوم مؤمنين؟ فهؤلاء أولى برأفتنا ورحمتنا، وهم مَن أَمَرنا الله بالصبر عليهم ووعدنا بأعظم المثوبة وأعلى الأجر إن احتويناهم.

وانظروا ما حصل بين السيدة عائشة وعلي بن أبي طالب رضي

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الله عنهما: لامته لأنه لم يأخذ بالثأر لعثمان ومضت تحرض عليه الناس فاستجابت لها فئة... ما يعنينا هو أن ذلك قد أسفر عن قتال كبير بينهما في يوم الجمل، فماذا فعل علي وعائشة بعد انتهاء الموقعة؟

لقد جهز علي عائشة بكل ما تحتاج إليه لتعود إلى المدينة، ثم جاءها ساعة الرحيل حتى وقف لها، وحضر الناس، فقالت: «إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي -على معتبتي- لمن الأخيار». وقال علي: «يا أيها الناس، صدقت وبرت، وما كان بيني وبينها إلا ذلك. وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة».

والعلاقات بين الناس اليوم لا تصل إلى واحد من مئة مما وصلته بين السيدة عائشة وعلي رضي الله عنهما (أقصد لا تصل إلى القتال)، ولكنهما تجاوزاها كأروع ما يكون التجاوز وعادت الأمور بينهما كما كانت من قبل، فلم يحمل عليها لأنها هيجت الناس ضده ولم تحمل عليه، واحترم كل منهما مكانة الآخر. فما بالنا نحن نبالغ ونستكثر؟

* * *

إن الله أمرنا بالتسامح وبالإحسان لمن آذانا، لكن هل تظنون أنه تاركٌ من أساء إلينا (إن لم يتب ويستغفر وينتهِ عن إيذائه الآخرين)؟ لا والله، **فالله غالباً ما ينتقم لنا أشد انتقام من حيث لا نحتسب ولا ندري**. وقد تكون العقوبة الإلهية في شكل معاناة نفسية وعنت مما يصيب الظالم من غير أن يبدو شيء من ذلك أمام الناس، ولكن غالباً ما يكون العقاب من جنس العمل. وهذه قصص حقيقية واقعية

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

تثبت ذلك:

- أكل رجلٌ مالاً ليس له، فلما أشهد عليه صاحب المال الشهود وجاءه بالبينات لم يملك إلا الاعتراف بالدين، ولكنه ماطل واتخذ كل سبيل للتملص من السداد. فلم تمض شهور حتى غرقت بضاعته بسيل أتلف قسماً كبيراً منها بلغت قيمته أضعاف ما أخذه زوراً.

- وتملص رجل من شركة خاسرة ودخل في أخرى رابحة، فلم تمض سنون حتى خسرت تجارته وبارت وركبته الديون، وتخلى عنه الأهل والأصحاب.

- وأساء رجل وزوجته إلى أبنائهما وزوجاتهم وأحكما سيطرتهما عليهم جميعاً. ولم يلبثا غير قليل حتى زوّجا بناتهما، فتكرر معهن كل ما فعلاه مع أبنائهما وزوجاتهم بطريقة مشابهة، بل بولغ أحياناً في ظلم بناتهما، فانطبق عليهما المثل: «وما من ظالم إلا ويُبلى بأظلم».

- وعق شاب أباه وأساء إليه، فلم يوفقه الله إلى تهذيب ابنه وتربيته وتوجيهه إلى الخير. فلما كبر ابنه صار يسيء إليه ويؤذيه بطيبته وغفلته وقلة خبرته بأصول التعامل مع الناس وعجزه عن التخلق بالآداب الفاضلة، وكأن الأب قد لقي من ابنه ما سبق وقدمه لوالده! فسبحان الله الذي يعدل من غير أن تز وازرة وزر أخرى.

ومن أحب سماع المزيد من هذه القصص الواقعية فلينظر حوله، فإنه سيجدها تحدث في محيطه ومع أقرب الناس إليه.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

والخلاصة:

نحن لا نعدل فيمن تعرض لنا بسوء ونود أن توقع به أقسى درجات العقاب لأوهى الأسباب، فنحنق ونضيق عليه ونبالغ في وزن فعلته وبالتالي في أخذ الحق منه، وبدل أن يكون القصاص رداً للاعتبار وتعويضاً للأذى ينقلب إلى التشفي والانتقام.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الثامن

نضرّ بمصالح الناس من أجل مصالحنا

من السنن الأرضية الفطرية التي وضعها الله في الإنسان أنه لا يعطي بلا حافز ولا يبذل بلا مقابل. وهكذا جاء في القرآن، فالعمل ولو كان ذرة له جزاؤه عند الله، ولذلك يعمل المؤمنون ومن أجل هذا يعطون ويوقون شح أنفسهم.

وكذلك العرف بين الناس في الدنيا مع اختلاف مشاربهم، فهم لا يقدمون شيئاً قبل أن يتحروا عن مقدار منفعتهم من الأمر. على أنهم يتقبلون أن يكون العائد معنوياً: فقد يعمل الإنسان معروفاً لآخر ليشكره أو يحمد له فعله فقط وليس ليعطيه عليه أجراً، وقد يبذل النصراني ثروته لبناء كنيسة رغبةً بالذكر والتخليد الدائم، فيسميها باسمه ليشتهر بها ثم يكتفي بهذا التكريم المعنوي. وهكذا.

وكثير من العلاقات الإنسانية تقوم على المصلحة، فقد يهادن الموظف مديره الظالم خوفاً على مورد رزقه، وقد يراعي الشاب خاطر والده ليستعير منه سيارته، إلخ. وأعرف مجموعة من الزوجات يعشن في جحيم حقيقي مع أزواجهن، فلمّا استفسرت عن الشيء الذي يجبرهن على البقاء قلن إنه الطعام والمأوى! فانظروا كيف

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

تدفع المصلحة الفرد لاحتمال ما لا يحتمل. وقد يبدو للناس أن الأم (التي تعطي أولادها كل شيء) تبذل بلا مقابل، ولكنها -في الحقيقة- تبذل إرضاءً لأمومتها وإشباعاً لغريزتها، فهي ببذلها تحقق لنفسها شيئاً من السعادة المعنوية. والدليل أن كثيرات ممن لم يكتب لهن الزواج يتُقْنَ للبذل ولو مجاناً في هذا المجال (كأن يرعين يتيماً أو مسكيناً). والدليل الآخر أن كثيراً من الآباء والأمهات يسخطون (وخاصة عندما يكبرون ويهرمون) إن قصر أولادهم في رعايتهم، أو حتى في زيارتهم، الأمر الذي يدل على أن الإنسان ينتظر مقابلاً على ما قدمه، وإن أخفى رغبته تلك أو أنكرها.

أقول هذا وإن كانت إنسانية الإنسان ومروءته ونخوته تأبى عليه في بعض المواقف أن ينتظر مقابلاً، فنرى المرء يندفع لاشعورياً لإنقاذ غريق، أو يتطوع للعمل في فرقة لمساعدة الأيتام، أو لتعليم القرآن، إلخ. ولكن **سنة الحياة العامة الواقعية اقتضت المقابل**؛ فنرى العامل لا يوقع عقداً حتى يستعلم عن قيمة الراتب، والخاطب لا يعقد العقد قبل أن يتحرى عن صفات المرأة ومدى مناسبتها له في كافة المجالات، فلا يتزوج إلا المرأة التي تعود عليه بشيء يرضيه في شكلها أو دينها أو أخلاقها، وكذلك المرأة تبحث عن الصفات التي تسعدها، ولا يقبل أحد الطرفين بأن يضحي بالزواج بشريك يرى فيه النقص. حتى لقد **صار الناس يظنون الظنون بكل فاعل خير ويشككون بنية كل محسن يرجو وجه الله!**

هكذا هو الواقع، ولذلك أجاز الفقهاء المتأخرون أن يأخذ الرجل أجرة على تعليمه القرآن، وعلى الأذان والإقامة، وعلى تعليم المسلمين علوم الدين، وإلا فلن يقوم بتلك الأعمال أحد.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لا مانع -إذن- من أن يسعى المسلم خلف مصالحه إن لم يؤذِ أحداً ولم يرتكب محرماً لأن ذلك فطرة لا يملك عنها محيداً. ولكن هذه الطبيعة البشرية تتحول إلى سلوك خاطئ حين تصبح مصلحة الإنسان المادية هي الدافع الوحيد الذي يحركه وحين تغدو العلاقة الإنسانية جسراً إلى هذه المصلحة وحين تصبح هذه العلاقة وسيلة غايتها المصلحة لا غير:

- فقد كانت جارة لنا (وأنا صغيرة) لا تتصل بنا ولا تسأل عنا إلا إذا احتاجت خدمة، كأن تترك ابنتها الصغيرة في رعايتنا ريثما تنجز أعمالها، أو تطلب من والدتي أن ترافقها إلى السوق، أو تتسلى بزيارتنا إن كانت تشعر بالضجر!

- وتودد رجل فجأة إلى زميل له يعمل بتجارة رابحة (بعد انقطاع دام مدة طويلة)، فسعد به وقربه إليه، وإذا به يطلب منه أن يمده برأس مال كبير ليبدأ مشروعاً يحلم به! وتودد آخر إلى رئيس لإحدى الشركات ليتوسط له في وظيفة رفيعة وعالية الراتب.

وكلنا نرى أولئك الذين يتهافتون على المشاهير وعلى أصحاب المناصب وعلى الأغنياء، وهم لا يفعلون هذا إلا رغبة بأن يصيبهم بعض ما أصاب أولئك، فينعموا ويتمتعوا ولو قليلاً. في حين يعرض الناس عن المغمورين والعاطلين والفقراء، فما نفع أولئك بالنسبة إليهم؟!

بل إن الإنسان قد لا ينصح الآخرين في بعض الأحيان إلا من أجل مصلحة ستعود عليه! إذ علينا أن نعترف بأن مشكلاتنا أهم لنا بكثير من إصلاح الناس، وأننا حينما ننتقد أو نعيب فإننا نفعل ذلك

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لنتخلص من خصلة تزعجنا نحن؛ فعندما ينعت رجل صديقه بالبخل فقد يكون معنى ذلك أنه مل وسئم من كثرة ما يكرمه ولا يجد منه مقابلاً وأنه ينتظر منه -بالتالي- أن يدعوه يوماً إلى طعام العشاء! وإذا طلب منه أن يكون فعالاً نشيطاً فربما قصد أن يرتاح على حسابه ويستفيد منه في إنجاز مهامه، ومثل هذا كثير.

* * *

وقد كنت أستاء كثيراً وأتضايق من هذا السلوك في صغري، فلما كبرت تفكرت ملياً في الدنيا وأحوالها وفي سننها فهان علي الأمر، إذ علمت أن ما كان يفعله أولئك القوم ليس بالأمر العظيم وأكثر الناس يفعلونه بعضهم مع بعض ولا يرونه شيئاً مذكوراً لأنه حاجة من الحاجات الضرورية، وهو من صميم العلاقات الاجتماعية اليومية.

والواقع أن أولئك الذين يركضون على مصالحهم لا بد أن يحققوا لنا شيئاً من مصالحنا:

- أعرف رجلاً صاحب جاه وثروة التفّ حوله الناس كما يفعلون مع أمثاله، فأفادهم بجاهه وثروته فوائد كثيرة؛ فأقرض محتاجاً إلى المال، وشارك غيره في تجارة، وتكفل بمصاريف تدريس ابن الثالث في الجامعة. وبالمقابل خدمه الناس بأشياء؛ فهذا درّس ابنه الرياضيات فتفوق فيها (وكان راسباً)، والآخر ساعده في تصميم بيته الجديد، وهكذا. فاستفاد من الناس وأفادوا منه.

وهذا ليس بدعاً؛ فالنبي قرب المؤلفة قلوبهم طمعاً بإسلامهم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وإسلام من يلوذ بهم، فكانت هذه المصلحة التي يرجوها من إعطائهم. وجعل الله لهم سهماً من الصدقات، وقد صلح بعضهم، فاستفاد النبي بصلاحهم، وأحبه بعضهم الآخر ونافحوا عنه. وتفصيل ذلك في كتب السيرة.

ولكن بعض الناس تقصر عقولهم عن استيعاب هذا الدرس ويجهلون أن الحياة تقوم على تبادل المصالح والمنافع، فهم لا يتقبلون الرجل الذي يسعى إلى مصلحته ومصلحتهم فيطردونه فيكونون هم وحدهم الخاسرين، أما هو فسيجد سواهم ليخدمهم ويخدموه.

وبعض الناس يبالغون في إتقان هذا الدرس لدرجة منفرة، فهم يقدمون باليد اليمنى ويمدون معها اليسرى ليأخذوا، فلا يخدمون إخوانهم بشيء إلا وقبضوا الثمن مقدماً؛ فيصلح الأخ لأخته ما فسد من متاع بيتها فيرمم ويلصق ويصون التحف والمفروشات ثم يطلب منها -في نفس اليوم- أن تخيط لابنته زيها المدرسي، ويدعو الرجل زميله إلى عشاء فاخر ثم يطلب منه استعارة سيارته الكبيرة ليحمل بها أهله إلى النزهة، وهكذا.

والمشكلة أن هؤلاء يختارون الوقت الذي يعجبهم لعطاء الناس والوقت الذي يناسبهم للاسترجاع، فهم يمدون يدهم بالمساعدة عندما تكون ظروفهم مناسبة ثم يطلبون المقابل ساعة يحلو لهم، ولا يراعون ظروف الآخرين ومشاغلهم اليومية وما يعرض لهم، وكأنهم قد ملكوا الناس بعطائهم فصاروا في خدمتهم وطوع بنانهم. **والمرء ليس دائماً مستعداً للعطاء، وإنه في أحيان كثيرة ليتمنى أن**

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لا يناله أي عطاء مهما كان قيماً ليُطلب منه فجأة أن يقوم بمهمة هي أكبر بكثير (في نظره وأولوياته على الأقل) مما قُدم له.

* * *

العيب -إذن- في أولئك الناس الذين يسعى الواحد منهم خلف مصلحته على حساب مصالح الآخرين وأوقات راحتهم، وربما آذى الناس أو ارتكب المحرمات ولا يبالي ما دامت مصلحته هي التي تتحقق. وهؤلاء الذين لا يعملون إلا لمصلحتهم لا يمكن الانتفاع بهم أبداً. فلنحذر حتى لا ننجرف وننـدفع وراء رغباتنا وأحلامنا فنكون منهم أو مثلهم، فهؤلاء هم المسيئون والخاطئون.

ولذا كان علينا أن نميز بين الفريقين؛ أي الفريق الذي يكسب ويشارك الآخرين في كسبه والفريق الذي يكسب وحده. والفرق -فيما أرى- بيّنٌ واضحٌ لا يخفى: فبعض أصحاب المهن يشكون من أولئك المعارف والأقرباء الذين لا يتصلون بهم إلا لإنجاز مصالحهم، فإن كانوا أطباء تطببوا لديهم وتداووا مجاناً، وإن كانوا تجاراً أخذوا منهم البضائع ليتاجروا بها أو ليشتروها ثم يماطلون في الدفع أو يغبنون في السعر، أو يستعيرون منهم ما يمكن استعارته من أصول كالأدوات أو الآلات، يأخذونها بلا أجر أو عوض ولا يبالون إن فسدت.

وإنهم ليستغلون طيبة وتعاون وكرم خلق ذويهم ليرهقوهم بالطلبات والتوصيات، فنراهم يوظفون الناس لإنجاز مهامهم (وهم قادرون على القيام بها) بدل أن يوظفوا أنفسهم أو أولادهم، ولا يرضون -بالمقابل- أن يعامَلوا بالمثل فيعتذرون إن طُلب منهم شيء أو يتهربون.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وآخرون ينتفعون بصلات القربى (إن كان لهم قريب ذو جاه أو نفوذ) فيتوسطون ويتوسلون بها إلى من بيدهم الحل والعقد بلا علم صاحبها ثم يقصرون في القيام بحق القرابة وصلة الرحم. وتجد قوماً يتهافتون إلى الحفلات والأفراح والدعوات فيأكلون ويشربون، فإن كانت تعزية أو عيادة مريض أو إغاثة مكروب ولَّوا على أدبارهم نفوراً فلم نحس منهم بعد ذلك من أحد أو نسمع لهم ركزاً، فإذا انقضت المصائب عادوا إلى الظهور من جديد سعياً وراء الغنائم.

وتبدو بشاعة هذا الطبع عندما يلفظ الناس شخصاً ويزدرونه، حتى إذا نجح ووصل إلى المعالي سارعوا إليه لينالهم شيء من نجاحه:

- فقد نبذ طلاب الجامعة زميلاً لهم فدفعه ذلك للجد والاجتهاد. ولم تمض سنوات حتى صار رئيساً للقسم الذي دَرَسَ فيه، فتقرب منه زملاؤه السابقون (الذين صاروا مدرّسين في الجامعة) بعدما رفضوه سابقاً، تقرّبوا منه وكل واحد يمني نفسه بأن يكون ذا حظوة لديه ليستفيد منه ويغنم من منصبه (في توزيع المواد وأوقات الدوام).

وفي الدنيا من يحجم عن الشهادة ويسكت عن الحق خوفاً على مصالحه أن يطالها الضرر، ولا يبالي بما يلحق الآخرين من أذى وهو قادر على إنقاذهم من الضيم بكلمة تخرج من فمه.

وآخرون يضرون بمصالح إخوانهم ويؤذونهم لإنفاذ وتمرير مصالحهم، فنرى بعض الطلاب يشون بالأساتذة زوراً وافتراء لأنهم منعوهم من الغش، وأناساً يتوسطون لدى معارفهم ليشغلوا وظيفةً

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

غيرُهم أحقُّ بها وأقدر عليها، وقد يكون بحاجة مادية أكبر لها... والنتيجة أنهم يزيحون الآخرين بشتى الوسائل في سبيل مصالحهم المختلفة، وهم يتزايدون باطراد. فلنحذر، فقد نصبح منهم.

والخلاصة:

لو كان سعينا على مصالحنا بالمعقول لتُقبل منا لأنه سنة عامة وفطرة متغلغلة لا نملك عنها فكاكاً، فلا بد من أن يتتبع كل فرد مصالحه في هذه الحياة، وأن يسعى إلى جمع الغنائم، وتحصيل المكاسب. ولكننا ننجرف فيه أحياناً ولا يهمنا إضرارنا بمصالح الآخرين وما يؤثر ذلك على علاقتنا بهم.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ التاسع

نتتبع عيوب الآخرين

من عجيب حال الإنسان أنه كلما رأى عيباً في أخيه راح ينكره ويغضب منه ويقيم الدنيا عليه، ويرى أن هذا العيب لا يحتمل ولا يغتفر ولا يمكن الصبر على مثله. وهذا الإنسان نفسه ممتلئ بالعيوب، لكنه لا يراها!

والأعجب منه ما انتبه إليه ذلك الرجل العاقل حين قال: "كفى بالمرء عيباً أن يستبين له من الناس ما يخفى عليه من نفسه، أو يمقت في الناس ما يأتي مثله". وكثير منا على هذه الشاكلة، فهم يرون عيبهم في غيرهم ولا يرونه في أنفسهم!

وطالما عاب الإنسان على الناس عيوبه نفسها، فكم من أشخاص حولنا يعيبون التأخر عن الموعد ثم يتأخرون، وينتقدون المتشدق وهم يتشدقون، وأمثال هذا في الحياة أكثر من أن يحصى. وإننا كلنا بلا استثناء ننزعج وننتقد الآخرين على سلوكهم السيء ثم نكرر نفس الأخطاء التي وقعوا فيها والتي آلمتنا، ونكررها حتى مع أقرب الناس إلينا، ولا ننتبه إليها ولو كانت واضحة وضوح الشمس:

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

- خسر تاجر مبالغ كبيرة وتعرض لإهانة الدائنين وكثرة طلباتهم وشدة إلحاحهم، وعانى كثيراً من عدم تقديرهم لوضعه وقلة إعذارهم لظروفه القاهرة، فلما فتح الله عليه -من بعد- نسي ما مر به وسلك نفس السلوك؛ فكان يضغط على دائنيه ويلح عليهم ولا يستثني الضَّعَفة والغارمين، معللاً أن هذا حقه والعمل ليس فيه مجاملات فعليه استيفاؤه حتى القرش الأخير.

وماذا يمكننا أن نفعل وقد بلغ من حسن ظن الإنسان بنفسه، ومن تبرئة نفسه واتهام غيره، أنه يصاب بالدهشة عندما يلفت أحدٌ انتباهَه إلى عيب ينتقده في غيره وهو فيه، وهذا ما حصل معي:

- عبتُ على صديقة (لمّا كنا في المدرسة) عدم توازنها في سلوكها معي؛ فهي تُقبل عليّ مرة وتدبر مرة، وأنا لا أدري بِمَ أحسنتُ حين أقبلَتْ ولا بِمَ أسأتُ حين أدبرَتْ. فنبهتني أختي إلى أنني أفعل الشيء ذاته مع صديقة أخرى من صديقاتنا، ففوجئت جداً. ثم وقفت مع نفسي وقفة صدق فوجدت أن كلام أختي حق، وسببه أنني لا أنسجم مع طباع تلك الصديقة، ولكني أسعى إلى الانتصار على نفسي فأودها وأتقرب منها، ثم أتأذى من طباعها فأنفر منها مجدداً، وهكذا. فأنا ما بين إقبال وإدبار، وهي لا ذنب لها، ولم تؤذني، ولكن العيب من تنافر طباعنا ومن قلة صبري على صفاتها. فعندئذ قدّرت أن لصديقتي الأخرى (التي تعرض عني) أسبابها في إقبالها وإدبارها وأدركت أن عليّ أن أساعدها بسلوكي لتقبل عليّ دائماً.

* * *

ولو مضينا قدماً في دراستنا لعيوب الطبيعة الإنسانية لوجدنا أكثر من ذلك. تفكروا قليلاً وأحصوا كم مرة تلقى أحدكم نقداً،

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وكم تنوعت الملاحظات الموجهة إليه، وكم تكررت النصيحة الواحدة. ألا تجدون أن ردكم كان واحداً على كل تلك النصائح؟ الرفض والغضب، ثم البحث عن عيوب الطرف الآخر ورد الصاع له صاعين! أي أننا لا نتقبل النقد من أي أحد، ولا نتقبله بأي أسلوب، وفوقها فإننا غالباً ما نبادر الآخرين بالهجوم في محاولة للدفاع عن النفس، فنسرد معايب الطرف الآخر، هكذا فجأة وبلا مقدمات:

- قالت فتاة تنصح قريبتها: "تبدين طمّاعة، فانتبهي"، فصاحت قريبتها: "وأنت لئيمة وحقودة وبخيلة و... ومعفوشة الكماش"، فلما صفا الجو بينهما سألتْها: "هل أنا كل هذا فعلاً؟ وما معنى العبارة الأخيرة؟"، فأجابتها: "أنتِ لستِ كما وصفتُك أبداً، ولا أدري ما معنى العبارة، ولكني قلت لك أول ما خطر ببالي من معايب وألفاظ فقط لأنتقص منك وأقتص لنفسي بسبب انتقادك لي"!

وما هذه طريقة للحياة ولا هو الأسلوب الجيد في التعامل؛ أن يتلقى المرء النصح بفظاظة وأن يرد عليه بالتهجم والانتقاد. وهذه والله مصيبة عظيمة، فكيف سيرينا الناس عيوبنا إن كنا نرفض رؤيتها؟ وكيف سنَسمعهم ونحن نبادرهم بالهجوم لدى تلقينا أي نصيحة؟ إنها لمشكلة عويصة.

فلماذا نتصرف هكذا؟

إننا غالباً ما ننتقد ونعيب أفعال الناس ثأراً لكرامتنا، لأننا تأذينا منهم في مكان ما، في يوم ما، فنحن نعوض النقص. وربما كانوا في ذلك الموقف مذنبين أو برآء، ولكن لا فرق لدينا، فنحن ننتقم منهم حين تسنح لنا الفرصة بجرأة وبلا تحرٍّ أو توثّق، فلا يكاد أحدنا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

يرى عيباً في أخيه حتى يسارع إلى الانتقام:

- انتقد زوجُ الطريقةَ التي تدير بها زوجته (المعتدّة بنفسها) البيت وقال إنها طريقة لا تدل على براعة. وكانت الزوجة تدير البيت بهذه الطريقة مؤقتاً بسبب ظروف خاصة فآلمها كلام زوجها، ولكنها أسَرّتْه في نفسها ولم تبده له. ولم يمض يومان حتى شكى إليها زوجها تراجعاً في مبيعات شركته، فانتهزت الفرصة لتطعن في إدارته وتعلن أن سوء تخطيطه هو السبب الأول في خسارته، فلو أنه كان بارعاً فيه لما وصل إلى هذه الحال. ولم تكن الزوجة محيطة تماماً بظروف عمله وملابساته، ولكنه الثأر!

وقد ينتقم المرء من شخص آخر لا علاقة له البتة (ولا يبالي ولوكان أقرب الناس إليه):

- تزوجت امرأة رجلاً ضعيفاً لا يتحمل المسؤولية، ولم تستطع أن تجابهه بعيبه لئلا تفسد العلاقة بينهما، فكانت -من أجل ذلك- تنتقم من كل إنسانة ضعيفة تعرفها (وما أكثر الضعيفات!)، فتوبخها وتعاتبها وتنتهرها وتلومها وتطلب منها أن تتقوى وتواجه الصعاب. ولم تكن تستثني حتى ابنتها (لمشاركتها أباها في ضعفه). ولقد كانت مخطئة في سلوكها بالطبع، ولكن ظروفها هي التي أملت عليها هذا السلوك الهجومي العدواني الشرس.

فلو أننا أدركنا لماذا نتصرف كما نتصرف، وتتبعنا مشاعرنا التي دفعتنا للانتقاد ولمجابهة الناس بعيوبهم، لاستطعنا -وقتها- أن نتقبل نقد الناس ولومهم لنا، وأن نميز بين الصحيح منه والخاطئ، والبنّاء والجدلي. وسندرك -لحظتها- لم سيطرت علينا أو عليهم مشاعر

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

العداوة والكراهية وأخمدت أحاسيس الحب والود.

ولا بد أن مشاعرنا ستتحول بعد ذلك من الغضب من الناس إلى الشفقة عليهم، وستتحول من الرغبة في رد الصاع صاعين إلى السعي لاحتواء الموقف ومحاولة مساعدة أولئك المساكين في استعادة ثقتهم بأنفسهم واسترجاع توازنهم النفسي والعاطفي.

* * *

والواقع أن لكل إنسان كرامته المحفوظة عند من يحيطون به، وله مزاياه المعروفة، ولا ينقص منها ذكر عيوبه، ولقد قال الشاعر: "كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه"، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: "رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي"، وقال أيضاً: "لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين"، ولكن الناس يسوؤها أن تسمع النصيحة وأن تعرف عيوبها، ولو كان على سبيل الوعظ والإرشاد فهي تدافع وتدافع عن نفسها وكأننا اتهمناها بكبيرة من الكبائر!

هذه هي مشكلة الناصح الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر اليوم؛ إنه لا يجد الأذن المصغية ولا النفس الطموحة إلى الكمال والمعالي، النفس التي تسعى نحو الأفضل دائماً والتي تدرك أنها تبقى -في النتيجة- نفساً بشرية تخطئ تارة وتصيب تارات، ولا بد من إرشادها إلى عيوبها حتى تتجاوزها.

وفي خطوة أولى نحو العلاج ينبغي علينا أن نتقبل الناس كما هم حتى يتقبلونا كما نحن؛ أي ما دمنا نحن وإياهم في العيوب

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

والأخطاء سواء فلم لا نتحمل إساءاتهم (البسيطة منها على الأقل) فنجبرهم ولو أدبياً على أن يتحملوا هم إساءتنا؟ ولماذا لا نتساعد بعدها معهم لنقلل من عيوبنا المؤذية تجاه بعضنا البعض؟

فإن لم نفعل ذلك فنتقبل الناس، فإننا أول الخاسرين؛ فالناس لن ينصاعوا لنقدنا ولن يستجيبوا لأننا نقدناهم بتهجم ونصحناهم ونحن ننتقص منهم، وإنهم لن يدعونا حتى يقتصّوا منا شر قصاص. فَلِم نعرض نفسنا للمهانة؟ إنهم سيتتبعون عيوبنا كلها وسيلاحظون ما كان خافياً ويفضحونه، والواقع يثبت هذا ويؤكده، وكم سعد بعض الناس حين اكتشفوا عيوب غرمائهم الخفية! ومنهم من هرع لنشرها وإذاعتها تشفياً وانتقاماً، وطالما سمعنا مثل هذا: "تقول أني لم أحسن توجيه أولادي لأني لم أعلمهم أن إكرام الضيف واجب! فانظروا إلى أولادها إنهم يكذبون ويغشون في الامتحانات. فأينا أصلح تربية؟!"، "يقول أني مقصر في عملي لأني أتأخر أحياناً في الحضور. فانظروا إليه! إنه يؤخر المراجعين ويبطئ في إنجاز معاملاتهم. فأينا أشد تقصيراً بالله عليكم؟"

* * *

ويجب أن ننتبه إلى أننا -أحياناً- نربك الناس بنقدنا؛ فنحن ننتقد بعضنا البعض ولا نكاد نجمع على شيء، ونبدي للأمر الواحد آراء متباينة متضادة فيأتي نقدنا غريباً مضحكاً ونصحنا متناقضاً؛ أقصد أن قصة جحا مع ابنه تكرر كثيراً في الحياة، إذ انتقدوه عندما مشى وحمل ابنه على الحمار، وانتقدوه لما ركب وتركه ماشياً، وانتقدوه لما ركبا على الحمار معاً ولما حملا الحمار. فلم يبق له

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

خيار، فماذا يصنع؟

وكذلك نحن نربك من حولنا، فكل يعيب ثم ينصح على هواه، فلننتبه لهذا الأمر، ولنعلم أن الأمر الواحد يختلف حكمه بالنسبة لحال فاعله وبحسب الزمان والمكان؛ فلا توجد قواعد عامة تبين ما هو العيب وما هو الخطأ، فما يكون عيباً لدى البعض قد يكون جيداً لدى الآخرين؛ فعندنا في الشام عيب أن يأكل الناس طعام الوليمة ثم ينصرفوا، فهذا السلوك غير لائق -في عرفهم- وهو يؤذي أصحاب البيت الذين يحبون الاستئناس بضيوفهم بعد الطعام. ولكن المدعوين في بلاد أخرى ينصرفون بعد الأكل فوراً عملاً بالآية: ﴿فإذا طَعِمْتُمْ فانْتَشِروا﴾.

فلندرك هذا ولا نعِبْ على الآخرين اختلافهم. ولنجعل الشرع هو المرجع والمدار قبل أن نعيب شيئاً فذلك أقرب للتقوى، ولنراعِ الأعراف إن وافقت الشرع فنتقبل ما يصدر عن الناس بسببها.

ولنعلم -أيضاً- أن بعض الناس يكثرون من النقد المتناقض عن عمد وذلك للفت انتباه الآخرين إلى أن يكونوا مرنين طيِّعين فيقدروا للأمر قدره ويتصرفوا حسب الظروف ويتكيفوا معها، وبما أن الأحوال تتباين وتتغير فيجب أن يراعى ذلك عند التعامل معها. وكثير من الآباء والأمهات يستعملون هذا الأسلوب مع أولادهم فينصحونهم نصائح متباينة للمواقف المتشابهة على أمل أن يتعلم الأولاد حسن التصرف مع الناس في كافة الظروف والأحوال. ولكن غالب الأبناء يجدون صعوبة في تعلم هذا في البداية فيتعرضون للوم والعتاب!

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

والواقع أن التصرف بمرونة يكون أحياناً من أصعب الطلبات، لأن المرونة ترتبط بالشخصية (في مدى طواعيتها ومقدارها) ولا يمكن للمرء أبداً أن يضع شخصيته جانباً ثم يتصرف بعيداً عنها فهذا من المحال!

إن الإنسان الكامل الخالي من العيوب غير موجود البتة، فلا يعِبْ أحدنا على الآخر شيئاً لأن فيه مثله. كما أن الإنسان لا يأمن على نفسه التحول ولو كانت معايبه اليوم قليلة معدودة، فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، فليحذر كل فرد؛ فنحن نعيب على الناس سلوكهم ونتجرأ على ذكر نقائصهم لأنها ليست فينا، وننسى عواقب المنتقم الجبار، فقد روى الترمذي: «من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله». وروى أيضاً: «لا تُظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك»، وقالت العوام: «لم يَفُتْ عيب من لم يَمُتْ». من هذا نستنتج أن المسلم الذي يعيب على الناس سوء تعاملهم سيجد نفسه يوماً يسلك سلوكهم ويتصرف مثلهم ولو احترز، فكلنا عرضة للخطأ والنسيان، وسوف يكون ألمه مضاعفاً من نظرة الناس إليه ومن عتابهم له ومن شماتتهم به:

- عابت سيدة على أم اصطحابها ولدَها إلى مسبح النساء، فأخبرتها الأم بأنه ما زال في السابعة من عمره، ولم يكن من الذين اطلعوا على عورات النساء. لكن السيدة لم تقنع بل ثارت وحاولت ثني الولد عن مرافقة أمه. وبعد سنوات رؤيت تلك السيدة في نفس المسبح ومعها ولدها الذي تجاوز الثامنة، وكان يسبح بين النساء والسيدة تشجعه بين الحين والحين حتى لا يغلبه الحياء فيعتزلهن!

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

- وتعودت سيدة أن تنتقد كل طعام تتذوقه إلا قليلاً، فتعيب الشكل والطعم وحتى الصحن الذي قدم به. وكانت ترى نفسها طاهية ممتازة وطباخة رائعة، وكان هذا حقاً فلم يتذوق طعامها أحد إلا أعجب به وأثنى عليه. وبعد سنوات أصاب طعامها النحس فلم يعد كسابق عهده، فيوماً يكون الأرز مخبوصاً، ويوماً يلتدع الطعام فيغلب عليه طعم الحريق، وبالجملة فقد افتقد طهوها النكهة المتميزة التي كانت ترافقه، والطعم الجيد اللذيذ الذي عرف به، وأصبح من النادر أن يكون طبخها مشهياً.

* * *

إن تتبع عيوب الناس يراكمها في مخيلتنا ويعظمها فننفر منهم رويداً رويداً من غير أن نشعر، حتى إذا قابلناهم فجأة أظهرنا لهم الجفاء بلا إنذار، فيتعجبون من تغيرنا معهم ولا يعلمون ما الذي فعلوه، الأمر الذي يشككهم في صحة منطقنا وسلامة عقولنا، إذ لا يتصرف بتلك الطريقة المباغتة إلا المجانين.

وقد كنت أعتقد دائماً أن الإنسان الطبيعي لا يمكن أن يكون متناقضاً في اعتقاداته وتصرفاته، وكنت أكاد أكون متأكدة من ذلك، فتبين بأني مخطئة؛ فالإنسان يكون تارة في قمة التضحية، وأخرى في قمة الأنانية، وطالما صدرت عن الكريم أفعال تدل على البخل، وطالما بدا الشجاع في بعض المواقف جباناً رعديداً. فعلينا أن نهتم بالصفة الغالبة ونتغاضى عن هذه العوارض ولا نعيبها فيهم لأنها ليست الأصل، وقد فرّ موسى عليه السلام من قومه (مع كل شجاعته وقوته) لشدة بطشهم فلا يمكن أن يسمى جباناً، وتخلف كعب

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

عن غزوة تبوك (مع عمق إيمانه) ولا يمكن أن نشك بتقواه وصدق إسلامه، وهكذا.

ولذا فربما كان من الأفضل إخفاء حياتنا الخاصة عن الناس حتى لا يتتبعوا عيوبنا الطارئة (والتي هي واقعة لا محالة)، أو يلمسوا شيئاً من عيوبنا الخفية فيتعرضوا لنا بانتقاد قد يؤلمنا ولا نستطيع تجاوزه لأنها صارت حياة يومية لنا لا يمكننا تغييرها. فكل فرد في حياته أخطاء بسيطة لا يجب الوقوف عندها، وهي غالباً لا تكون أخطاء وإنما طريقة حياة، ولكن الناس يحبون أحياناً أن يقولبوا جميع البشر في قوالبهم، فإن لم يستجيبوا لهم اعتبروا سلوكهم المخالف أخطاء ينبغي أن تصحح!

الخلاصة:

إننا نذل الناس بعيوبهم، فننتقدهم ونستغيبهم ونسخر منهم، وفي أكثرنا نفس العيوب أو جلها، ولكننا متعايشون معها فلا نشعر بها، وإذا نبهنا شخص ما إلى بعضها استغربنا وأنكرنا.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ العاشر

نغلظ في القول والسلوك

كل واحد فينا تصرف مرة أو مرات بعدوانية، أو بفظاظة، أو بلا ذوق أو تهذيب... وكثير من البشر آذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فاحتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً وسخطاً وحنقاً من كثير ممن حولهم:

- اتصل رجل بصديق له كبير في السن ورجاه أن يستقبل ولده في المطار ويرشده إلى معالم البلد الذي يزوره لأول مرة. ووفاء للصداقة ترك ذلك الرجل أشغاله وخرج مع أحد طلابه لاستقباله، فلمّا رأى الشاب ذلك الطالب أقبل عليه ونسي حتى أن يصافح الرجل الكبير أو يشكره على تكلفه الخروج لاستقباله، وأهمله طول طريق العودة فلم يوجه له كلمة... ولم يدرِ كم تألم الرجل من سلوكه.

- دعا رجل قوماً إلى طعام فاستضافهم -أولاً- في غرفة الجلوس ريثما يتم إعداد المائدة، ثم دعاهم إليها حسب ترتيب أسنانهم فقام واحد منهم يسابق المدعوين جميعاً في غير دوره (يحسب أنه أشدهم جوعاً)، فتخطى الرقاب وحشر نفسه بين المدعويين، فسكب المرق على قميص هذا وداس برجله على ذاك، ثم مضى يحشو صحنه بالطعام. وظن بأن أحداً لم يلحظه، ولكنه لم يدرك كم كان سلوكه

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

مؤذياً، وكم بدا شرهاً، وكم أثار حفيظة الحضور تجاهه.

وكثير من الشبان الصغار ينسون حق الكبار في التقدير والاحترام، وهم لا يقدرون بشاعة سلوكهم حين يجلسون في الكراسي المريحة والكبار واقفون، ولا ينتبهون لقطعهم حديث المسنين، أو إملائهم الآراء والمقترحات على من هو أعلم منهم.

* * *

وليس شيء يحبط العلاقات بين الناس كإلقاء الكلمات جزافاً وبلا تفكير. وإننا لنقلل من قيمة العبارات التي نتفوه بها ونستحقرها مع أن النبي حذرنا فقال: «وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟». وننسى أنها وإن تكن مثقال ذرة فإن الله محاسبنا عليها.

وليس يفسد علاقاتنا مع الناس شيء قدر ما تفسده ألسنتنا؛ فنحن نستهتر بمشاعر الآخرين وأحاسيسهم، وإننا لنقول الكلمة لا نلقي لها بالاً فتهوي بعلاقاتنا بالناس وتفسدها، وقد تدمرها تماماً. ونلقي أحياناً تعليقات غير مدروسة فتسقط على الآخرين كالقنابل الشديدة الانفجار لتحدث فجوة بيننا وبينهم ولتقضي على المودة والمحبة. فنحن مثلاً لا نقدر أن كل إنسان مر بتجربة جعلته حساساً من ناحية، فلا نراعي مشاعره، فقد نتحدث عن الود والرحمة بين الزوجين وعن سمو تلك العلاقة وبيننا عانس حزينة أن فاتها القطار. أو نتعرض للذة الأمومة وبيننا من هو عقيم يحاول العلاج لينجب فلا ينجح. أو نتكلم عن أهمية الشهادة الجامعية وما تحققه لحاملها من فرص، وبيننا أمّيٌّ جاهل آسف على وضعه.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وحولنا كثير من الرجال والنساء ممن يظن أنه لا يؤذي ولا يجرح المشاعر ولا يتسبب في معاناة أحد، وهؤلاء يحسبون أن تعليقاتهم الساخرة المؤذية كلمات رقيقة بسيطة لا تستوجب السخط ولا تحتاج إلى عتاب ولا بد أن تنزل برداً وسلاماً على الآخرين! وهم يعتبرون أنهم إن أبدَوا آراءهم بصراحة قاطعة في كل ما حولهم كانوا صرحاء مستقيمين، وينسون أن بخس الناس أشياءهم أمرٌ مشين ومنهي عنه في القرآن. فيقولون لهذا: "إن هندامك غير أنيق"، وللآخر: "أسلوبك في التحدث غير لبق"، وللثالث: "ثقافتك العملية ضحلة مخزية"... وليس أدل من إيذاء ملاحظاتهم أن الناس لو وجهوا لهم ملاحظة واحدة منها لغضبوا ودعوا ثبوراً، ولاعتبروا أن مثل هذه الملاحظات لا تصدر عن صديق صدوق:

- قال: "لي زميل في العمل لا يحب أن نوجه إليه أي تعليق يمس حياته الشخصية، ولو كان نصيحة مفيدة أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، وهو يجفو من يفعل ذلك. ولكنه لم يجد بأساً بأن يقول لي أمام زملائي (وأنا أنصحهم بأن يقتصدوا في نفقاتهم ومعاشهم): إنك تقول هذا فقط لأنك تمر بضائقة وديونك قد أثقلتك، ولو أعطاك الله كما أعطانا من المال لبذخت مثلنا"!

* * *

وبعض الناس يسارعون إلى إلقاء العبارات ظانّين أنهم يُضفون على المجلس جواً مرحاً، فتأتي على غير ما أرادوا لها، فلا يكون فيها شيء من الفكاهة أو المرح، بل تأتي فظة وتكون مزعجة ومؤلمة. وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، فيتكلم أحدهم الكلمة أو يسرد النكتة لا يكاد ينتبه إلى آثارها ولا يحس بوقعها، وإنها

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لتصيب مقتلاً فتهوي به، وهو لا يدري! فإننا في كثير من الأحيان لا نعلم ما فعلته كلماتنا أو تصرفاتنا بالناس، وإليكم مثالاً لكل منهما:

- استهزأت معلمة بإحدى الطالبات لأنها تميل أثناء مشيها وأخذت تسخر منها وتقلدها لتُضحك زميلاتها منها، ولم تكن الطالبة تفعل هذا إلا لأن في عضلات أحدى رجليها قصوراً بسبب إصابتها بشلل الأطفال وهي صغيرة. فكان أن ترسخ شعورها بالنقص وجعلها تتقوقع وتتحاشى الطالبات.

- أراد الطلاب أن يمزحوا مع زميلهم، فأرسلوا لموقعه على الكمبيوتر (والذي جلس أشهراً يعده) فيروساً أباده كله ودمره، ثم أخذوا يحدثون بما فعلوه فخراً وإعجاباً بخفة روحهم، ويضحكون من مصاب زميلهم، ويستهزئون من حزنه فالموضوع برأيهم بسيط!

* * *

إن الإغلاظ في القول والسلوك يولد الجفوة في تعامل الناس معنا وفي تعاملنا معهم، فينفر كل واحد من الآخر. والنفور يورثنا قسوة القلب تجاه الناس فيصرفنا -بالتالي- عن الاهتمام بهم أو بهمومهم ومشكلاتهم:

- كان الطلاب مجتمعين في باحة المدرسة يتحدثون ويضحكون عندما التفت أحدهم فجأة إلى زميله وقال: "هذا اللقاء فقط للمتفوقين الذين زادت معدلاتهم عن تسعين بالمئة، فلماذا أنت جالس بيننا؟ إنك تفسد تجانس جمعنا بوجودك معنا، اتركنا من فضلك، واذهب إلى الكسالى أمثالك"! هذا ماحدث، وأترك لكم تقدير حجم ما فعله.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

- أصاب سيدةً مرضٌ شديد، فذهبت إليها قريبتها لتساعدها في عمل بيتها. فانتقدت المريضة طريقتها في العمل، ثم لم تصبر فقامت من سريرها وأخذت تعيد ترتيب ما سبق وتعبتْ القريبة في ترتيبه! فآلت على نفسها ألاّ تساعدها أبداً، بل لم تكترث لمّا اتصلت بها في اليوم التالي لتشكو من أن مرضها قد زاد بسبب الإجهاد والحركة.

- لما توفي ابن صديقه الحميم كاد الرجل يموت غماً من أجله، وتعاطف معه أشد التعاطف لفرط ما يحبه، حتى إنه فكر أن يهبه ولداً من أولاده يتخذه سكناً! ولكن الصديق صده وأبعده بسلوكه وكلماته، فصار كمن ركض مسرعاً ثم اصطدم بحائط فخر صريعاً. وقد جعلته هذه الحادثة يتقوقع ويحذر فابتعد عن شؤون الآخرين وترك السؤال عن همومهم ومشكلاتهم خوفاً من أن يفهموا عواطفه الصادقة المتأججة فضولاً وتدخلاً فيما لا يعنيه (أو أيّ تفسير آخر يرونه) فيتأذوا هم منه ويسمع هو منهم ما يحزنه.

* * *

ومنا من يغلظ في القول أو في الفعل عن قصد وهو يظن أنه يحسن صنعاً، فيؤذي وقصده الخير والإصلاح، وهذا غير محبذ أيضاً لأنه يزيد المرء انحرافاً وبعداً عن الصواب؛ فالإغلاظ يجرح، والإنسان إذا خُدشت كبرياؤه عمي عن رؤية الحقائق واعتقد أن في تصميمه على رأيه ودفاعه عنه رداً لاعتباره، فيكابر ويلح على خطئه:

- أراد الزوج أن تُحسن زوجته التبعل وأن تكون أماً صالحة، فأخذ ينتقص من منهجها في التعامل مع أهل بيتها ويعيرها بمن يعرف من محارمه مؤكداً أنهم كلهم لا يوافقونها على أسلوبها. ولما تكرر

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

منه ذلك ولم تستطع تعديل سلوكها كانت النتيجة أن تمسكت تلك الزوجة بطريقها أكثر وحاولت أن تُبدع وتبتكر في اختلاق تعليلات لسلوكها الخاطئ ليبدو مقبولاً ومتميزاً (بدل أن تعدل عنه)! ولم تعد تؤثر فيها كلمات زوجها فقد أقنعت نفسها بهذا: أليس هو وأسرته من ينتقص منها؟ فهذا لا يعني شيئاً لأنهم جميعاً تلقوا تربية واحدة فلا بد أن تتطابق آراؤهم، فرأيهم كلهم إذن (في إدارتها لحياتها)كرأي الرجل الواحد، ولذلك فشهادتهم فيها مجروحة وليست ذات شأن لأنها تفتقد الشاهد الثاني! ثم استمرت في السلوك الذي يرضيها، ولم تعد تكترث بملاحظات زوجها.

ولا ضير في أن نوجه كلمة إلى من يستحقها أو أن نبدي ملاحظة في محلها، بشرط أن نراعي مشاعر الناس وأمزجتهم فنختار الوقت الملائم والكلمات اللطيفة المناسبة. أما التهجم والإغلاظ فإنه يباغت المرء ويدفعه إلى أن يسرع في الرد ليقلل خسائره النفسية (لأنه يتعرض للهجوم وهو لم يبدأ بحرب!)، وعندها نضطره لاستعمال كل أسلحته للدفاع عن نفسه بالحق أو بالباطل أو الاستعانة بأي وسيلة يراها نافعة، كما أننا نحفز عقله ليبتدع الحجج وليحاكم الأمور وليقيس القضايا بطرق قد تكون خاطئة.

أي أننا -بتعبير آخر- نستفز الناس أحياناً بأسلوب كلامنا وفي سلوكنا وعباراتنا، فنثير غضبهم ونحفزهم لرفض كل شيء منا، فلا يتقبلون نصحنا ونجعلهم يصرون على رأيهم الخاطئ وسلوكهم العاثر، ويستعدون لمواجهتنا وصدنا أو الإعراض عنا ولو كنا نقول الحق ونسعى خلف الأفضل والأكمل لهم:

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

– نبهتني سيدة صارحت قريبتها بفظاظتها مع الآخرين، فقالت: "يومها تخيرت عباراتي بعناية في نصحها، ومع ذلك قابلتني بعنف وغضبت مني ورفضت نصحي وأخذت تدافع عن نفسها بحجج غريبة لا علاقة لها بما نقوله". وتابعت: "فلما جاءتها أختها في اليوم التالي تعاتبها في نفس الموضوع تقبلت منها واعترفت بخطئها واعتذرت! فلما بحثت عن السبب وجدت أنها طريقة الكلام، فقد تخيرت عباراتي ولكني نسيت «الانفعال» الذي بدا في لهجتي وأسلوبي (بلا انتباه مني) فحفزها ضدي!".

فانظروا كم هي مهمةٌ اللهجةُ وطريقة الكلام وتعابير الوجه (أي العوامل المساعدة للعبارات والتي تكمل للآخرين الانطباع والإيحاء الذي نقصده بكلامنا). **وهذه كلها مُجتمِعةً لها أثر كبير في تقبلنا أو رفضنا لما نسمعه، فهي كالمؤثّرات الصوتية التي يضعونها خلفية للفِلم لتجعله مرعباً أو مشوِّقاً أو محزناً، ولطالما أفهمْنا الناسَ غير ما نقصده بسبب العجز عن استيعابها فغضبوا منا. فانتبهوا لها وكونوا على حذر لأنها تصنع الأعاجيب.**

ومن يومها فهمت هذا الدرس (وإن كنت لم أستطع تطبيقه دائماً!)، والسبب بسيط؛ فكما أننا لا نستطيع أن نرى أشكالنا وتعابير وجوهنا بلا مرآة فكذلك لا ندرك كيف هي لهجتنا في الكلام وكيف هو أسلوبنا في النقاش وفي العتاب إن لم نرَ رد فعل الطرف المقابل (الذي هو مرآة لسلوكنا أو لقولنا). فتخيروا عباراتكم وراقبوا لهجتكم وتعابير وجوهكم قدر الإمكان، فإن طباعنا ومشاعرنا الداخلية دسّاسة فهي تدير سلوكنا من حيث لا نشعر (وقد جاء في الكتاب شرح واف لهذا)، ولطالما سبقَنا لساننا فنطق بعبارات كنا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

نتمنى لو لم نتفوه بها أبداً لما أفسدته من علاقات بيننا وبين الناس.

* * *

وكثيراً ما نغلظ للناس من غير قصد. فمن أسباب ذلك أن نكون غارقين في همومنا فلا نلاحظ ظروف من حولنا، فنؤذيهم من حيث لا نشعر ولا نريد، فلنراقب ما نقوله (ولنعذر الناس -بالمقابل- إن أخطؤوا معنا وأغلظوا بفعل أو بكلام مشابه):

- فقد تعاطفتْ فتاة (تيتمت صغيرة) مع قريبة لها (مات والدها وهي كبيرة) وقالت لها مواسِيةً: "إنني أقدر مصابك، ففقد الوالد شيء أليم". فأجابتها: "إنك لن تقدري أبداً ولن تدركي إطلاقاً، فأنت لم يرعَك أب في مرضك ولم يفاجئك بالألعاب والهدايا..."، وعلّقت تلك الفتاة: لقد كنت متقبِّلة تماماً الحياة من دون أب ولم أشعر يوماً بأي نقص، ولكني الآن أشعر بمرارة قاتلة كلما تذكرت تلك الكلمات، وصرت أتساءل دوماً: ما هي الأشياء التي حُرمت منها وقد نشأت بلا أب؟

* * *

والإغلاظ في القول والسلوك مرضٌ معدٍ، فلنحذر منه حتى لا نكون قد سننّا -بفعله- سنة سيئة فنتحمل وزرها ووزر من عمل بها؛ فبعض الناس يرون أشياء لا تعجبهم (من رأي الآخرين أو ذوقهم أو سلوكهم...) ولكنهم يتأدبون ويسكتون، فإذا تجرأ واحد فيهم فقط وبدأ بالتعبير عن رأيه بصراحة زائدة اقتدى به الآخرون وشاركوه أسلوبه الفظ، فيكونون عصبة فيحزن الناس منهم أكثر ويتألمون.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ومن الناس من يقرن إغلاظه للآخرين بالسب والشتم وبذاءة اللسان، وهذا إغلاظ على إغلاظ! فيصبح أذاه مضاعفاً للناس ويزداد توترهم منه وضيقهم من سلوكه.

هذه الإساءات التي نؤذي بها الناس ولا نشعر تجعلهم يأرقون ليالي متألمين، وتشد أعصابهم أياماً وتشوشهم وتحد من إنجازهم وهم يفكرون بحقيقة ما قيل ومدى صحته، وقد يشعرون بنقص في قدراتهم لما سمعوه فيألمون، أو يحقدون فيفتشون عن طريقة لرد اعتبارهم الذي نلنا منه بسلوكنا المؤذي، أو نجعلهم غير مبالين بنا فلا يهتمون بأقوالنا ولا آرائنا ولا يجعلون لنا في حساباتهم وزناً أو قدراً.

من واجبنا ومن أبسط حقوق المسلم على أخيه أن يكف أذاه عن الناس، فينبغي أن نلجم أنفسنا قدر الإمكان. **ونحن نفعل أشياء كثيرة من أجل الناس؛ فنلبس ما يروق لهم، وننفق ونسرف في كل الأشياء لنرضيهم، فما علينا لو أتممنا جميلنا وتوقفنا عن إيذائهم؟** فطيب اللقاء وحسن الوفادة أهم للمرء من إكرامه بالطعام والشراب والهدايا.

والحق أننا نشعر بأخطائنا تجاه الآخرين في أحيان كثيرة وندرك أننا أسأنا إليهم، فنألم لما آلمناهم به، وقد يعذبنا ضميرنا مدة، ولكننا نجعل الخطأ مضاعفاً حين لا نعبّر لهم عن أسفنا وندمنا ولا نعتذر. فكيف سيدرك الآخرون مشاعرنا وهم لا يعلمون الغيب؟

وأحياناً نصد ونُبعد مَن جاءنا نادماً تائباً عن إساءته إلينا ناوياً أن يبدأ معنا بداية جديدة صادقة ودية بإغلاظنا له بالقول والسلوك، فينفر مجدداً. ولعل السبب في ذلك ما يحمله كل فرد بداخله من

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أحقاد قديمة لم يستطع التخلص منها، أحقاد نظنها في لحظة صفاء قد انتهت وماتت فإذا بها تظهر فجأة (لأقل غلطة) فتؤجج الماضي وتحيي ما ظنناه قد سقط بالتقادم فتجدد الضغائن وتعيد الخلافات:

- وقع بين شاب وقريب له خلاف باعد بينهما. وتقرباً إلى الله أراد الشاب أن يصل ما انقطع من الود فزار قريبه متناسياً خلافه معه وكان في مشاعر طيبة تجاهه، فبادره قريبه بهذه الكلمات: "انتظر، فسيأتيك من الله عقاب شديد جزاء سلوكك المؤذي مع الآخرين". وكان الشاب لا يحسن السكوت فقال له: "ولكن ما كان بيني وبينك مضى عليه زمن، وكلانا كان مخطئاً فيه، وما جاء بي إلا النية الصادقة، فلماذا تقول لي هذا الكلام الآن وقد جئتك راغباً؟"، فقال: "لأنني لا أثق بصلاح نيتك"! ونظراً لأن الشاب ضغط على نفسه ليصله كانت كلماته تلك كافية لتنفره وتبعده عنه دهراً.

الخلاصة:

للكلمة المؤذية وللغمز واللمز أثر كبير في النفس البشرية، ونحن لا نقدر -غالباً- أبعاد سلوكنا على الناس، وطالما جرحناهم وآلمناهم بكلامنا الفظ وتصرفاتنا البعيدة عن الذوق. فلننظر ماذا نقول وماذا نفعل حفاظاً على العلاقات طيبة.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الحادي عشر

نخطئ في الفهم

من أشد الأشياء التي رأيت الناس يختلفون ويتشاجرون بسببها الخطأ في الفهم. ولطالما تسبب سوء الفهم في أحقاد وعداوات وقطيعة رحم. وهو مجرد خطأ بسيط في التواصل، ولو تريث الناس قليلاً لاكتشفوه ولنجوا من عواقبه الوخيمة.

فكثير من الكلمات تحتمل في اللغة العربية معاني شتى؛ فالعين هي عين الماء، وهي الجاسوس، وهي العين التي نرى بها. والكلمات عندما تصاغ في عبارات يتضح المفهوم منها.

ولكن العبارات أيضاً قد تختلف مدلولاتها فتفهم من السياق والأسلوب، وإذا كانت مكتوبة فُهمت أيضاً بعلامة الترقيم. فلو قلت: "ما أكرمك". قد يكون سؤالاً، وقد يكون استهزاء، وقد يكون تقريراً للواقع. ومن هذا الباب قول النبي لأصحابه غداة يوم الأحزاب: «لا يصلّينّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة»؛ فقد فهمه بعض الصحابة استعجالاً لهم وفهمه البعض الآخر بمعناه الحقيقي. وكثير من اختلافات الفقهاء في الأحكام جاءت من هذا الباب.

إذن كثير من الكلمات التي نقولها والأعمال التي نعملها تحتمل

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

-على الأقل- وجهين من الاحتمالات، وقد تحتمل أكثر من ذلك لمن يسمعها أو يراها، ولا يعلم مقصدنا الحقيقي منها إلا الله وقليل من الناس. وذلك بسبب **أن بعض المظاهر تحتمل تخريجات شتى وأن التصرف الواحد يراه كل فرد بمنظار مختلف.**

* * *

كل فرد فينا يجانب الصواب -أحياناً- فيتفهم سلوك الآخرين وكلامهم على طريقته وبلا تثبّت، ثم يسمح لمشاعره وسلوكه بالتغير بناء على ما فهمه. ولسوء الفهم هذا أسباب متنوعة، أذكر منها ما يلي في محاولة للتحذير منها:

(١) **اختلاف الشخصيات؛** فالطباع الأصلية التي جُبل عليها الإنسان وولد بها لها أثر كبير على فهمه ما يراه ويسمعه:

- أرادت فتاة أن تتودد إلى صديقاتها فأرسلت إليهن بطاقة موحدة على عناوينهن على الإنترنت، وقد احتوت تلك البطاقة على صورة طريفة وتعليق قصير. ولما قابلتهن في اليوم التالي كانت ردود فعلهن متباينة: فقد شكرتها إحداهن وكانت جياشة العواطف رقيقة الوجدان على تلك البطاقة الرومانسية واعتبرتها دليلاً على المحبة التي تجمعهما (فصدف أنها كانت الوحيدة التي فهمت ما أرادته الفتاة من فكرتها). وتلقتها الصديقة الثانية (التي لا تثق كثيراً بنفسها) بعتاب شديد على هذا الاختيار الذي يفتقر إلى الوضوح، فهي لم تفهم شيئاً منه ولم تدرِ ما المقصود، فهل هو قدح في ذكائها؟ وأما الصديقة الثالثة فكانت مرهفة الإحساس فحسبت البطاقة عتاباً مبطناً لموقف حدث بينهما، فتألمت لأنها آذت صديقتها وصارت تتحاشاها حياء!

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وأما الرابعة فكانت تتوق إلى المعرفة فوجدت في كلمات البطاقة حكمة لطيفة فحفظتها وامتنت لصاحبتها لأنها أرشدتها إليها!

ومن هذا الباب الاختلاف في طريقة محاكمة الأمور، فقد **لا يدرك الفرد إلا ما يتناسب مع تجاربه وخبراته السابقة، ومع بيئته التي يعيش فيها ويستمد منها مفاهيمه**:

- في لقاء الجارات طلبت النساء من بناتهن جميعاً أن يذهبن إلى المطبخ ويتساعدن في إعداد القهوة. ففهمت الأولى أنهن يرغبن حقاً في شرب القهوة فقامت إلى المطبخ فوراً لإعدادها. أما الثانية فاعتبرت الأمر أسلوباً مبطناً لتقوية أواصر الصداقة بين البنات فاختارت فتاة تميل إليها وبدأت تحادثها. أما الثالثة فاعتقدت أنها وسيلة لإخراجهن من الغرفة ليتسنى لأمهاتهن الحديث بحرية فاغتاظت وتألمت. أما الرابعة فظنت أنه نفس الأسلوب الذي تتبعه أمها للاحتفاظ بضيفاتها أطول فترة ممكنة، فكلما هممن بالرحيل قدمت لهن القهوة فيجلسن معها مزيداً من الوقت فتسعد بصحبتهن، فتلكأت لتؤخر رحيلهن. أما الخامسة ففهمت (مما تعرفه عن جدتها) أنه أسلوب دمث لحثّهنّ على تنظيف المطبخ مما لحق به بسبب إعداد الضيافة، الأمر الذي أثار غضبها لأنها جاءت للزيارة وليس للعمل... أما السبب الحقيقي الذي دفع الأمهات إلى طلب القهوة فكان انزعاجهن من صخب البنات فصرفنهنّ لتهدأ الغرفة ويخف الضجيج!

(٢) **اختلاف اللهجة**؛ فلكل بلد عربي تعابيره ومفرداته التي تكون أحياناً خاصة به فلا يتفهم المراد منها إلا أهله:

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

- قال ولدي الصغير مرة لصبي في صفه رفض أن يلعب معه: «تصطفل»، ولما كان الولد من بلد آخر غير بلدنا ظنها مسبة فاحشة (وهي كلمة شامية معناها: "كما تشاء")، فغضب وشكاه للأستاذ. وكان الأستاذ مصرياً فلم يعرف معنى الكلمة وحسبها هو الآخر قلة تهذيب من ولدي فعاقبه بسببها. وجاءني الولد متأثراً متظلماً يبكي، ولم أعرف كيف تُحل مثل هذه المشكلات!

- في أوائل عهد الاستقدام استُقدمت معلمة سورية لتعليم البنات، فصارت تتكلم باللهجة الشامية مع طالباتها فتبدأ درسها بعبارة: "أنتن صبايا، فانتبهن"، وتنصح البنات بعبارة: "أنتن صبايا فلستن بحاجة للتوجيه". وإذا بالبنات يغضبن ويثرن. ففوجئت وارتبكت، ولما استفهمت تبين أن كلمة «صبايا» التي ترددها بكثرة على سبيل التحبب دلالتها سيئة؛ فهي لا تقال -في ذلك البلد- إلا عن البنات السيئات المسترجلات، وهي في الشام ثناء ومديح!

(٣) ونسيء الفهم **بسبب كلمات عابرة** نسمعها فنحمّلها فوق معانيها، فالحوار هو طريقة التفاهم المثلى بين البشر، والإنسان في تواصل مع إخوانه؛ يسألهم فيجيبونه، ويكلمونه ويرد عليهم. وبسبب حالتنا النفسية المتأرجحة والظروف المتغيرة السيئة المحيطة نتفوه بالكلمات أو نلقي التعليقات بناء على اللحظة التي نعيشها، فتكون وليدة الموقف، أي إننا نقولها ونمشي وغالباً ما ننساها تماماً لأنها يومية وليست ذات أهمية، ولكنها -للأسف- تأخذ أبعاداً كبيرة لدى بعض الناس فيتحسسون منها، وقد يعاتبوننا بها (وهذا جيد لأنه يتيح لنا الدفاع عن أنفسنا وتوضيح الأمور لهم)، ولكن منهم من يُسِرّها في نفسه ويحملها لنا ويبقى دهراً متأذياً منها ونحن لا ندري.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فيقول الأب لابنه بعد أن أزعجه بشيء: "اذهب، فأنا لا أريد أن أراك"، يقصد أن يختلي بنفسه قليلاً ليهدأ، فيحزن الولد ولا يقدّر أنها كلمات عارضة بل يظن أن والده اتخذ منه موقفاً دائماً. ويقول الزوج لامرأته التي أخذت تشكو له من الأولاد وقد جاء للبيت محزوناً منهكاً: "ليس الآن، أجّلي الموضوع"، يريد أن يرتاح أولاً ثم يسمع منها، فتحنق عليه لأنها تحسب أنه يريد أن يتهرب من المسؤولية ويلقيها عليها وحدها. ويقول الأخ المستعجل لأخيه (الذي يسر إليه دائماً همومه): "قل لي ما تريد بسرعة واختصار ومن غير كلام كثير"، فيحزن من كلماته تلك لأنه يفهم منها أن أخاه يعتبره كثير الكلام، وهذه صفة سيئة مذمومة، كما أنها تنفي البلاغة عنه حيث أنه يطيل الشرح بلا داع، وقد يحجم بعدها عن الشكوى إليه والتماس النصيحة منه. ولو تفكر لعلم أن الأمر أبسط من ذلك فاستعجال أخيه هو الذي جعله يطلب الاختصار، وإلا فإنه دائماً يسمع منه كل ما يود قوله ولو أطال الشرح.

(٤) **بسبب عدم التركيز**؛ فالضغوط والابتلاءات والهموم تتكاتف على الإنسان أحياناً حتى ليستغرق بها، أو يتملكه الإحباط فيفهم كل عبارة تعريضاً به، أو يذنب ذنباً فيخيل إليه أن الجميع قد اطلعوا عليه وهم يتكلمون عنه. أو يسيطر عليه النعاس، أو يشوشه الإرهاق... كل ما سبق يسبب خللاً في حال الفرد فلا يدرك ما يراه ولا ما يسمعه جيداً فتفوته أشياء فيخطئ في الفهم. فمثلاً قد **لا يتتبع الضمائر ولا يدرك على مَن تعود في السياق**:

- سمع الخال بالصدفة هذا الحوار بين ابني أختيه: "إنني لا أفهم مادة الجبر وأخشى أن أرسب فيها". فقال الآخر: "استعن بخالنا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فهذا اختصاصه، وهو يرحب بأن يشرحه لك". فقال الأول: "ولكني لا أحبه، بل أكرهه فكيف سأفهم؟". لقد كان يقصد أنه يكره الجبر لكن الخال فهم أن الهاء في «أكرهه» تعود عليه وأن ابن أخته لا يحبه، فحزن وأعرض عنه حتى جاءت فرصة لتوضيح ملابسات الحديث بعد حين.

وبسبب عدم التركيز ننقل -أحياناً- الرسائل الشفهية مبتورة أو نبدل كلمة مكان كلمة فيتغير معنى العبارة، وقد كانت والدتي تبالغ في تحذيري من هذا وتطلب مني إذا نقلت كلامها أن أنقله بحذافيره ليفهمه الناس كما أرادته تماماً.

(٥) بسبب أخطاء الآخرين وعدم إمكانية الدفاع عن النفس؛ فالتقصير في واجبات طرف يؤثر على أداء الطرف الآخر، ولكن الناس لا يتفهمون هذا ولا ينتبهون لهذا الترابط:

- فتتكرر -مثلاً- هذه الشكوى: الزوج يدعو زملاءه إلى الطعام، ثم يتأخر بإحضار لوازم الطبخ وقد يُنقص منها... فيضيق الوقت على الزوجة المسكينة وتدهمها ساعة الغداء والأكل لم ينضج بعد، وتشعر بالحياء من التأخير ومن تقديم طعام لا يليق. في حين يبدو للمدعوين أن الزوجة قد تجاوزت الموعد المحدد للوليمة إهمالاً أو استهتاراً، مما يضايق بعضهم ويؤخره عن مصالحه.

ويدخل تحت هذا الباب ما يفعله معارفنا وأحباؤنا بلا علمنا أو مشاورتنا؛ فلنعلم أن بعضهم يتطوعون وينقلون للآخرين رغباتنا قبل أن يتأكدوا منها، أو يتكفلون بالدفاع عنا بلا توكيل منا وفي أشياء لا يعرفون تفصيلاتها، أو يتدخلون بيننا وبين أقرب أقاربنا... فتكون

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

النتيجة أنهم يحدثون بلبلة وتشويشاً بما ينقلونه من صورة خاطئة مشوهة، الأمر الذي يوقع بيننا وبين الناس الخصام وسوء الفهم بسبب شبهات ما لها أساس. فلننتبه لأمثال هذا، ولنحذر نحن أيضاً فلا نتدخل بين الناس إلا بتفويض مسبق.

(٦) **بسبب جهلنا دوافع الآخرين**؛ فنحن لا ننتبه لدافع السلوك فنترجم الثبات على المبدأ عناداً، ونرى الشجاعة تهوراً، وقد نعتبر الفرد المنظم في بيته مستبداً... وكثيراً ما يُحمَد شخص حمداً في غير محله بسبب جهلنا دوافعه:

- بعد أن ملأ الشاب كأسه بالعصير وهمَّ بأن يشربه عدل عن ذلك وقدمه لابن عمه، ففرح وظن أن الأمر إكرام وتقديم له وتقدير. وما كان كذلك، إذ اكتشف الشاب أنه صب العصير قبل خض العلبة فجاء خفيفاً غير متجانس، ولم يحب أن يشربه على تلك الحالة فتظاهر بأنه يكرم ابن عمه، فأعطاه الكأس تخلصاً منه.

وكثيراً ما يُذَمّ الإنسان على عمله وهو يقصد خيراً، **فنحن نسيء الفهم في غمرة دفاعنا عن أنفسنا**؛ فبعض الناس قد لا يفهمون سلوكنا الصادق في التعبير عن الحب حباً بل يرونه مصارعة لهم على مكانتهم، وفيما نحسب أننا نعبر عن عميق مودتنا يفهمها الطرف الآخر وصاية أو تدخلاً في شؤونه فيصدنا بقسوة:

- أحبت شابة أختها وبناتها حباً جماً، وكانت تعبر عن حبها لهن بكل سبيل ممكن كرعايتهن وإطعامهن وشراء الألعاب لهن وحملهن إلى النزهات، خاصة وأن أمهن متعبة بسبب حمل جديد. لكن أختها رفضت تلك المحبة رفضاً قاطعاً، وذلك لأنها اعتبرتها

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

تعدياً على أمومتها وتجاوزاً للحدود المقبولة.

والحِيَل الدفاعية التي يستعملها الإنسان ليحمي بها نفسه لا يتفهمها الآخرون (لأنهم يجهلون دوافعه) فتسيء إليه أحياناً:

- تحمس رجل وأخذ يدافع عن آخر شاع عنه الكذب، فعلل تصرفاته وأبدى له الأعذار، وحث الناس على أن لا يتهموه قبل أن يسمعوا منه، فلعل من اتهمه كذاب، وكم في الدنيا من مظلومين. فاستغرب منه كل من سمعه وعجبوا من دفاعه عن مثله، فما له ولهذا؟ ولكنهم لو عرفوا أنه لم يكن في قوله إلا مدافعاً عن نفسه وأن فلاناً الذي يدافع عنه لا يعنيه أبداً لزال عجبهم، فقد اتُّهم ذلك الرجل زوراً بأنه يتلقى رشاوى، وروّج هذا الأمر عنه زميل يحقد عليه فشاع عنه ما هو منه بريء ودانه زملاؤه. فصار يتوقف عن الحكم على أي شخص ويدافع عنه خشية أن يكون مظلوماً (مثله) والناس يتهمونه افتراء عليه.

ومن الحيل الدفاعية تغطية الضعف ومداراة النقص بمحاولة الظهور بطريقة مرضية لائقة. فبعض الناس يرتبكون في بعض المواقف ويحاولون إخفاء اضطرابهم ما استطاعوا، ونحن قد ندرك ما وراء سلوك هؤلاء ونقدر حرجهم، ولكن الفراسة تخوننا في بعض المواقف فيلتبس الأمر علينا ولا نتفهم دوافعهم فنؤذيهم:

- حدث هذا مع فتاة خجلت وارتبكت حين جاء نسوة لخطبتها، فحاولت إخفاء ذلك بإظهار الثقة بالنفس في المشية والكلام، فصنّفْنَها متكبرة متحذلقة وأعرضن عن خطبتها.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

(٧) **بسبب التلقائية والطبيعية**؛ فأحياناً نظن أن لنا يداً على من نحبهم فلا ضير أن نتصرف معهم بأي طريقة يستدعيها الموقف، فيفهمونها استهتاراً بهم أو كرهاً لهم وتكون النتيجة استنكارهم وسخطهم:

- رتبت مرة لحفلة تعليمية لأطفال العائلة جعلتها عن الثقافة الطبية، وذهبت فقرأت عن عملية الزائدة كيف تتم ثم جهزت معدات ودمية ليجرب الصغار عليها فيتسلوا بشيء مثير يفيدهم. وتناوب الصغار على تلك الدمية وتسابقوا للتعلم فآثرتهم على ابني الصغير وقدمتهم عليه. صنعت ذلك لأنني متيقنة من حبي له وتفهمه لدوافعي، ولكنه بدل أن يتفهم تأثر مني غاية التأثر وفهم (بل تأكد) أنني أحب الجميع أكثر منه وأنني أفضلهم عليه!

(٨) **بسبب الثقة الزائدة بالقدرة على الفهم!** فنظن أحياناً بأننا أذكياء وقادرون على فهم سلوك الآخرين وتوقع ردود أفعالهم، ويتبين بعد ذلك كم كنا بعيدين عن الحقيقة وكم جانبنا الصواب:

- فهم رجل أن شكوى أمه المتكرر من ضعف سمعها ما هو إلا محاولة منها للفت انتباهه لرعايتها وزيادة العناية بها، فلم يكترث ولم يأخذها إلى طبيب للفحص. فلما حملتها جارتها إلى الطبيب تبين أنها تعاني فعلاً من ضعف شديد في السمع ولا بد من اتخاذ إجراء سريع من أجلها.

(٩) ونخطئ في الفهم أحياناً **بسبب إهمالنا الإعذار**؛ فنحن لا نلتمس للناس أعذاراً ونفهم المواقف على الوجه الأسوأ والاحتمال الأبعد، فمثلاً يحلف الرجل على زوجته بالطلاق أن لا تخرج إلى

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

دعوة صديقتها الحميمة بلا سبب واضح، أو لأمر عارض لا علاقة للصديقة به، فتُحرج الزوجة أشد الحرج من صديقتها التي لن تفهم تقاعسها عن إجابة الدعوة إلا استهتاراً بالمودة التي تجمعهما.

* * *

كلنا نعجز في النهاية عن فهم بعضنا بعضاً فهماً كافياً، أي كما نشتهي ونتمنى. وليس ذلك لقصور في ذكائنا أو مقدرتنا الاجتماعية، ولكنها طبيعة الإنسان الذي لا يستطيع الخروج من دائرة أفكاره وأحاسيسه وثقافته؛ فهو لا يمكنه إلا أن يفترض أن الناس مثله، يفكرون كما يفكر، ويخططون كما يخطط، ويحبون ما يحبه ويكرهون ما يكرهه. فهو يتعامل معهم على هذا الأساس وهو خاطئ، فنحن والآخرون نختلف في كل شيء كما تختلف ألواننا وأشكالنا، وعلينا أن نفهم ونتفهم هذا.

وما أقصده بالفهم هو أن يدرك كل منا أن الناس ليسوا سواء في ذكائهم ومحاكمتهم بسبب البيئة التي نشؤوا فيها والتربية المتباينة التي تلقوها، ولكل فرد -بناء على ذلك- قاموسه الخاص الذي يستمد منه الشروحات على سلوك الآخرين معه والتعليلات لها. وبالتالي فنحن نتباين في فهمنا للأمور ونختلف في انفعالاتنا تجاهها، فعلى كل واحد فينا أن يعي هذا تماماً، وله -من بعد- أن يقتنع بما يفعله الآخرون أو لا يقتنع، أن يتعاطف معهم أو ينفر منهم، فهو ليس مجبراً على الانسياق وراءهم وتقليدهم، ولكن الإسلام يجبره على أن يراعي الناس في مشاعرهم وإنسانيتهم وبيئاتهم وأولوياتهم ولو لم يرها مقنعة، لئلا يؤدي عكس ذلك إلى مشكلة أو قطيعة.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وحتى نراعيهم علينا أن نفهم كيف يفكرون، فلا نزن الناس كلهم بنموذج واحد هو منهجنا ولا نقيسهم على عوالمنا وشخصياتنا، بل علينا أن نتقبل أنه لا بد من الخلاف والاختلاف، فلذلك خلقهم. وما علينا هو تقبل سوء الفهم ومحاولة الحد من آثاره السلبية بتعميق فهمنا للآخرين، والانتباه لخفايا النفس البشرية، فنخفف من خطر الخطأ في الفهم.

إن الإنسان أعمق من مظهره البريء الذي يبدو به، فهو كتلة من الأحاسيس والمشاعر المتداخلة والمعقدة التي يصعب فهمها حتى عليه نفسه، فهو يستغرب أحياناً لماذا تصرف بهذه الطريقة ولماذا علق بمثل هذه الكلمات... أفنطمع أن نفهم سلوك الآخرين -إذن- ونحن نعجز عن فهم أنفسنا؟ خاصة وقد أعلن المختصون في هذا المجال أن السلوك الإنساني من المسائل التي يصعب تفسيرها.

ولكن محاولة فهم الآخرين أمر ضروري جداً بالقدر الذي يلزم للتعامل معهم، فلنحاول تفهمهم بقدر استطاعتنا، فإن أغلب متاعب بني آدم سببها: النقص في فهم الآخرين، أو الخطأ في فهم دوافع الآخرين.

والخلاصة:

للكلمات والعبارات والتصرفات مدلولات شتى، ولكننا لا نتريث ولا نستفهم، وبسبب اختلاف نشأتنا وطباعنا وتأثير الظروف علينا نخطئ في فهم بعضنا البعض في مواقف كثيرة، وقد نتخاصم أو يجفو بعضنا بعضاً بسبب ذلك.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الثاني عشر

نكثر من اللوم والعتاب

المخطئ يلومه كل امرئ إلا نفسه، ويبحث عن أقرب فرد ليحمله المسؤولية؛ إنها الطبيعة الإنسانية! ومن الناس من يكون على استعداد لتحميل فرد واحد وزر سلسلة من الأخطاء لينجو هو أو من يحب من الناس. وإليكم هذه القصة الغريبة:

- سَلّم الأب ابنه الشاب أوراقاً مهمة (لا يملك نسخة أخرى منها) وطلب منه أن يُجري بها معاملة ضرورية، فحملها الابن وذهب بها أولاً إلى بيت ابن عمه (الذي كان يعتزم السفر) ليودعه ومن ثَمّ يمضي إلى الدائرة، ولكنه انشغل بأحاديث الوداع فنسي ما كُلف به ونسي الأوراق ورجع إلى بيته! وفيما كان ابن عمه يستعد للخروج إلى المطار وقد ضاق عليه الوقت وجد الأوراق، ولكن لم يكن لديه وقت لإعادتها لابن عمه أو الاتصال به، فأعطاها لعمته (التي تقيم معه) ورجاها أن تسلمها له تسليم اليد لأهميتها، فوضعتها في مكان أمين لتفعل ثم نسيتها تماماً. وبعد مدة تفقد الأب الأوراق فلم يجدها عند ابنه، وظل ولده يشحذ ذاكرته ليتذكر ما فعله بها بلا جدوى. حتى عاد ابن العم من سفره وشرح ما حدث.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أتدرون ما الذي فعله الأب عندما عرف الحقيقة؟ لقد اتهم ابن أخيه فقط واعتبره المسؤول الوحيد عن فقدها هذه المدة لأنه لم يأتِه بالأوراق حين وجدها! فهو لم يَلُمْ نفسه أبداً لأنه ترك أوراقاً مهمة مع ابنه الشاب الذي لا يتحمل المسؤولية، ولم يُلقِ اللوم على ابنه لأنه أهمل الأوراق وتركها في بيت ابن عمه وفوقها نسي أنه نسيها (فابنه بضعة منه). ولم يُلقِ اللوم كذلك على العمة التي نسيت دفع الأمانة التي تُركت عندها لأصحابها (فهو يحبها فعذرها). بل ألقى اللوم كله على ابن أخيه. وفوق هذا حرّض والده عليه فتلقى المسكين عتاباً شديداً وحكماً بحجب الثقة عنه!

والحياة زاخرة بمثل هذا، فالناس -مثلاً- يلوم بعضهم بعضاً على عدم السؤال والاتصال لمعرفة الأخبار والاطمئنان عن الصحة والحال (وهم في دعة وفي أحسن حال)، ثم هم لا يبادرون ولا يتصلون بالمريض أو المصاب ليتفقدوه ويقوموا بواجبهم نحوه، وأمثال ذلك.

* * *

ونحن لا نكتفي بلوم الآخرين على أخطائنا، بل نلومهم على أمورهم الخاصة ونكثر من عتابهم على كل ما نعتبره خطأ في حياتهم. وإنا لنستهجن -أحياناً- سلوك الآخرين ونجد تصرفاتهم غريبة غير مبررة ونرى أفعالهم غير مدروسة لأننا لا ندرك الحيثيات التي تكمن خلف الأعمال التي يقومون بها. وهذه الحيثيات عديدة ومختلفة، ولو علمناها لأدركنا أن غالب أفعالهم ليس عشوائياً وإنما هو صادر عن تجربة أو عن ظرف طارئ، فهو منطقي ومقبول. نحن -باختصار- لا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

نقدر أوضاع الناس وخفايا حياتهم:

- أعرف أماً كانت تحب أن تربي أولادها على أحسن حال، فَقَستْ قليلاً على الكبير ليكون قدوة لإخوته جميعاً، وإذا به ينطوي على نفسه بسبب قسوتها عليه. وظنت الأم أنه عارض وينتهي، لكنه استمر وصار مرضاً، وحاولت الأم علاجه فلم تفلح، وتراجعت عن قسوتها فلم ينفع. فتألمت واعتبرت نفسها مجرمة، وكان رد فعلها أن تساهلت كثيراً مع إخوته في أسلوبها التربوي (وليس في التوجيه وتلقين المبادئ) خشية أن يتكرر الأمر معهم. ولكن الناس حسبوا لينها ضعفاً وعاطفتها دلالاً مفسداً، وبالغوا في لومها وحذروا من اتباعها في سلوكها. وهي غير قادرة عن الدفاع عن نفسها، إذ ليس من الحكمة أن تفشي سرها لكل فرد حتى يعذرها، فالضرر من وراء هذا أعظم من الفائدة التي ستعود عليها، ولو علم الولد بهذا لازداد انطواء وللازمه الاكتئاب أيضاً.

- وتنكرت سيدة لصديقتها الحميمة بعد انتهاء الحفل فلم تحملها إلى بيتها في سيارتها ومعها فضل ظهر، وكان الوقت متأخراً ولم يكن لتلك الصديقة من يحملها، فبدى للجميع أن هذا السلوك مخالف للخلق الإسلامي وللنخوة المطلوبة. فلما أسررتُ في أذنها أن تفعل شرحتْ لي الموقف فتعاطفت معها؛ فقد تبين أن زوج تلك السيدة (وهو السائق) يستعجل العودة إلى البيت بسبب صداع شديد ألمَّ به وبيت الصديقة بعيد، كما اتضح أن زوج الصديقة تلك يتملص دائماً من حملها ويتركها تتكسب الحمل من هذه وتلك، وما يفعل ذلك إلا كسلاً وتهرباً، وهو يفعله مع أولاده أيضاً فيتركهم عالة على جيرانه ليحملوهم معهم إلى المدرسة كل يوم، الأمر الذي كان

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

يتسبب في الفوضى والتأخير، فكان لا بد من وقفه عند حده ليقوم بواجبه ولا يضر بالآخرين.

فهذه بعض أعذار الناس في سلوكهم. ونحن غالباً ما نسلك سلوك أولئك الذين ننتقدهم عندما نمر بظروفهم، فنفعل ما تمليه علينا الأحوال ثم نبرر لأنفسنا. فلماذا نلوم غيرنا؟ إننا -كما نبرر أفعالنا ونقدر ظروفنا- فإن الناس بشر مثلنا لهم منطقهم وحججهم، فعلينا أن نبرر أفعالهم. وليتذكر كل واحد منا أنه قصر يوماً لأنه كان مشغولاً والناس مثله ينشغلون، وليتذكر أنه تعب يوماً فتقاعس والآخرين يتعبون، وأنه نسي واجباً والناس مثله ينسون... فلا يبالغ في لومهم ومعاتبتهم.

وإن النبي لم يَلُمْ خادمه على أمر ولم يقل له لِمَ فعلت وهو خادم، فكان يتقبله كما هو، وما وظيفة الخادم إلا أن يتصرف وفقاً لمشيئة سيده وأن ينفذ رغباته، فكيف نلوم نحن بعضنا البعض وليس لواحدنا يد على الآخر؟

* * *

إننا نلوم الناس لأننا نزنهم بميزاننا ونقيسهم بقدراتنا وشخصياتنا، وهذا خطأ:

- أعرف رجلاً كذلك؛ فهو يشعر بالاستقرار النفسي لأنه سعيد في زواجه، وعلاقاته مقبولة مع كل من حوله، وحالته المادية جيدة. فهو بالتالي لا يدرك معنى الحرمان ولا يتعاطف مع حاجة الإنسان للتقدير ولأن يكون شيئاً مذكوراً، ولذا فهو يلوم كل من يحاول أن

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

يتجاوز نقصاً ما في حاجاته. ولأنه ذو إرادة استطاع قهر رغباته ونجح في تسيير شخصيته نحو الأصلح. ولكن المشكلة أنه حسب الناس مثله، فهو يلوم كل من ضعفت إرادته، ويتخلى عن كل من عجز عن اتباع الحق بعد أن عرفه، وهكذا. فهو يقهر نفسه للإخلاص في عمله وإن تقاعس الآخرون، ولكنه لا يُقدِّر أن بعض العاملين قد يعجزون عن هذا لضعف فيهم أو لأسباب أخرى.

* * *

وكم يكون اللوم مؤلماً وقاسياً عندما يتكبر اللائم على المَلوم ويظهر له أن خطأه جسيم، وأن خطأه بَيِّن لدرجة أن الطفل الصغير لا يقع في مثله، فكيف يقع فيه وهو عاقل كبير؟ وأعجب ما في ذلك أن من يلوم بهذه الطريقة سرعان ما يقع هو في مثل ما لام عليه، فيربكنا ولا ندري أينا على صواب وما هو الرأي الحكيم: ما نصحَنا به أم ما يفعله هو أمامنا؟ ونحتار كيف نتصرف من بعد لنكون على الطريق السوي:

- فقد أنبت أم ابنتها بشدة وقالت لها إنها قد أهانت نفسها لأنها زارت بيت عمها وهي تعلم أن زوجته لا تريدها ولا تحبها (هي وأهلها). ولم تقتنع الأم بأن الأولاد لا علاقة لهم بمشكلات الكبار خاصة وأنهم يحبون بعضهم البعض. وبعد يومين اتصلت الأم ببنات العم لتطلب منهن أن يأتين لمساعدتها في طبخ طعام وليمة تعد لها! ثم اتصلت بعدها لتطلب منهم أن يعيروها كتاباً تحتاجه!

- ولام شاب صديقه لأنه وهب أخاه شيئاً ثم استعاده منه معللاً أن هذه هبة والهبة لا يجوز استردادها، ولو كانت عن طيب نفس

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

من الموهوب (فهذا ما جاء هذا في الحديث الصحيح). ثم طلب ذلك الشاب من صديق آخر له أن يعيد له مجموعة من أدوات الرسم الهندسي سبق ووهبه إياها!

كما أننا جميعاً نكذِب الكذبة ثم نصدقها، أقصد أننا لشدة ما نبرر لأنفسنا نقتنع بالحجج التي أدرجناها وهي -من الأصل- غير صحيحة: فيقول إنه هاجر من بلده فراراً بدينه وتقرباً لله، وكلنا نعرف أنه سافر لتحصيل الرزق الوفير. ويقول إنه ترك التدخين تورعاً، وكلنا نعلم أن الطبيب منعه عنه...

وما سبق كله هو من أسباب إحجام الناس عن سماع النصائح، فالنفس لا يرضيها أن ترى أخطاء الآخرين بعينيها ثم تسمع اللوم يوجَّه إليها وحدها، أو أن تُعتبَر هي المخطئة وغيرها على صواب. وتملص الناس من أخطائهم الكبيرة الواضحة التي يراها الجميع ولومهم الآخرين على الصغيرة والكبيرة يُفقد المَلومين الثقة بمصداقية اللائمين وكل ما يخصهم، فلا يتقبلون منهم شيئاً ويتأذون منهم أذى عميقاً، وقد يخشون بعدها زيارتهم أو الانفراد بهم خشية أن يتعرضوا للمزيد من اللوم.

* * *

ومن الناس من إذا رأى أخطاء الناس ظن أنه اتعظ منها فيغالي في تجنبها (خوفاً من لوم الآخرين وتخلصاً من عتابهم) فيذهب إلى الطرف الآخر في تحفظه؛ فإن وجد -مثلاً- بخلاً بالغ في الكرم والعطاء وأسرف في الإنفاق... فيقع في المحظور فيُلام. ومن الناس من يبالغ في الاحتراز من بعض الأخطاء فيركز عليها ويهتم بها

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وحدها فيقع في غيرها وهو غير منتبه؛ إذ لا يوجد غلو إلا وبجانبه حق مضيع، وبذلك لا ينجو -في النهاية- من اللوم والعتاب!

فلننتبه لهذا، ولنعتدل في حرصنا وفي ردود أفعالنا حتى لا نؤذي أنفسنا والآخرين، ولنلتزم الوسطية قدر الإمكان في سلوكنا كله، والأفضل أن لا نعبأ باللوم بقدر ما نعبأ بتحري الصواب، فاللوم واقع لا محالة، وإنما يخفف منه رضا الله لأنه وعدنا بأن يرضي الناس عنا إن اتقيناه هو وحده.

* * *

ومن أكبر الأخطاء أن نلوم من يأتينا آسفاً معتذراً. فما فائدة عتاب مثل هؤلاء وقد أحسوا بذنبهم؟ يكفينا أن نبين لهم -باختصار وهدوء- حجم إساءتهم وأبعادها ليَقدروا لها قدرها مستقبلاً. أما لومهم فإنه ينكأ كرامتهم الجريحة، فلا يتقبلون المزيد من الإهانات إذ يكفيهم ما يشعرون به من أسى. فإن لمناهم كبر الأمر عليهم وعزّتْ عليهم أنفسهم، فينقلبون على أعقابهم وينكرون اعترافهم بالخطأ ويحاولون الدفاع والتبرير.

* * *

وينبغي أن نقر -في النهاية- أن إلقاء اللوم على الآخرين طبع متأصل لدى بعض البشر، وأن آخرين يجعلونه وسيلة للهروب من المسؤولية أو عذاب الضمير.

أو هو تعويض نقص؛ فإن لام أحدهم وتهجم في لومه فللدفاع عن نفسه، وإن عاتب بغضب فثأراً للكرامة، وإن أغلظ في التأنيب

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فإثباتاً للتفوق! فعلينا -لذلك- أن ننتبه لمثل هؤلاء فلا نكترث للومهم بل نرثي لوضعهم، خاصة من يلوم مراراً على أشياء قد حدثت في الماضي السحيق ولم يعد من الممكن تغييرها.

ولننتبه أن منهم من يبالغ في اللوم حسداً، فهو ينتظر شبه عثرة ليقلل من شأن الآخرين، ومثل هذا ينبغي علينا أن نمتن له لأنه يعطينا الدليل القوي على نجاحنا وتفوقنا.

والخلاصة:

نبرئ أنفسنا من أخطائنا أو نتنصل منها، ثم نلوم الآخرين عليها! ونكثر من عتابهم على أمورهم الخاصة التي هم أعلم بها منا. حتى ليملّ الناس منا فيحجموا عن الاستفادة من تجاربنا ونصائحنا وإن كانت رشيدة.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الثالث عشر

ننكر الجميل ونجحد المعروف

هل فينا اليوم من يقدر المعروف فلا يجحده ولا يسيء إلى صاحبه؟ سيقول كل قارئ أنا هو ذاك، ولكنه لو فكر قليلاً لتذكر مواقف كثيرة لا تدل على أنه كذلك: ألم يتضايق أحدنا يوماً من والده لأنه طلب منه أن يشتري له دواءه (وهو مستعجل العودة إلى البيت ليستمتع بوجبته وينام)؟ ألم ترفع إحدانا يوماً صوتها على أمها وتعاتبها لأنها نسيت أن توقظها صباحاً لتلحق بموعدها؟

في الحياة مواقف كثيرة تمر علينا كل يوم، ينسى المرء فيها كل إنعام تُفُضِّل به عليه وتجعله يثور ويغضب ويعرب عن عدم رضاه (حتى ليكاد يقول -بلسان حاله إن لم يكن بلسان مقاله- تلك العبارة التي تجسد الجحود والنكران: «ما رأيت منك خيراً قط»). فما قيمة أن ينقص نومنا عشر دقائق مقابل التوقف لشراء دواء يحتاجه الوالد؟ ولماذا يلوم أحدنا والدته التي ضحت وبذلت من دون حساب على أمر هو في الأصل تفضل منها (فواجبات الأمومة ليس منها إيقاظ فتاة بالغة راشدة عاقلة، وإنما هذه مسؤوليتها وحدها)؟ أوَليس التفكير بهذه الطريقة، وهذا السلوك الرديء، لدليل على جحدنا المعروف؟ ومَن جحد المعروف العظيم الذي قدمه والداه فإنه قادر على جحد

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أي معروف ونسيان أي إحسان.

كلنا ننسى المعروف ونتذكر الإساءة مع أن هذه الصفة من الصفات التي أنب القرآن ابن آدم عليها (فهو إنْ أصابته ضراء من بعد سراء نسي وقال: لم يُنعَم عليّ قط!):

- فقد نسي رجل كل مساعدة قدمها له أخوه وكل ود ومحبة أبداهما له، وتذكر فقط أنه لم يقرضه مبلغاً يحتاجه من المال طلبه منه ذات يوم.

- ونسي الرجل ما قدمه له صديقه من خدمات يوم وصل المهجر، من تأجير بيت له، وإعارته سيارة، وتأمين عمل محترم، وإيناس وحدته، وتذكر فقط أنه رفض أن يَكْفله ليبتاع بضاعة.

الأصل أن تُذهِب الحسنات السيئات وتمحوها ولكنْ في عالمنا تُذهب السيئةُ الواحدة الحسنات الكثيرة! وإننا على استعداد لإظهار الجفاء لأقربائنا ولتقطيع أرحامنا وهجر أحبابنا لقاء إساءة (ولو صغيرة) صدرت منهم. ومنا من يهجر فوق ثلاث ولا يبالي، وما أسهل القطيعة اليوم على الناس!

* * *

وإن كنا ننسى ما قدمه الناس لنا من معروف (ونكتفي بذكر الأخطاء التي اقترفوها بحقنا) فإننا لا ننسى أبداً ما قدمناه نحن لهم من معروف، ولا تكاد تأتي مناسبة حتى يستحضر الإنسان في ذهنه سجلاً طويلاً للمواقف التي تقاعس فيها الناس عن مؤازته، بل إن بعضهم لا يفتأ يذكّر نفسه -خشية النسيان- بالمواقف التي أثّرت فيه فيحدث بها نفسه أو يذكرها على الملأ بين آن وآن. ثم يقارن بين سلوكه مع

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الناس وسلوكهم معه فيراهم مقصرين؛ وطالما تلقينا عتاباً من أقاربنا على ذلك. وهم (على الغالب) مخطئون؛ فالآخرون لم يقصّروا معهم ولكن جحد أولئك لمعروف الناس جعلهم لا يشعرون به.

* * *

وإننا كثيراً ما نستخفّ بما قدمه الناس لنا ولو كان جل مالهم وزبدة قدراتهم، وطالما سبق درهمٌ ألفَ درهم، وقد رأيناه في الناس، إلا أننا لا نشعر ولا نقدر:

- لما تزوجت إحدى الفتيات أهدتها امرأة من قريباتها مستورة الحال غطاء طاولة من قماش رخيص طرزته وزخرفته بنفسها (فكان بنسبة حالها شيئاً عظيماً)، فأخذت الفتاة تقارن هذه الهدية المتواضعة ببقية الهدايا الفاخرة التي استلمتها من بقية قريباتها، ثم أشاعت عنها أنها بخيلة شحيحة لا تريد أن تبذل شيئاً في هذه المناسبة السعيدة التي تعني لكل فتاة الشيء الكثير.

وكثير من الناس يستخفّون بما يقدَّم لهم من طعام ولو بذل صاحب البيت فيه جهداً ومالاً، ونحن نعرف نساء لو صُنعت لهن وليمة ورُصت عليها أطايب الطعام قلن للناس: "إن هي إلا وليمة عادية تتقن إعدادها كل ربات البيوت". لكنْ إن صنعت إحداهن فطيرة لضيفاتها اعتبرت ذلك منتهى الإكرام لما بذلته فيها من جهد في عجنها وتجهيزها وخبزها.

وهؤلاء يستخفّون بما يقدم لهم من معونة معنوية ولو آثرهم صاحبها على نفسه؛ فيترك أولاده ليرعى أولادهم، ويهمل نومه ليعين الناس في إصلاح ذات بينهم، ولكنهم لا يقدرون التضحيات

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ويستخفون بجهود ووقت ومال الآخرين. فإن كانوا في يوم من الأيام هم المضحين والباذلين عظّموا ما يقدمونه مهما كان بسيطاً واستمروا في احتقار جل ما يقدمه الآخرون.

* * *

وإن منا من يتنكر للناس الفضلاء المحترمين لسلوك لم يعجبه بدر منهم، أو لرأي خاص صرحوا به... فيعتبر أنهم قد زلوا زلة لا تغتفر فيسقطهم ولا يتقبل منهم شيئاً. وإني لا أفتأ أسمع بعض مَن حولي من الناس يدينون كل يوم عالماً أو أستاذاً أو قائداً أو شيخاً كبيراً فيهدرون دمه ويحكمون عليه بالإعدام (معنوياً) لأنه تصرف ببشريته فأخطأ! فينسون قدره ويستهينون بمكانته، ويرفضونه كلياً وينكرون كل ما خدم به الآخرين أو ما قدمه للناس من علم أو فكر ويتركون كل شيء يصدر عنه: فإن كان مؤلفاً نبذوا كتبه، وإن كان فقيهاً تجاهلوا فتاواه، وإن كان كبيراً في عائلتهم رفضوا نصائحه جملة وتفصيلاً... وقد يعتبرونه فاسقاً لا تُؤخَذ أقوله ولا تجوز مصاحبته.

وهذا خطأ؛ فالحكمة ضالة المؤمن وأنى وجدها فهو الأحق بها ولو صدرت من كافر، فكيف إن صدرت من المسلم؟ فلا ينبغي أن يُلفَظ الشخص كله إن بدر منه ما لا يليق، وإنما نأخذ من كلامه الصحيح ونرد الغلط، ونستهدي بالحق وننبذ الباطل، ونبقى على علاقة ودية به، ونستمر في تقدير إنجازاته التي تستحق التقدير ونشيد بفضائله ولا ننساها في غمرة تحفظنا على أخطائه. خاصة وأننا نقيس الناس بموازين قد تكون غير دقيقة (فنظنهم مخطئين أو نضخم أخطاءهم).

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وهذا الذي نراه على كبراء الناس وأعلامهم نرى له مثيلاً وشبيهاً (وإن يكن بصورة مصغرة) في حياتنا اليومية؛ وسآتيكم بمثالين خفيفين لتتضح الصورة أكثر:

- تزوجت أرملة بعد أن كبر أولادها وانصرفوا عنها فلاموها لقلة وفائها وغدرها بأبيهم المتوفى من سنين بعيدة! ونسوا فضل الأم العظيم ومكانتها التي أنزلها الله إياها وحقوقها عليهم.

- وصرح شاب على خلق ودين لرفاقه بأنه يستمع أحياناً إلى الغناء الجاد ويحب القصائد، فثاروا عليه وقاطعوه لأنه يتساهل في الدين.

* * *

ومِن الأمثلة على جَحْد المعروف ما يفعله بعض الناس؛ فنرى بعضاً منهم لا يشكرون المعروف الذي يأتيهم من غير طلب أو استشراف فيأخذونه ويقولون هو رزق ساقه الله إلينا، وينسون فضل الوسيط الذي وصلهم الرزق عن طريقه:

- سخر الله لسيدة توفي زوجها قريبات وجارات أحببنها وكن دائماً معها في مراحل حياتها يخففن عنها ويساعدنها، لكن تلك السيدة كانت تكتفي بالقول: "الله يحبني فأرسل لي من يرحمني"، فلا هي تذكر فضلهن ولا هي تشكرهن، حتى خسرتهن.

ونرى آخرين يطلبون المساعدة ويستغيثون بالناس ليعينوهم، ويحلفون بأنهم لن ينسوا لهم هذا المعروف مدة حياتهم. حتى إذا تحققت رغباتهم أو تم لهم ما أرادوا من الفوز والنجاح نسبوا ذلك لأنفسهم وتجاهلوا فضل من أعانهم، وأهملوا الاعتراف بجهود من

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ساعدهم وامتنعوا عن شكرهم.

وهذه واقعة توضح جزءاً من هذه الأفكار السابقة:

- تهيّب الشاب أن يسافر وحده للدراسة في بلد بعيد، فرجا أخاه أن يذهب معه، فاستجاب محبة له وترك أشغاله ورافق الشاب وبقي معه حتى اطمأن وزالت وحشته وأَلِفَ حياته الجديدة. ولكن الشاب لم يقدّر له ذلك المعروف؛ فقد رأى أن أخاه وإن كان قد تأخر عن عمله وخسر مالاً إلا أنه رَوّح عن نفسه بالسفر وأتيحت له الفرصة ليرى بلداً جديدة ويتخلص من أعباء الكد والعمل، فلِمَ الشكر وهذه بتلك؟!

* * *

ومِن جَحْد المعروف سلوكٌ يمكن أن نسميه «الحق المكتسب»، وهو أننا نهب الشيء مؤقتاً للناس كعاريّة، أو نُعَوِّدهم على إحسان معنوي معين في ظروف ما، فيعتبرون ذلك حقاً من حقوقهم الأصيلة ويحاربوننا للحصول عليه بشكل دائم، وإن منعناه عنهم اعتبرونا مقصّرين ومسيئين وخاصمونا:

- فقد انشغلت فتاة بالدراسة، فأعارت سيارتها خلال تلك الفترة لأخيها ليستفيد منها هو في قضاء حوائجه، ولتكتسب هي الأجر. فلما طلبتها يوماً لخروج ضروي غضب منها وقال إنه ليس تحت رحمتها لتطلب سيارتها وقت تشاء، فقد أعارتها له مدة معينة ولا يحق لها أن تسترجعها حتى يحين الأجل المضروب!

- وكثير من الناس يسافرون للعمل أو للتنزه، ثم يحلون ضيوفاً على معارفهم وأقربائهم فجأة ومن غير دعوة جاعلين من بيوتهم

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فنادق مجانية، ولا يتحرجون من طلب الطعام والشراب حتى خارج أوقات الوجبات، ويوفرون على حساب الآخرين، ولا يهمهم إن كان صاحب البيت في ضائقة أو كانت زوجته مريضة لا يمكنها القيام بأعباء ضيافتهم أو كان لديهما ظروف خاصة. ولكن إذا تم الاعتذار عن استقبالهم استاؤوا وكأنهم مُنعوا حقاً من حقوقهم الأصيلة ونسوا أن الأمر كان منة وتفضلاً منذ البداية.

* * *

ولبعض الناس قدرة كبيرة على قلب الإحسان إساءة، فيأتيهم المرء مخلصاً ناوياً العمل لوجه الله فيقلبونه عليه:

- روت لي إحدى السيدات أنها ذهبت لزيارة جدتها فوجدتها تشكو من المرض والتعب، فقامت بسرعة إلى مطبخها وأعدت لها طعاماً شهياً مغذياً، ثم عادت إلى البيت وهي تشعر بالرضا لأنها قدمت شيئاً مفيداً. فلما أبلت جدتها اتصلت بها قائلة: "لو لم تصنعي الطعام لكان أفضل فقد أفسدتِ تنظيم المطبخ ولم تعيدي الأشياء إلى أماكنها الأصلية، وأخطأتِ فاستهلكت الخضار وكنت قد حضّرتها لأصنع منها طبقي المفضل"!

وآخرون لديهم قدرة عجيبة وأعصاب حديدة ليردوا على الإحسان بأبشع إساءة:

- ظل رجلٌ بلا عمل فترة طويلة حتى وفّر له أحد معارفه عملاً في الشركة التي يدير أحد أقسامها الرئيسية، وما زال يرقيه فيها حتى جعله مساعداً مباشراً له، لكن نفسه سولت له إلا أن يكون هو مدير

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ذلك القسم، فسعى بالباطل حتى أزاح من أحسن إليه وتولى هو موقعه!

* * *

والواقع أن كثيراً من المحسنين قد امتنعوا عن الإحسان بعد الذي لقوه من جحود الآخرين ونكرانهم، وحق لهم ظاهرياً أن يمتنعوا، ولكن لو فكرنا هكذا وأحصينا من ينكر الجميل لنمنع عنه إحساننا ما وجدنا أحداً يستحق المعروف (فكل فرد أساء لنا يوماً) ولما أولانا أحدٌ حسنةً (فنحن بدورنا لم نترك أحداً من شرورنا).

كل فرد فينا بحاجة لأن يُشعِره الناس بالتكريم والتقدير والتشجيع عندما يعترفون بفضله فيقدرون ما يقدمه إليهم من معروف وينتبهون لما يبذله ويشكرونه ويتذكرون أياديه عليهم. بل إن فينا من يحتاج إلى تقدير أكبر وشكر أكثر لأنه تكبد المشاق ليتحفنا بعطائه (لقصور في قدراته أو لظروف يمر بها...)، فلماذا لا نهتم بحاجات الناس كما نهتمّ بحاجاتنا فنقدر معروفهم؟ ولماذا لا نُشبع رغبتهم بأن يكونوا شيئاً مذكوراً بأن نقدّر عطاءهم ونشكرهم على تضحياتهم بدل أن ننساها وننكرها؟

والخلاصة:

إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد، وطبعه كفران النعمة ونسيان الإحسان وتذكر الإساءة.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الرابع عشر

نقف عند التوافه والسخافات

هل تصدقون (أو أقسم لكم) أني لما تفكرت في خلافات الناس وتتبعت بدايات المشكلات رأيت أن سببها الاهتمام بصغائر الأمور، والوقوف عند السفاسف والتفاهات، ومحاسبة الناس على الهفوات.

لا تحسبوا أني أغالط. إني والله أصور الواقع، وإن أردتم التأكد من كلامي ففتشوا حولكم تروا صدقي، فانظروا كم تعرفون من الناس عدداً، واحصروا كم مشادة اطلعتم على تفصيلاتها... ستجدون أنها نشأت ونمت من مستصغر الشرر؛ فالتوافه كثيرة وهي تتراكم وتتراكم لتجعلنا ننقم على من فعلها، وتتنامى وتتنامى وتدمر علاقاتنا بالناس. فلا ينبغي لنا أن نسمح لها بالسيطرة علينا وهي لَمَم لا يحسن الوقوف عليها.

معظم أسباب الشقاق سخيفة وسطحية لو تفكرنا بها، فلا ينبغي أن تؤثر فينا وتغير مشاعرنا وسلوكنا مع الآخرين، بل علينا أن نخجل نحن الكبار العقلاء من أن تتحكم فينا مثل هذه الأشياء البسيطة. فالمفروض أننا فوق ذلك وأن الإسلام قد هذبنا ورفعنا عن

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

مثل هذه السفاسف وهذا الهبوط والانحدار، وجعل آمالنا واهتماماتنا أكبر وأعظم. فعلينا أن نتجاهل هذه الصغائر ونتناساها ولو كانت مقصودة وموجهة لإزعاجنا، خاصة وأن مثلها لا يصدر إلا عن أصحاب نفوس ضعيفة أو شخصية فارغة، وهؤلاء لا يستحقون منا الاهتمام أو الانزعاج فضلاً عن الرد، فإن الرد يعني أننا أعطيناهم أهمية وأننا حققنا لهم مرادهم بنيلهم منا، فيجعلون من ذلك فرصة لإيذائنا وتكديرنا كلما أرادوا.

ولأهمية الموضوع أود أن أوضحه بطريقة أخرى فأقول: علينا أن نتأكد ونتيقن من أن السخافات والتفاهات التي تزعجنا لا تصدر إلا عن قلب لاهٍ أو عن شخص حقود. وعلاجها -في كلا الحالين- التجاهل ومحاولة النسيان؛ فاللاهي وإن نبهناه ورجوناه أن يكف أذاه عنا فإنه سيعود، لأن هذا طبعه وهذا أسلوبه ولن يستطيع تبديله مهما كان حذراً، وإن كانت عن قصد فليس من الحكمة أن ننبه من لا يحبنا إلى نقاط ضعفنا فيستعملها ضدنا فيصيب منا مقتلاً.

* * *

ولكن علينا -في الوقت نفسه- أن نعترف بأن هذه الأشياء الصغيرة تزعج المرء وتؤذيه أكثر من الأشياء الكبيرة، فالبعوضة تدمي مقلة الأسد... نعم، هذه هي الحقيقة، ولقد قرأت ذات مرة في مجلة «المختار»: "يتحمل الناس الهموم الكبيرة أكثر مما يتحملون الصغائر لأنه من السهل أن يجلس الإنسان على الجبل، ولكن من الصعب أن يجلس فوق الدبابيس". ولكن كما يجلس الفقير الهندي فوق الدبابيس فإن أي إنسان يتدرب ويتعلم يمكنه

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الجلوس مستريحاً أيضاً؛ فيتحمل الآلام البسيطة والأحزان الصغيرة والمضايقات العابرة. والصبر لا يكون إلا بالتصبر، والحلم لا يأتي إلا بالتحلم. ولكننا نطلق العنان لأنفسنا ولا نحاول كبحها ولا الترفع بها فندعها تنزعج لأتفه الأسباب، ونكبر الأمور الصغيرة ونجعلها أداة لافتعال المشكلات وخلق العداوات.

وإني لأستحيي أن أكتب أمثال هذه القصص التي تسبب المشكلات لأنها أحقر من أن تكتب، وهي أشياء تحدث كثيراً ولا يمكن تفاديها، ولكني مضطرة لإيضاح الأمر، ولذلك سأشير إلى أشياء عامة، فمثلاً: فإذا تشاجر الأولاد (كما هو ديدنهم) تنكدت الأم وأكملت نهارها متوترة، وإذا نسي الزوج أن يحضر لزوجته وردة يوم عيد زواجهما تعكر مزاجها وخاصمته يوماً. وإن بعض الأشياء التي تفعلها الزوجات كالتأخر في إعداد الطعام مرة، وفي تحضير الأولاد للخروج أخرى، ونسيانها تقديم الشاي في موعده؛ إن بعض هذه الأمور لكفيل كل منها بإثارة غضب بعض الأزواج أو على الأقل تكديرهم بقية اليوم. وإن بعض الأخطاء البسيطة مع تكرارها (كعدم تقبيل يد الجدة مرة، وتقديم من هو أصغر منها بالضيافة عليها أخرى) لكفيل بإثارة نقمتها سنة كاملة.

هذا مع العلم بأن بعض الأشياء الصغيرة التي تزعج قد ذُكر شيء منها في الشرع ووصف لها علاج فعّال، جاء شيء منه في القرآن وآخر في السنة الصحيحة، فمثلاً: للمرء في الشرع الحق بأن يُنادَى بأحب أسمائه إليه ولكن الناس ينادونه بالألقاب التي يفضلونها هم، وللمرء أن يُوسَّع له في المجلس إن دخل غرفة مكتظة ولكن الناس تتركه جالساً عند الباب، وللمرء أن لا يتناجى اثنان بحضرته وهو

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ثالثهم ولكنهم يتناجون...

ولعل الشرع قد تعرض لهذه الأمور وبَيّنها ليحُدّ من الحزازات بين الناس قدر الإمكان، ولكن الناس يهملون اتباع هذه الوصايا فيؤذي بعضهم بعضاً، ويستحيي صاحب الحق أن يطالب بحقه فتقع المهاترات. وحتى حين يتجرأ واحد من الناس فينبه الآخرين إلى ما يسرّه وما يؤذيه (في محاولة لإقناعهم بمراعاته وتجنب الصغائر التي تزعجه) ويأتي بالدليل على أن لطلبه الصغير وجهاً في الشرع فإنه لا يستفيد شيئاً!

* * *

إن التعرض لموقف سخيف أو كلمة تافهة أمر لن يتوقف ولا يمكن أن يتوقف، فلا بد من أن نبادر الناس بشيء من ذلك (مهما حاولنا تجنبه) ولا بد من أن يبادرونا بمثله (مهما حاولوا أن يتهذبوا في سلوكهم معنا)، ولذا سيبقى إزعاج هذه الأشياء الصغيرة قائماً لنا جميعاً. فلنتقبل -إذن- صدور هذه التفاهات لأنها جبلّة فينا ولنعذر الناس لانزعاجهم من مثلها لأنها مؤذية لنا كلنا، ولنغفر لهم إذا غضبوا منها وثاروا (وإن كان بعضنا ينزعج ويغضب من صغائر لا يخطر على بال أحد قط أنها مزعجة!).

ورغم تفاهة هذه الأشياء (بالنسبة لمصائب الدنيا الحقيقية وهمومها الكبيرة) فإن علينا أن نقدر الحجم والحيز اللذين تشغلهما الصغائر في عقول وقلوب بعض من حولنا، فإن شرح لنا شخص -مثلاً- مدى تألمه (من أمر سخيف) عشر مرات، فذلك يعني أن القضية مهمة بالنسبة له وأنه يتألم فعلاً من سلوك بعينه، ومثل هؤلاء

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

علينا مساعدتهم لتجاوز الأزمة (فهم -غالباً- من الضعفاء الذين تؤثر فيهم كل هفوة)، أما الصراخ فيهم والطلب منهم بأن يكفوا عن ذكر الصغائر أو الانزعاج منها فهذا أمر عسير عليهم، إذ أنه سيساهم في تفاقم المشكلة وربما يحولها إلى عقدة يصعب حلها... فلنحاول مسايرة الآخرين فيما يثيرهم ومراعاتهم إن عرفنا طرفاً مما يضايقهم.

هذا بالنسبة لحكمنا على الآخرين إذا تعرضوا لتفاهات مؤذية، أما نحن فينبغي أن نكون أفضل من عامة الناس وأقوى، فنتحامل على أنفسنا إن وجهوا إلينا السخافات لما نرجوه من الأجر العظيم، ولأننا نعلم من الله أكثر مما يعلمون. فما لنا إلا أن نكبُر ونترفع عن الصغائر والسفاسف.

وكلما ارتفع الإنسان بخلقه عن هفوات الناس وسما بعقله عن البحث والتأمل في كلماتهم وأفعالهم وتقدير حجمها ووزنها رأى الأشياء حقيرة سخيفة لا تستحق الاكتراث بها فضلاً عن التألم منها والتفكير بها، وسيُدهَش من أن ما كان يزعجه البارحة لم يعد يعني له شيئاً اليوم، وما كان يؤرقه الليل سيجد أنه يفكر فيه لحظة من النهار ثم ينساه ويعمل لما هو أهم منه.

أقول لكم ذلك من تجربتي؛ فإنه لا سبيل ينجيكم من الأسى والألم من الصغائر إلا العلو والارتفاع، وأنا قد جرّبت أن ألمّح للناس إلى ما يضايقني في سلوكهم (من التوافه التي تهمني أنا وحدي) فلم ينتبهوا، فصرّحت لهم وشرحت بإسهاب فلم ينتهوا، فرجوتهم فلم يكترثوا، وطالما تألمت منهم -بسبب ذلك- إذ كنت أشعر بأني قد صغّرت نفسي بلا فائدة وأطلعت الناس على نقاط ضعفي بإعلان

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

مثل هذه الأمور الحقيرة ثم لم أستفد شيئاً إلا التجاهل والصمت، فقررت بعدها ألا أنزعج من هذه الأمور فضلاً عن أن أهين نفسي بالتضرع إلى الناس ليكفوا عن مضايقتي، فأجعل مسرتي وكدري بين أيديهم، إن شاؤوا أسعدوني وإن شاؤوا أغضبوني.

فإذن لا يفيد في هذا المقام إلا شيء واحد هو عدم الاكتراث، وساعتها ينتصر المرء على نفسه فلا ينزعج ويريح من حوله من رجائه وطلباته.

* * *

أما لماذا يتجاهل بعض الناس رغباتنا البسيطة ولا يسعدوننا بتحقيقها؟ فذلك لأننا مختلفون في أمانينا، وهذه هي الحياة؛ فرغباتنا قد تختلف عن رغباتهم أو تتعارض معها تماماً، فيفضلون الاستجابة لرغابتهم ويهملون رغباتنا؛ فما أحبه أنا من التحف قد تعتبره أختي قبيحاً فتهديني حسب ذوقها لأنها تراه أجمل! وما تفضله البنت من اللباس قد لا تشتريه لها أمها لأنه برأيها غير مناسب لعمرها...

ويتجاهل الناس -أيضاً- رغباتنا لأن أولوياتنا متباينة فالأمر الذي يسعدني جداً قد يراه الآخرون حقيراً، وما يراه أبي مهماً قد تراه أختي سخيفاً، وما يؤذي زوجي جداً ويؤلمه قد أجده أنا شيئاً بسيطاً... ومهما شرحنا لبعضنا البعض فكل واحد فينا سيلقي ما سمعه من رغبات الآخرين في ذاكرته المهملة وينساها تماماً، ثم سيتصرف معهم وكأن رغباته هي رغباتهم وذوقه هو ذوقهم، وأولوياته هي نفس أولوياتهم. والشكوى إلى الله!

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

رغم ذلك أنصحكم بألا تبتئسوا لعدم استجابة الناس لرغباتكم البسيطة! فقد اكتشفت بالتجربة أن رغباتنا التي نراها اليوم مهمة ونريد من الناس أن يستجيبوا لها سيأتي علينا يوم (بعد أن ننضج ونكبر) نقتنع فيه أنها كانت فعلاً سخيفة ولا تستحق الاهتمام، وسنستغرب من أننا خضنا حرباً من أجل تحقيقها. وكلما تقدمنا في العمر تتبدل رغباتنا وترتقي.

فلننظر بجدية لما نتمناه من الناس في سلوكهم معنا (من هذه الأشياء التافه) فلعله لا يستحق الثمن الذي سنبذله من أجله والخسارة التي ستعود علينا في علاقاتنا معهم بسببه. وأنا أعرف أشخاصاً ندموا على أمور سعوا عليها لتتغير وتمنوا لو أنهم تركوها على حالها، إذن لكان أفضل، ولكنهم أفسدوا حياتهم وعلاقاتهم بتخطيطهم السيء واستعجالهم بعض الأمور.

* * *

ولشدة اهتمام الناس بالصغائر لم يعودوا يرون الكبائر، فهم يهتمون بظواهر الأمور ويدَعون بواطنها، ويعالجون عوارض المرض ولا يجتثون العاهات من جذورها، ولذلك هم يختلفون كل يوم ويتشاجرون على الأمر الواحد عشر مرات، ولو أنهم تعمقوا لوجدوا أن الصغائر تنتج عن طبع واحد في بعض الأحيان، وهي موجودة في سلوك كل إنسان، ولو أننا تناسيناها وتعايشنا معها (كما نتعايش مع العقبات التي تصادفنا كل يوم) لنجحنا في ذلك إلى حد كبير.

إن الوقوف عند التوافه يدمرنا ويخرب مستقبلَنا؛ فلكل إنسان نواح إبداعية في شخصيته، ولديه طاقات وقدرات زوده بها الله، فإن

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

شغل نفسه عنها بتلقط واصطياد هفوات الناس خاب وخسر، وإن عمل على اكتشاف نفسه واستثمار مواهبه فاز وربح. فبعض الناس ينفقون حياتهم في تتبع ما عمله زيد وما قاله عمرو، يشغلون أنفسهم بمثل هذا بدل قراءة كتاب أو تنمية موهبة أو متابعة دراسة! ومراقبةُ السخافات والوقوف عندها يحتاج دقة وقوة ملاحظة، ويستدعي بعد ذلك وقتاً طويلاً لتحليل المعلومات وبلورة النتائج، فتكون أيام هؤلاء عليهم حسرة وندامة، إذ يحقق قرناؤهم إنجازات كبيرة ويسبقهم من هو دونهم سناً علمياً وعملياً وهم ما زالوا منغمسين في السخافات.

* * *

وما أجمل أن نجعل من التفاهات سبيلاً للتندر والفكاهة بدل الانفعال والغضب، ولا بأس أن نتعامل معها بالمرح والهدوء كما فعلت إحدى المعلمات:

- اتفقت الطالبات يوماً على أن تسعل واحدة منهن كل خمس ثوان -بانتظام- ليثرن غضب المعلمة، فأما المعلمة الأولى فقد استثارها هذا السلوك التافه فغضبت وخرجت من الحصة، فحصل للبنات ما أردن وفرحن فرحاً شديداً، ومثل ذلك فعلت الثانية. أما الثالثة فكانت أذكى وأقدر، فانتظرت عشر دقائق (مستمرة في شرح الدرس وكأن شيئاً لم يكن)، فلما وجدت أن الطالبات لم يملللن سعلت وقالت: "أنا أيضاً أستطيع افتعال السعال"! فخجلت البنات وتوقفن عن الإزعاج بسبب رد فعلها الهادئ والمتزن واستمعن إلى الدرس.

* * *

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وبعد، فإن من أعظم الجهاد المعنوي أن نتحمل ما يصدر عن الناس من زلات وهفوات وإساءات (سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة)، فلا ينبغي أن يغضب المسلم إلا لله، فإن فعل كان هو الكاسب الأول لأن هذه هي القاعدة التي قررها النبي ، بل هو ما فعله، فقد احتمل أعداءه ووسِع أصحابه وكان لهم قدوة بسمو خلقه وحلاوة معشره.

والخلاصة:

الإنسان يجعل للصغائر وزناً كبيراً ويهتم بها فتكبر في عينه، ويشغل نفسه بتوافه الأمور فيصغر وهو يلاحقها. وبالتالي تضيع حياته هدراً في الخصام والخلاف وتخريب العلاقات وتأجيج المشكلات فيخسر محبة ومساندة الناس ولا ينجز شيئاً ذا بال.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الخطأ الخامس عشر

نفتقد -أحياناً- الأخلاق الإسلامية

لقد اجتهدت (في هذا القسم من الكتاب) فجمعت ما استطعت جمعه من أخطاء نقع فيها، وبوبتها ورتبتها في محاولة للتحذير منها وتجنب الوقوع فيها. ولكن **لو استقرأنا الواقع وتتبعنا حقيقة سلوك كل إنسان (أي كيف يتصرف في حياته اليومية مع الآخرين) لوجدنا أنه يقع في بعض الأحيان في أخطاء أكبر وتجاوزات أخطر من التي ذكرتها سابقاً (بلا قصد منه غالباً) استخفافاً بأبعادها، أوجهلاً بحرمتها؛ فهو يفتقد أحياناً الإنسانية فضلاً عن الأخلاق الإسلامية في تعامله مع الناس**، الأمر الذي يؤذيهم ويخدش مشاعرهم ويسيء إساءة بالغة إلى علاقته بهم ويؤجج الخلافات والمشكلات.

فنحن أحياناً لا نرحم، ونستخف بإنسانية الآخرين، وأكثر ذلك يكون من نصيب الخدم والأجراء فنؤخر طعامهم ونُحمّلهم فوق طاقتهم ونتركهم في الحر ونستهين بمشاعرهم. وإن كنا لا نرحم ذوينا أحياناً ونقسو عليهم فنخسر محبتهم؛ فبعض الآباء يضربون أولادهم بالسياط، وبعض الأبناء يتركون والديهم بلا نفقة فقراء يتكففون الناس.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ومن الناس من يحقد ويدبر المكائد، وآخرون يتجسسون، أو ينمون أو يستغيبون، أو يغمزون ويلمزون، أو يشهدون زوراً لصالح أقربائهم، أو يخدعون ويغشون... وهذه وأمثالها كبائر شائعة جداً بين الناس، فلا يكاد يخلو من بعضها مسلم.

ولا تعجبوا! ولا تظنوا أن هذه الذنوب حكر على الفاسقين؛ فالله يحاسب على الذرة ولا يفوته مقدار قطمير، ولذا ليس شرطاً أن يشهد المرء بغير الحق في المحكمة ليكون شاهد زور. لا، أبداً؛ بل يكفي أن يكذب بأي شهادة (يترتب عليها أذى لأحد أو تستر على مخطئ) ليكون كذلك؛ فلو قال موظف عن زميله: إنه تأخر في الحضور (وهو لم يتأخر) فتسبب بتلقيه عتاباً كانت شهادة زور! ويكفي أن يستحل الزوجُ شيئاً من راتب زوجته بلا موافقتها أو يتملص رجل من دفع ثمن كتاب طلبه من صديقه ليكون كلٌّ منهما قد أكل المال بالباطل (فالأكل المنهي عنه يكون بالقليل والكثير).

وأنا أنوي -إن شاء الله- تخصيص كتاب للذنوب الكبيرة التي نقع فيها بلا انتباه منا، وريثما ييسر الله ذلك سأكتفي بالتلميح في هذه الخاتمة إلى بعض ما تبقى من الأشياء التي تفسد الود بيننا على أمل أن ننتبه إليها فندعها وننبذها، وأرجو أن يكون لذلك أثر في الإصلاح بين الناس.

فيا أيها المسلمون والمسلمات:

الإنسانية أساسها الرحمة والتكافل والتعاون، ومن هذا حب الخير للآخرين والبذل والتضحية من أجلهم. ولكن في الوجود تحدث أشياء مخالفة، وقد شهدنا أنه مهما سما الإنسان فهو في

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

النتيجة يبقى بشراً، والبشر يتصارع في داخله الشر والخير، والشيطان له بالمرصاد، والإنسان المسلم قادرعلى لجم نفسه في كثير من الأحيان، ولكنها تغلبه في أوقات أخرى وتسيطر عليه فيميل عن الحق.

إن **النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، ولذا يجب أن نعترف بأننا كلنا فكر يوماً ما بطريقة غير لائقة،** فلأسباب معينة قد يغلب السوء على تفكيرنا، ويوسف عليه السلام تعرض لمحنة فخشي على نفسه (وهو نبي) من مثل هذا فاستعاذ بالله: ﴿وإلاّ تَصْرِفْ عنّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إليْهِنَ﴾، فكيف بنا نحن؟ فنحن أكثر عرضة للوقوع في الخطأ والإثم، ولولا الإيمان لضرب بعضنا رقاب بعض! ولذلك لا نحب أن يطّلع الناس على دواخلنا. وكل منا افتقد الإنسانية في وقت ما فسوّل له الشيطان في لحظة ضعف تمني السوء للآخرين من غير أن يتعرضوا له، فنرى -مثلاً- بعض مَن أصيبوا بابتلاءات يتمنّون لو تُزاح عنهم ولو كان الثمن أن تصيب الناس جميعاً أو حتى المقربين إليهم.

ومنا من لا يكتفي بالتمني فيؤذي الناس فعلاً وعن عمد من غير أن يؤذوه، فبعض المراهقين يقرعون أبواب البيوت ويهربون! وكانت البنات في المدرسة يتفقن قبل الحصص ويرتبن خططاً لإزعاج المعلمات، فيضعن لهن المسامير على الكراسي أو يرشقنهن بالحصى الصغير، أو يفسدن عليهن الحصة بافتعال مشكلة أو بإشغالهن بأمر. ولهذا السلوك أمثلة مختلفة لأنه منتشر ومعروف:

- تخير أولاد المدرسة المشاغبون طالباً ضعيفاً غراً ليتسلوا به كل يوم: فهذا ينتقد تسريحة شعره والآخر ملبسه، والثالث مدى

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

اجتهاده ومشاركته، والرابع سلوكه. حتى جاء يوم اكتشف فيه والداه أن ابنهما قد انهار وتحطمت نفسيته. فكان وضعه مأساة لأهله، كما تكلفوا مالاً كثيراً لتطبيبه.

والنفس قد توسوس للمرء أن يتقاعس عن البذل والعطاء، أو توقع في روعه أنه مظلوم بإحسانه: فقد وقعت في هذا فتاة ظنت أن الآخرين يستغلون طيبتها وكرمها فتوقفت عن الإحسان إلى أي أحد.

ومنا من يوقع بين الآخرين من حيث يدري أو لا يدري بلفت انتباههم إلى عيوب بعضهم البعض، أو يدس بينهم عن قصد؛ فيفرق بين المرء وزوجه، وبين الأصدقاء، ويوقع العداوة بين الأقارب. وإن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق ومهمته الأولى التفريق بين ألصق الناس:

- كانت الزوجة تحب زوجها لدرجة جعلتها لا ترى عيوبه، وكانت سعيدة أشد السعادة ولم يضرها جهلها شيئاً، فزوجها رجل كريم غلبت حسناته سيئاته وكان يحبها ويبذل من أجلها. فتطوع مَن حولها بتنبيهها وإرشادها إلى أخطائه وخصاله السيئة التي لا تفيدها معرفتها ولا تؤثّر على سير حياتها معه (مثل كونه غير مثقف، وغير أنيق، وغير طموح، ولا يحب الاختلاط بالناس). فأوقعوا بينها وبينه عندما لفتوا انتباهها إلى نقائصه وقلبوا سعادتها تعاسة بلا داع، مكراً وتفريقاً بينها وبينه.

* * *

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ولعل السبب الرئيسي في وجود هذه الأخطاء (وقد بينت هذا فيما سبق من الكتاب) ما يعانيه الإنسان في هذه الدنيا وما يلاقيه من صدمات وابتلاءات وعقبات، فيخزّن في لاوعيه وفي عقله الباطن رغبات يحاول أن يكبتها ومشاعر يحاول أن يخفيها أو ينساها أو يقتلها، كنقص فيه أو أفكار سيطرت عليه أو غيرة أو تطلعات وآمال أخفق في تحقيقها... فيسترها رهبة أو رغبة، أي خوفاً منها أو عليها. لكنها تثور فجأة بسبب حافز ما أو مؤثر بعينه وتخرج عن السيطرة، فيميل صاحبها إلى الانتقام من الآخرين ولو كانوا برآء بتكديرهم أو إيذائهم، فيسيء إليهم عن سابق عمد وتصميم أو باندفاع عفوي غير مقصود.

أو لعل السبب (في هذه الأخطاء) كائن في موافقة ذلك لطبيعة الإنسان، فهو لا يحب القيود ويفضل أن يكون عابثاً يتصرف على سجيته ولا يضع في حسبانه مشاعر الناس. ومع غياب التقوى، والاستهتار بما أمر به الشرع من الخلق الفاضل، وانحسار القيم من مجتمعاتنا، وغياب التوجيه الجيد؛ مع هذا كله وجد المسيء من يشجعه على الإساءة. والانحدارُ أسهل من الصعود ولذا إذا انجرف الإنسان في هذا الطريق وتعود على مقارفة الأخطاء صعُبَ عليه أن يعود منه فيكف أذاه عن الناس.

* * *

وقد بقيت أخطاء أخرى (أي لم ترد في الكتاب) تفسد الود بيننا وبين الناس، وهذه الأخطاء عمت بها البلوى ولذا فنحن نقع فيها ولا نقدر أبعادها، ونظنها بسيطة هينة وهي عند الآخرين مؤلمة شديدة

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الوقع؛ فهي توغر الصدرور وتكون -غالباً- نواة للشقاق والخلاف. وسأكتفي بذكر أمثلة قليلة وأدع لكم تحري الباقي منها.

فمن ذلك **الكذب**؛ بادعائنا -مثلاً- أننا لسنا في البيت، فالناس سيدركون يوماً أننا فعلناه لنتهرب منهم فيحزنون من سلوكنا. ومنه **بخس الناس أشياءهم**، فالناس يعتبرون أشياءهم بضعة منهم لأنها تدل على اهتماماتهم وأذواقهم، فإن انتقصناها بدا وكأننا ننتقص منهم شخصياً، فيتألمون وقد يغضبون ويثورون. ويساهم **الطمع** في إذكاء الخلافات، فبعض الناس يدفعهم الطمع إلى إخفاء أشيائهم واستعمال أشياء الآخرين، وهذه الحركات لاتفوت حتى البسطاء وتجعلهم يحنقون عى أمثال هؤلاء فتقع المهاترات.

وبالطبع فإن هذه الخصال السيئة لا يمكن أبداً أن تكون كلها صفات بارزة في الشخص الواحد وأن تبدو في كل موقف من مواقفه، فهذا مستحيل. ولكن في داخل كل إنسان شيئاً من كل منها، فهو يظهر أحياناً. راقبوا الناس تروا صدقي وتفهموا فكرتي؛ فنرى الإنسان ولو كان قنوعاً زاهداً فإنه يطمع في مرات قليلة، ولو كان صادقاً براً فإنه يكذب في حالات نادرة...

ولكل فرد نصيب من الخصال السيئة، فلا يخلو من بعضها إنسان (وإلا صار ملاكاً). فيكون في كل امرئ عدة صفات غير محبذة وتكون طبعاً متأصلاً فيه (أي تغلب صفة سيئة أو أكثر على كل إنسان بحيث تصير صفة ملازمة له)، فنرى في الناس من يتدخل فيما لا يعنيه، ومن يغضب بسرعة، إلخ. وبعض هذه الصفات قد تكون مقبولة وغير مؤذية، خاصة إن هذبها الإنسان وانتبه لها، إلا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أن بعض الناس تلازمهم صفات سيئة ومؤذية فيتسببون في أذى أكبر للآخرين.

* * *

وهكذا... هذا نحن وهذا بعض سلوكنا، فما رأيكم؟

ولقد قررت مرة جدلاً أن لا أصاحب إلا من يعجبني تماماً من الناس، أي بخلوّه من أي صفة شائنة أو غير محبذة، فوجدت أنني مضطرة لمقاطعة فلانة وفلانة وفلانة... لأنها ولأنها ولأنها... فخلصت إلى أني لو فكرت بتلك الطريقة وهجرت كل نفس تحمل صفة سيئة ما وجدت أحداً أصاحبه ولم يبق لي من أكلمه، فأنا لست راضية عن أحد تمام الرضا، وكل فرد يزعجني من وجهة ما.

وتيقنت أنه لو عاملني الناس بنفس الأسلوب لما وجدت أنا الأخرى فرداً يكلمني أو يسأل عني لأن الناس -بدورهم- لا يمكن أن يكونوا راضين عني تمام الرضا.

فلا بد من أن أتغاضى عنهم ويتغاضوا عني لنعيش في وئام.

* * *

أيها القراء ويا أيتها القارئات:

العلاقات الطيبة بين الناس من أهم الدعائم لدولة قوية وأمة سليمة ومجتمع متكافل، والعلاقات الطيبة أساسها الإنسانية والرحمة والتمسك بالخلق الإسلامي الفاضل. فكان هذا أول ما فعله النبي يوم قدم المدينة: آخى بين المسلمين وشجعهم على الإيثار، وأكبر هذا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

فيهم ووعدهم عليه بالأجر والمثوبة، واستمر في نصحهم وتقويمهم وحثهم على الإحسان بعضهم إلى بعض، وكانت وصاياه تحذر من الظلم وتحث على التقوى في التعامل مع الناس.

وليتنا نهتدي به لنصل إلى ما وصل إليه!

والخلاصة:

لو خرجنا من دائرة الذات، ونظر كل فرد منا إلى نفسه بمنظار محايد ورأى شخصيته كما يراها الآخرون لأصيب بالرعب، ولهاله ما سيراه في سلوكه من تجاوزات بحق الناس! وسبب هذا أننا كلنا يتصارع في داخلنا الخير والشر فنحسن ونسيء، ونقترب من الملائكة بسلوكنا أحياناً وقد نكون حيناً في تفكيرنا وأعمالنا كالشياطين.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

كيف نتخلص من هذه الآفات؟

كثير منا يستغربون ردود أفعال الناس تجاههم، والسبب كامن فيهم هم! فكيف لم يدركوه والله سبحانه وضحه لنبيه الكريم حين قال له: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضّوا مِنْ حَوْلِك﴾؟ وإننا وبسلوكنا المؤذي كثيراً ما نفضُّ الناس من حولنا ثم نستغرب من إعراضهم عنا، بل نتهمهم هم بقلة الذوق وقلة المروءة، ونحن الذين دفعناهم دفعاً للتخلي عنا! وإن الأم والأب لينفرون من ابنهما إن لم يحسن معاملتهما ويحسن إليهما، فكيف سيتحمله بقية الناس؟!

ونحن لو أنصفنا وتتبعنا أثر سلوكنا لوجدنا أننا نخطئ فنؤذي الآخرين كل يوم، ولا نستثني أحداً؛ فنحن في الواقع لا نقدر الحجم الحقيقي لما نفعله بالناس، ولو كنا مقدرين حقاً لتوجب علينا أن نقاطع نفسنا التي بين جنبينا لما تسيء به إلى الناس فتُحزنهم وتؤلمهم!

أو لعملنا عملاً أفضل فبدأنا بإصلاح أنفسنا وتهذيبها من كل تلك الآثام والآفات قبل أن نفكر بإصلاح وتهذيب الآخرين؛ فهؤلاء بَغيُهم على أنفسهم، أما نحن فإن أخطاءنا مردودة علينا وعقابها واقع لا محالة وفي الدنيا قبل الآخرة.

من حق الناس علينا أن نهتم ونعمل على إصلاح أنفسنا كما

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

نريد منهم أن يصلحوا أنفسهم. وإن اهتم أحدكم بالموضوع وتساءل: "كيف أعرف عيوب نفسي لأصلحها؟" فإن في كتاب «إحياء علوم الدين» جملة من الاقتراحات البناءة، وهي:

(١) أن يسأل شيخه عن عيوبه. وأنا أقترح أن يسأل أستاذه أو والديه فإنهما أعلم الناس به وبعيوبه وأحرصهما على مصلحته.

(٢) أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً فينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على عيوبه.

(٣) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساويا.

(٤) أن يخالط الناس ثم يتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره، وناهيك بهذا تأدباً.

هذا ما قاله الإمام الغزالي. وإن إنجاز الخطوة الأولى (معرفة عيوب النفس) يسهّل الخطوة الثانية وهي (إصلاح النفس)، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. وإليكم خطوات أخرى مساعدة:

(١) الاهتمام بتفسير الآيات والأحاديث (وكذلك قراءة الكتب الإسلامية) التي تشرح طبيعة الإنسان، وتحث على الصبر وعلى التخلق بأرفع الخصال وتبيّن أجر ذلك الدنيوي والأخروي.

(٢) ولا بد من قراءة الكتب التي تبحث العلاقات الاجتماعية بين الناس، مثل الكتاب الشهير «كيف تكسب الصدقاء» وما يماثله. وكذلك الاطلاع على كتب علم النفس البسيطة والتي تهتم بشرح دوافع الإنسان وأسباب سلوكه.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

(٣) **والقراءة في كتاب الحياة أمر مهم جداً**، فلتجارب الإنسان الخاصة في تعامله مع الناس أثر كبير في صقل شخصيته وتشذيبها ليصل إلى أفضل النتائج في تفهمه لنفسه وللآخرين، فيتوجه نحو الأفضل تلقائياً في سلوكه. وللمجتمع أثره وللبيئة أهميتها، والتنقل بين الأوساط المختلفة يبرز الفروق بين الشعوب والأفراد، ويثري المرء بزاد عظيم من المعرفة عن غوامض النفس البشرية وعن أخطائها.

هذا لنتعظ من سلوك الناس (كما قال صاحب الإحياء)؛ فتكون بشاعة بعض التصرفات عوناً لنا على تجنبها؛ فإن رأينا سوءاً في سلوك الآخرين تجنبنا تكراره. وعلينا -بدل أن نتألم من إيذاء هؤلاء الناس- أن نشفق عليهم من العواقب التي ستترتب على سوء سلوكهم، فيكونوا عظة وعبرة لنا لئلا نقع في مثل ما وقعوا فيه ولا نكون يوماً مثلهم. ويا حبذا لو جعلنا سلوك مثل هؤلاء حافزاً لنا للتقدم لا للتراجع، فبدلاً من أن نسفّ ونحذو حذو هؤلاء (في مقابلة الإقبال بالإعراض والإحسان بالإساءة) نلحظ رد فعل الناس على هؤلاء ونظرتهم لهم، فنخشى أن نكون مثلهم بالدونية وقلة احترام الناس لهم.

(٤) ويبقى البيت من أهم وسائل الإصلاح؛ فينبغي أن يُنبَّه كل فرد من صغره إلى عيوبه وأن يحاول أهله تعديلها، والبيت هو المكان الأمثل الذي يساعد المرء على التحلي بالخلق الفاضل ويحفزه ليحسن سلوكه.

(٥) التعود على محاسبة النفس، **وإلقاء اللوم عليها -أولاً- إن تعرضت لما يؤذيها**؛ ولو أن كل فرد فينا حين خلا إلى نفسه استرجع وسألها: يا نفس ويحك، بماذا أسأتِ لفلان حتى جفاك؟ ويا ترى

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ما فعلتِ بفلان حتى أساء إليك؟ وبحث وجدّ لوجد الجواب. أما لو سأل: لماذا يُفعل هذا بي؟ وما ذنبي حتى أتلقى هذه المعاملة؟ لما وجد الجواب قط!

ستسألون: وما الفرق؟

وأجيب أن الفرق عظيم، ففي الأولى يلوم الفرد نفسه ويحمّلها جانباً من المسؤولية، ثم يبحث بصدق عن سبب الشقاق ليضع يديه عليه ويصلحه من بعد. أما في الثانية فإنه يبرئ نفسه ويزكيها ويلقي اللوم على من حوله وحدهم، ومَن فعل هذا لم يعرف عيوبه أبداً وبقي يعاني من قلة محبة الناس جاهلاً السبب.

علينا -إذن- أن نحرص على صلاح أنفسنا واستقامتها (ليصلح المجتمع كله). ومن ذلك أن نهتم بكل نقد يوجه إلينا، ثم نمحصه لنميز الخبيث من الطيب؛ لأن الناس يطلقون أحكامهم جزافاً على الأغلب فيظلمون، فلنسعهم ولنغفر لهم إن أخطؤوا، ولنشكرهم إن أصابوا، ولنعمل -إمعاناً في شكرهم- على إصلاح أنفسنا.

* * *

إن أعدى أعداء الإنسان هي نفسه التي بين جنبيه وليس الناس! نعم، ولا تعجبوا. **فالإنسان هو عدو نفسه**؛ لأن النفس هي التي تصنع أعداءها أو تكوّن أصدقاءها (بحسن سلوكها أو سوئه)، فانظروا ماذا تعملون.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

المبحث الثالث

لماذا علينا أن نهتم بالناس؟
وكيف ينبغي أن نكون مع الناس؟
(نفسياً وفكرياً وسلوكياً)

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لماذا علينا أن نهتم بالناس؟

ما دامت حقيقة الإنسان مخزية كما رأينا، وشهادة ربه به غير مشجعة، فلِمَ علينا أن نهتم بالناس ونبذل من أجلهم ونتغاضى عنهم؟ ألم تحسوا مما قرأتموه في هذا الكتاب أن الإنسان لا يستحق الخير؟

والواقع أن للناس أهمية كبيرة في حياتنا، والإنسان بحاجة ماسة للآخرين، ولا يمكنه أن يعيش من دونهم، لأسباب عدة. **فعلينا أن نهتم بالناس لأننا نحن أنفسنا بحاجة للناس**، أي إنْ لم يكن من أجلهم (حباً وديانة ونخوة وتقرباً إلى الله) فمن أجل نفسنا التي بين جنبينا، والتي نحبها كما لا نحب أحداً في الدنيا. ونحن لا نستطيع أن نعيش بغير الناس لأن الله جعلنا كذلك لنتعارف، وجعلنا إخوة لنتعاون ونتعاضد. هذه حقيقة، من أنكرها وجد شاهدها في نفسه، وقد قالوا: «الإنسان كائن مدني بطبعه» مهما حسب أنه مستغن عن الآخرين. وهذا أمر معروف، ولذا كان السجن الانفرادي من أشد أنواع التعذيب.

ولكن بما أن الإنسان يحب المنافع العاجلة ويتوق إلى المصالح الوفيرة، فإني سأبين ماذا سيجني المؤمن مقابل صبره على أذى أخيه الإنسان ومعذرته:

(١) إنا إن أسعدنا من حولنا بحسن خلقنا وطيب تعاملنا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وبتسامحنا سعدنا نحن معهم! لأن التعايش السليم مع الناس يزود الفرد بحاجاته المعنوية الضرورية؛ فالإنسان بحاجة إلى تقدير الآخرين وتشجيعهم لينجح وليستمر في تقدمه والناس توفر له هذا. وتوفر له حاجته إلى المحبة فالإنسان الخلوق اللطيف المتعاون يحبه الناس ويستريحون لصحبته، ويثنون عليه فهو الرابح. وإن تحمل المرء الناس في أيام الرخاء فربما تحملوا منه أيام شدته وحفظوه في غيبته.

ونحن بحاجة إلى الناس في كل مراحل حياتنا، وبحاجة إليهم جميعاً لأنهم مختلفون في شخصياتهم وعطائهم، فلا يمكن أن نكتفي ونرضى ببعضهم، فكان لا بد من أن ننوع صداقاتنا فنجد الوفاء من هذا والنصيحة من ذاك والنجدة من الثالث فتكتمل حاجات الإنسان (كما أن لكل فرد منا تميزاً في جانب ما، وكثرة الأصدقاء تتيح للنفس أن تمتع الجميع بعطائها وأن تبذل لهم من خيرها).

(٢) وحين نجعل الناس من حولنا في مزاج جيد (بحسن تعاملنا) يبذلون أكثر، ويكونون مستعدين للتعاون ولتقديم المزيد والمزيد من العطاء، سواء في الأزمات أو أثناء الأحوال العادية، وتكون مشاعرهم أكثر حرارة ووداً وتعاطفاً معنا.

إن المحافظة على العلاقات الجيدة مع الناس والمستمرة قد تعود علينا بالنفع يوماً من دون حرمة أو تشوّف أو تخطيط، فإننا لا ندري ما تخبئه الأيام؛ فلكل فرد اختصاصه وخبراته التي قد نحتاجها يوماً، وإبقاء العلاقات طيبة يتيح لنا الاستفادة من كل ذلك. ولا أقصد أن تكون الاستفادة مجانية (أو أن نستغل الناس ونوظفهم لخدمتنا) وإنما أقصد أن المرء -إن أحسن التعامل- وجد التعاون

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

والاهتمام والود والتعاطف من الآخرين وقت الحاجة من غير أن يطلبه؛ فيتهافت الناس إلى معونته فيرشدونه ويبينون له ما يجهله، وقد يتوسطون له عند معارفهم ويساعدونه ليحصل على ما يريده. فليضع كل امرئ هذا في حسبانه ويحافظ على علاقته مع الناس.

ونحن جميعاً بحاجة لخدمات الناس هذه ولو كان بعضنا بخير وبأحسن حال (في بعض مراحل حياته) فيظن أنه لا يحتاج شيئاً من الناس وأنه يستطيع الاستغناء عنهم لجاهه أو ماله، ولكن الأيام ستثبت أنه كان على خطأ. لأن الدنيا لا تدوم لأحد، فلا يغتر بغناه الغني، ولا بقوته القوي، ولا بشبابه الشاب، ولا بصحته الصحيح، ولا يطغى بسلطانه صاحب السلطان... إنكم إن فعلتم (أي اغتررتم بالحاضر وأهملتم الناس، واستغنيتم وعاديتم بعضهم) أدرككم يوم قد تغدون فيه فقراء فيشمت بكم الأعداء، أو ضعفاء فيقهركم الأقوياء، أو عاجزين فلا تمتد إليكم يد العون، أو مرضى فلا تجدون من يعطيكم الدواء. فطوبى لمن صدق أن الدنيا دوارة، فآمن بهذه السنة وعمل لها، ومن أهملها فلا يلومنّ إلا نفسه ولا يأسيَنّ عندما يحتاج المساندة فلا يجدها والمساعدة فلا يحصل عليها.

(٣) لأن الناس الأسوياء (ونحن منهم بالطبع!) يفضلون الحياة بسلام وبهدوء وبلا مشكلات، والنفس البشرية الطبيعية تتوق إلى الاستقرار لأن ذلك يجلب لها الهناء ويوفر لها المناخ الملائم للعبادة والعمل المنتج وللاستجمام والاستمتاع بمباهج الحياة. فالطمأنينة والأمن التي توفرها العلاقات السوية الناجحة (على الأقل مع المقربين) مهمة جداً لنستطيع إنجاز أشغالنا والتفرغ لأعمالنا، وتكفينا هموم الحياة الأخرى المثبطة والعلاقات السيئة مع الأباعد.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وإذا كان من المهم أن يعيش الناس بسلام فإن الحاجة أضحت اليوم أكثر إلحاحاً، فظروف الحياة كافية لإثقال كاهل الإنسان والإسراع به إلى الشيخوخة والتأثر بالأمراض، فلماذا لا نتكفل بالناحية الاجتماعية ونحرص على إبقاء علاقاتنا مع الناس في وضع جيد، فنخفف عن أنفسنا وعن غيرنا عناء شديداً، ونتخلص من هم مزعج من هموم الدنيا؟ فالحياة قصيرة مهما طالت ، ولذا لا يفرط العاقل بها ولا يرضى بإنفاقها في العداوة والبغضاء. والوقت أعز من أن نهدره في عتاب هذا والشجار مع ذاك. وإننا إن فعلنا ذلك ظلمنا نفسنا التي نحبها، وجعلناها تفقد الاستقرار والاتزان والفاعلية والإنجاز، فتشقى.

(٤) ونحن بحاجة إلى رضا الناس لنتخلص من تأنيب الضمير ومن الشعور بالأسى والندم، ومرجع رضا الإنسان عن نفسه هو في رضا من حوله عليه، ولذا علينا أن نحذر ولا نرتكب أي خطأ بحق الآخرين لننجو من الشعور بالذنب، فكل فرد (في النهاية) له ضمير حي يؤسفه أن يؤذي أخاً له، ويرى في مثل هذا السلوك شيئاً مشيناً مرفوضاً. فالإساءة إلى الناس دليل على نقص فينا وعلى طغيان الشر على الخير بداخلنا، وهذا تدن عن الإنسانية. أو هي دليل على عقدة أو مرض نفسي، وأي واحد منا لا يحب أن يكون كذلك.

(٥) العطاء والإحسان إلى الناس وفك كرباتهم هو الذي يميز الإنسان عن بقية المخلوقات، والعطاء يمدنا بطاقة هائلة لنواصل الحياة، فهو يشعرنا باحترام ذاتنا وبأن لنا شأناً ودوراً فعالاً في هذه الحياة فيزيد من سعادتنا وتقديرنا لذاتنا:

- حدثني عمي بزهو فقال: "توقفنا أثناء سفرنا براً لملء خزان

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الوقود فرأينا ولدين قد أنهكهما البرد وأصابهما الجوع، فما كان من زوجتي إلا أنها نزعت المعاطف عن جسد أولادنا وألبستها للطفلين، كما تناولت الفطائر التي اشتريناها لعشائنا وقدمتها لهما. ثم دمعت عيناه تأثراً وتابع: لقد مرت على تلك الحادثة عشرون عاماً وما زلت أشعر كلما ذكرتها بالفخر من فعلها وأشعر بالرضا لأنني شجعتها ووافقتها".

ومن جرب إسعاد الناس وإدخال السرور إلى قلوبهم لم يترك ذلك أبداً للذته وحلاوته.

وأخيراً، علينا أن نهتم بالناس ونحسن إليهم خوفاً وطمعاً:

(٦) جاء في الدعاء: «ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا»، **فذنوبنا هي السبب -غالباً- في تسلط الظلَمة علينا، وفي قدرتهم على إيذائنا والوصول إلينا، وما من طريقة للتخلص من هذا إلا بالإحسان للناس**، فيتكفل أجر هذا العمل بدرء الإساءات المحتملة منهم وصرفهم عن النيل منا.

فلماذا لا نوفر على أنفسنا العناء والابتلاء إذا كنا لا نريد توفيرهما على الناس؟ أقصد إن افترضنا أن فينا من لا يأبه كثيراً لمشاعر الناس، ولا يحرص على حبهم، ولا يريد أن يبذل ويحسن... ألا يحرص على نفسه؟ ألا يتمنى أن يعيش في سعادة ورخاء وينجو من البلاء والمصائب؟ فإن أي مخالفة لما أمر به الله لها ثمن باهظ، فالاستغابة المستمرة قد يكون جزاؤها مرضاً عضالاً، والغمز واللمز قد يجزي الله به ألماً شديداً، وسوء الظن قد تكون عقوبته قطع الرزق. فهل تستحق المخالفات الشرعية هذا الثمن؟

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

(٧) نحن نتعامل مع الله قبل أن نتعامل مع الناس، **والإنسان يتبع أوامر الله في إحسانه إلى إخوانه، فلذا كان واجبه أن يحسن ثم ينتظر الجزاء من الله ولا يتوقعه من الناس، ومثل هذا غالباً ما يأتيه الجزاء في الدنيا**، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان، وليس شرطاً أن يأتيه الرد من نفس الشخص الذي أحسن إليه بل قد يأتيه من حيث لا يحتسب أو ينتظر:

- كانت والدتي تساعد الناس في دراستهم وتجيب عن أسئلتهم، ولم تكن تنتظر على هذا جزاء إلا من الله. فكان أن سخر الله لأختي (أي ابنتها) التي قررت متابعة الدراسة بعد انقطاع (والتي كانت في بلد بعيد) من يساعدها في فهم بعض المواد، ووفقها الله ونجحت، فكان جزاء والدتي من جنس عملها وبأسرع مما توقعت.

فالمسلم إن فرّج عن أخيه كربة فرّج الله عنه كربة، وإن دعا لأخيه بحاجة من حاجات الدنيا أو الآخرة قالت الملائكة له: ولك بمثل. وإن الإنسان برحمته للناس وإحسانه إليهم ليعوضه الله خيراً منه ورحمة، وقد جاء في الحديث: «من أراد أن تستجاب له دعوته وأن تفرج كربته فليفرج عن معسر».

وما دامت للناس كل تلك المزايا التي تعود علينا فتعالوا لنَرَ (في الصفحة التالية) كيف ينبغي أن نكون مع الناس.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

كيف ينبغي أن نكون مع الناس؟
(نفسياً وفكرياً وسلوكياً)

يجب أن نلاحظ أمراً مهماً جداً في علاقتنا الاجتماعية القريبة والحميمة، ففي مثل هذه العلاقات **نحن الذين نصنع الناس!** نعم، نحن الذين نشكّل ردود أفعالهم، وطالما بسلوكنا صنعنا وحوشاً (وعفواً لهذا التعبير) ولكن أعني أننا نصنع -أحياناً- من أولادنا وأصدقائنا وأزواجنا عدواً لنا، أو نشكل منهم شخصيات شاذة وغير سوية ومعقدة بسوء معاملتنا لهم؛ فالإنسان يستمد قيمه ومثله، ثم قوته، من البيئة التي تحيط به والناس القريبين منه ليجابه العالم الخارجي. ولكن كثيراً من الأسر والبيئات تحطم بدل أن تبني، وتسيء بدل أن تحسن، وتساعد على الانحراف بدل أن تقوّم:

- أعرف فتاة ذكية متفوقة، منّ الله عليها فدرست فرعاً علمياً ونجحت فيه بأعلى الدرجات. ثم اتجهت للعلم الشرعي، فقرأت وحدها كل ما وصلت إليه من الكتب الإسلامية. ولكنها، وللأسف، لم تكن تعرف الجيد من الفاسد؛ فقرأت كتب الحديث الضعيفة، وقرأت الكتب التي تدعو إلى ترك الرخص والأخذ بالعزائم. وظنت بعد ذلك أنها صارت عالمة، فبدأت تناقش وتجادل الناس لتحملهم على التطرف في العبادة واللباس والمعاملات، فقابلها الناس بفظاظة

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ولم يتقبلوا منها شيئاً (وهذا حقهم)؛ فقد كانت شديدة عنيفة، لا تقبل رأياً غير رأيها، ولا تقنع بدليل غير الذي عرفته. ولكن أحداً لم يبين لها خطأها ولم يكلمها بالمنطق ولم يرشدها إلى أن العلم لا يؤخَذ من الصحف ولا من أي كتاب، ولا من مدعي العلم. وكانت النتيجة أن انكفأت تلك الفتاة على نفسها واعتزلت الناس وهجرت كل شيء، فلم تنتفع حتى بشهادتها العلمية التي تفوقت بها.

- وأعرف صبياً كان يتدفق عاطفة ومحبة لأهله، وكان ذا قدرات جيدة، ولكنه لم يكن متفوقاً في دراسته، وكان بكثرة حركته يفسد أحياناً بعض متاع البيت، فكان رد فعل أمه أنها نفرت منه وصارت تكثر من ضربه وتشكو منه وتسيء إلى سمعته، حتى أبغضه كل من يعرفه. وكبر ذاك الغلام فصار أنانياً بشكل غير مقبول، وقد تجرأ وتمرد وصار يناقش ويجادل أهله ويشاكسهم، ويفتعل المشكلات، ويتسبب في الأزمات.

والنتيجة أن الأمر كما يلي: الناس (كباراً وصغاراً؛ غرباء أو أقرباء) يخطئون ولا شك، فننجرف نحن معهم ونخطئ بمعالجة المواقف المختلفة، فنغلظ في الرد عليهم، أو نتقاعس عن استيعابهم، فيكبر الخطأ ويكبر ويستحيل إصلاحه. ثم نستغرب ونسأل: "ما بال هؤلاء؟ ولماذا يتصرفون بتلك الطريقة الشاذة؟" **ونظن أننا برآء من تفاقم وضع هؤلاء لأننا إنما كنا نحاول معالجة الخطأ، والحقيقة أننا أول المتهمين لأننا عالجنا المشكلة بطريقة خاطئة فتسببنا في تفاقمها،** وساهمنا في انحراف من حولنا. إننا -في الحقيقة- مسؤولون (بسبب سلوكنا الخاطئ) عن كثير ممن أصابه اعتلال نفسي أو انحراف فكري. **فالأهل الملاصقون للفرد والبيئة بجميع فئاتها وأفرادها لها**

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أثر عظيم في تشكيل شخصية الإنسان والحفاظ على صحته النفسية وضبط سلوكه وتقويم أدائه.

وإننا -نحن البشر- لا نستطيع أن ندرك أبعاد سلوكنا ووقعه على الناس في كثير من المواقف لأننا لا نرى بصدق وإنصاف كيف نتصرف، ولا كيف نتكلم، ولا كيف نسلك.

فكيف يجب أن نكون لنتجنب الإساءة إلى الآخرين؟

في الصفحات التالية محاولة لوضع إجابة متكاملة وافية عن ذلك السؤال، وإن كنت قد حرصت على الإجابة عليه أولاً بأول في ثنايا الموضوعات لأن هذا هو هدفي الرئيسي من وراء الكتاب، فكانت مباحثه حافلة بالإشارات وغنية بالقصص التي تُبين كيف ينبغي أن يكون المرء مع الناس كل في موضعه المناسب. على أن كثرة الكلام يذهب بعضها بعضاً، كما أن الكتاب ركز على الفطرة الأصلية للإنسان التي جعلته يسيء. فكان لا بد من حصر الأسلوب الأمثل في التعامل مع الناس بخطوات محددة ونقاط واضحة، فكان هذا الفصل.

وهاكم الخطوات.

(١) نتأدب مع الناس بالخلق الإسلامي:

فهو أول وأجود وأضمن الحلول، وكل ما يأتي -من بعد- من اقتراحات ليس سوى فروع لهذا الأصل الكبير، الذي يستطيع كل مسلم أن يلتزم به إن قصد، بل هو مأمور أن يكون كذلك وإلا غضب الله عليه (فلا يسخر ولا يغمز ولا يلمز، ولا يؤذي ولا يسيء الظن...)، وأجزم بعدها أن أحداً لن يستاء ممن اتخذ الخلق

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الإسلامي له منهجاً وطريقة للتعامل مع الجميع.

وإن من أعظم ما يتخلق به المرء من أخلاق الإسلام أن يحب للآخرين ما يحبه لنفسه، وأن ينأى بهم عما ينأى بنفسه عنه.

وما أجمل أن يذب المرء عن الآخرين فإنه لا يفعل هذا إلا امرء كريم فاضل، وما أروعها من خصلة لو دافع المرء عن الناس في غيبتهم لأنه لا يقدر على هذا إلا شخص عظيم انتصر على نفسه فوقاها الشح. أما عندما يخالف المرء الخلق الإسلامي فيكون نماماً أو مغتاباً (أو أي شيء آخر) فإنه لا ينقص من قدر الناس بقدر ما ينقص من قدر نفسه! نعم هذا ما يفعله بنفسه؛ فهو الذي سيوصم بهذه الصفات حتماً فيشار إليه ويقال عنه أنه نمام أو مغتاب (أما من نم عنه أو اغتابه فقد يصدقه الناس في اتهامه له وقد يكذبونه) فهو وحده الخاسر.

وراقبوا معي الناس وستجدون أن هذه حقيقة؛ فلو أن رجلاً خلوقاً مر في الطريق فسمع شخصاً يسب ويشتم بألفاظ بشعة، أو يرفع صوته ليَصِم آخر بأنه غبي أو حقود، فإنه لن يهتم ساعتها إلى مَن تُوجَّه هذه الكلمات وما مدى صحتها، وإنما سيولي اهتمامه لمن يقولها ويستاء من قلة تهذيبه وقد يُعرض عنه. وإن كان أولاده الصغار بصحبته فسيقول لهم: إياكم أن تفعلوا مثل هذا، فهو غير مؤدب ويخالف الإسلام بعمله ويخرج عن الخلق القويم بسلوكه ويبدو عاجزاً وهو يصرخ ويزبد ويتوعد الآخرين.

(٢) نكف أذانا عن الناس:

وكف الأذى عن الناس أضعف الإيمان، أي هو أصغر الأشياء

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

المطلوبة من المؤمن تجاه أخيه، وإن المسلم الحق من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمن جاره بوائقه. فهل نحن كذلك؟

وكم أعجبني -في هذا المقام- ما نُقل عن سفيان الواسطي: "ذكرت رجلاً بسوء عند إياس قاضي البصرة (وهو تابعي) فنظر في وجهي وقال: أغزوت الروم؟ قلت: لا. قال: السندَ والهند والترك؟ قلت: لا. قال: أفسَلِمَ منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم؟! قال سفيان: فلم أعد بعدها (يعني إلى عيب أحد من الناس أو غيبته)". **وإننا كذلك؛ نترك أعداءنا يتربصون بنا، ونقضي وقتنا في تلمس المزيد من الأعداء من أهلنا وأقاربنا ومعارفنا (بإساءتنا إليهم).**

ومن كفّ الأذى معرفة حدود الذات؛ فلا نتدخل بما لا يعنينا من شؤون الناس الخاصة، ولا نتجسس عليهم، ولا نلزمهم بطريقتنا في إدارة الأمور وتنظيم الحياة.

ومنه أن نتجنب في تعاملنا مع الناس الأشياء التي تثير أشجانهم وتذكرهم بمصابهم وآلامهم (سواء بالكلام أو بالإشارات) قدر الإمكان، ولا نجابه الآخرين بمشاعرنا أو آرائنا التي قد تسبب لهم الألم، ونتخير الأسلوب الجيد اللطيف ونمس الأمور مساً رفيقاً.

(٣) نعدل في الناس:

فلا تحملنا حزازة أو بغضاء على الجور والظلم. وهذه زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت بينها وبين عائشة غيرة، ولكن ذلك لم يمنعها من الإنصاف، فلما سئلت عن عائشة يوم الإفك قالت: "يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً".

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ونحن نفهم الآخرين بما شاع عنهم، فبعض الناس عُرف عنهم أنهم قساة أو أنانيون أو بخلاء، فتسقط أعمالهم كلها في تلك الخانات وتحت هذه العناوين، ومهما حاولوا الإحسان شك الناس فيما وراء أفعالهم. فعلينا أن نتحرر من هذا القيد فندرس المواقف والملابسات كلاً على حدة، فنجعل المرء كما خلقه الله (لنعدل فيه وننصفه)؛ أي نتوقع أنه مرة يكون كريماً معطاء، وأخرى وسطاً، وفي أحيان بخيلاً. فهذا هو الإنسان؛ إنه يتأرجح بين طبعه الأصلي (الذي يحاول التغلب عليه وقهره) وبين المثالية التي ينشدها، فيكون كل يوم في شأن.

(٤) لا نحاسب الناس:

وما أسرعنا نحن إلى محاسبة الناس على عيوبهم وذنوبهم، سواء تلك التي يقصّرون فيها مع الله أو التي يؤذون بها الآخرين! فكلما خلونا إلى أنفسنا بعد يوم شاق استعرضنا ما مر في حياتنا من مواقف وما رأيناه من أحداث، ثم سارعنا إلى اتهام الناس وإدانتهم وإلصاق الصفات السيئة بهم. وقد نهى الله نبيه عن محاسبة الناس (وهو النبي، وهو المرشد والمعلم، وهو سيد البشرية)، وأعلمه أن ما عليه من حسابهم من شيء. فكيف نحاسبهم أنا وأنت؟ فلعلنا نظلمهم فنبوء بإثمنا وإثمهم.

فإن كنا مصيبين في ظننا بهم وكانوا أهل سوء (يكيدون لنا ويتربصون بنا) فهؤلاء أمرهم إلى الله، وإنهم ليسوا بضارين به من أحد إلا بإذن الله. وإن الأمة لو اجتمعت على ضرر الفرد ما استطاعت، فكيف بثلة من الأفراد الضعاف؟! فإن وصلوا إلينا

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وأضرونا بشيء فلنعلم بأن ذلك قدرنا ولم يكن ليخطئنا. وإنه لواقع بنا لا محالة، وإنما جعله الله على أيديهم، وإنه سبحانه كان سيسبب لنا أسباباً أخرى ليوقع بلاءه المكتوب علينا.

وعدم محاسبة الناس يترتب عليه أن **لا نعاتب الناس إلا على الأمر المنكر حقيقة والمرفوض شرعاً والظاهر للعيان**، وإلا فلكل فرد عذره ومنطقه في سلوكه العام. فلننصح برفق، ولا نجعل نصحنا للتشفي أو الانتقام بل نجعله قربة إلى الله ومبرة لعباده؛ فننكر ما أجمع المسلمون على إنكاره، وننتقد في الناس ما يمكن إصلاحه فعلاً أو تعديله، فننبه المخطئ لنقطة محددة واضحة في سلوكه هي سبب الخطأ، ولا نحقر شخصيته كلها ونحط من قدرها فندفعه لرفض نصحنا.

وإن كانت محاسبة الناس محظورة علينا فإن معاقبتهم على ذنوب غيرهم أدهى وأمر، فلا تزر في الإسلام وازرة وزر أخرى، وكل فرد مسؤول عن أفعاله هو وحده.

(٥) نقدر ظروف الناس ونلتمس لهم أعذاراً:

الناس متفاوتون في العلم والذكاء والمواهب، فلا نجعلهم سواء فنتوقع منهم سلوكاً موحداً، فأنى يكون لنا ذلك؟! وهذا نوع من إعذارهم. وبذلك نهون من شأن أخطاء من حولنا.

ومنه أن ندرس شخصية كل فرد بكاملها، فنرى طريقة تعامله مع الجميع. ولو أننا فعلنا لانتبهنا إلى أن طبيعة كل فرد وتجاربه ومزاجه هي التي تسوقه إلى سلوك معين، وليس دافعه هو السوء

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

والعدوان. كما أن الظروف تجبر الإنسان أحياناً على التصرف بطريقة غير مستحبة (وقد وردت تفصيلات لهذا في الكتاب).

(٦) نتسامح مع الناس:

وتأتي بعد الإعذار درجة أعلى منها هي التسامح؛ فإن مما جاء في معاني كلمة «الإنسان» أنها مشتقة من النسيان، فلنحاول نسيان الإساءات ولنخالق الناس بخلق حسن، ثم لا نيأس من إمكانية تقديرهم يوماً.

والتسامح هذا ليس مجاناً لأن من كظم غيظاً وهو قادر على إنفاذه ملأ الله جوفه إيماناً وأملاً، ومن فعله أحبه الناس في الدنيا وبلغ مقامات الإحسان عند الله في الآخرة. ولقد سامح الخليفة أبو بكر مسطح الذي آذاه أشد الأذى في ابنته، أفلا نسامح نحن الناس على الهفوات والزلات والأشياء البسيطة؟

(٧) نحب الناس:

لن يحبنا الناس من دون أن نحبهم، ولن يتعاطفوا معنا ويؤازرونا من غير أن نبادلهم بذلك. ومن أهم موجبات المحبة الاهتمام بآمال الناس وآلامهم ومساعدتهم ومساندتهم؛ فالتعبير عن المحبة يكون بالكلام والعمل. ونحن لا نعبّر للناس عن امتناننا وعن جميل عواطفنا وعن مشاعرنا الطيبة تجاههم ونظن أنهم -لا بد- أدركوها لأننا أخبرناهم بها ذات مرة في قديم الزمان! وهذا لا يرضي غرور الإنسان، فإنه يحب أن يسمع ما يعجبه مرات ومرات؛ فقولوا للناس إنكم تحبونهم، فهذا من السنة، وكرروها فإن الناس

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ينسون أو قد يظنون أن حبكم ذبل أو توقف، فالقلوب تتغير أحياناً بين يوم وآخر. ولا تنسوا أن التعبير بالأفعال مهم أيضاً، فقد لا يكفي التعبير بالأقوال وحدها.

وليس في سكوت الناس عن التعبير عن حبهم دليل على بغضهم لنا، فكثير من الناس يفضّلون الصمت. وآخرون يظنون أن الأمر واضح ومفروغ منه فلا يتكلمون ولا يعربون عن مشاعرهم. وكم يدهش ويسر المرء حين يسمع -على غير توقع- أن فلاناً يحبه، ولو لم يخبره لما عرف ذلك أبداً. فقولوها لكل من تحبونه حقيقة، ولا تستثنوا أحداً حتى أولادكم! وستدهشون كيف سيسارع أولادكم ومن تحبونه إلى التعبير عن محبتهم بدورهم، وسيتراكضون لكسب ودكم، فكثير ممن حولكم يحبونكم حباً حقيقياً ويتمنون لو تتيحون لهم المجال للتعبير عن حبهم فبادروهم بالود يبادلوكم بالود وداً.

فإن لم نستطع أن نحب الآخرين فعلى الأقل لا نبغضهم، ولنتجنب ذكرهم بالسوء فلعل الأيام تبدي لنا ما يجعلنا نحبهم. والنبي الذي حثنا على الحب هو نفسه نصحنا نصيحة ذهبية: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً...» فلا نبالغ لا في الحب ولا في الكره.

وعلينا أن نعلم بأننا لن نستطيع أن نحظى بحب كل الناس ورضا جميع البشر، فيجب علينا أن لا نبتئس من بعد إن لم يحبنا كل الناس، فلا يوجد شخص في العالم يجمع الناس على حبه. ونحن كذلك سيحبنا بعض الناس ويكرهنا آخرون، وإني ألاحظ ذلك على من حولي، فأرى لهذا من يحبه من معارفه وأقربائه وأصدقائه ولذاك

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أيضاً نصيبه، فهذه هي الحياة وسبحان من جعل الأرواح جنوداً مجندة وقسم لكل فرد حصة من حب الناس ومن بغضهم.

فأحسنوا التعامل تجدوا نصيبكم من الحب. ولا تبتئسوا من مشاعر البغض! فلولا كره بعضهم لنا ولولا محاولتهم إيذاءنا ما قدّرنا من يحبنا ولا شعرنا نحوهم بالامتنان ولما حاولنا رد جميلهم، فبضدها تتميز الأشياء. فلنقنع بما ييسره الله لنا، وحسبنا أن نفوز بحب بعض الناس، ويكفينا أن لا نكتسب عداوة أو بغض الآخرين حين يكونون حياديين معنا.

(٨) نحسن إلى الناس:

ويكون ذلك بسماع مشكلاتهم ونصحهم، أو بتفريج كربهم، أو مواساتهم، أو بتقديم المساعدة التي يحتاجونها. ولا تنسوا ما تفعله الأشياء البسيطة (كالابتسامة والمصافحة وإلقاء السلام والكلمة الطيبة) من ود وتقريب بين الناس. وقد جاء في الصحيحين: «اتقوا الله ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»، وراقبوا معي هذا، فحين يقدّم المرء تمرة أو ابتسامة أو مساعدة يخيل إليه أنه قد خسر التمرة فأطمعها لسواه، ومتع غيره بالكلمة الطيبة وهو بحاجة إليها، وأضاع جهوده على الآخرين وهو بغنى عن ذلك. ولكنه في الحقيقة هو المستفيد الأول لأنه اتقى النار، ولأن الله سيرد له الجميل وسيجد من يعينه في كل أمور حياته؛ فالإحسان إلى عباد الله له أجر عظيم مهما كان ضئيلاً، ومردوده في الدنيا كما روى مسلم: «ومن يسّرَ عن معسرٍ يسّرَ الله عليه في الدنيا»، فتأملوا.

والإحسان إلى الناس يكون برحمتهم وإنظار معسرهم: ومن

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

لا يَرحم لا يُرحم، ففيما يبدو لنا أننا نحن الرحماء برحمتنا عباد الله نكون نحن المرحومين بما وعد به الله. فلنرحم الآخرين لأنه لا يمكننا الاستغناء عن رحمة الله بنا، ولا حتى عن رحمة الناس الذين نتعامل معهم كل يوم.

ويكون الإحسان إلى الناس بالستر بإخفاء عيوبهم والتغاضي عن زلاتهم. وكلنا بشر نخطئ، ومما ينسب إلى عيسى عليه السّلام: «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها»، فأينا لم يخطئ؟ ويكون أيضاً بالتجاوز عن مسيئهم. وكلما غفرنا وتغاضينا اختصرنا خلافاتنا مع الناس، فنسعد ويسعدون. وقد نعطيهم بذلك الحافز ليتخلصوا من شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم فيتوبوا. وربما يحاولون (بتغاضينا عنهم وتسامحنا) السمو والارتفاع بنيتاتهم وأعمالهم، كل حسب قدراته وقوة وإيمانه وعلمه بالخطأ والصواب.

وينبغي أن يشمل الإحسان كل الناس لما له من أثر طيب حتى على المسيئين، فبداخل الإنسان خير كثير وإن تجبر وظلم، ولو أنّا دفعنا بالتي هي أحسن وكنا قدوة في هذا لملكنا الناس، أو على الأقل الكرام منهم. فنبادر مثلاً إلى وصل من قطعنا، والإحسان إلى من آذانا... وهذا السلوك يحتاج منا إلى الصبر وقوة التحمل، فالناس الذين أساؤوا إلينا وأسأنا إليهم لن يصدقوا في البداية صدق نياتنا، بل قد نتهم بالمداهنة أو النفاق. ولذلك توجد قواعد ذهبية للإحسان وإلا انقلب الأمر على المحسن وباء بسخط من أحسن إليه! **فينبغي أن تراعى الأمور التالية ليستمر الإحسان وليحقق غايته**، وهذه النصائح تصلح منهجاً للتعامل مع جميع الناس وإن أُدرجت في هذا الموضع:

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

أولاً: **أن نتدرج في الأمر**؛ فنتوقف عن الإساءة إلى الناس ونكتفي بذلك مدة، حتى إذا أمننا الناس وارتاحوا إلينا تحولنا إلى الإحسان إليهم شيئاً فشيئاً. وإلا فإن الناس سيستغربون من أي تغير مفاجئ في سلوك من أمامهم، وعلى الأغلب سيسيئون الظن ولن يتقبلوا الأمر.

ثانياً: **الإحسان إلى الناس بقدر الأولوية والطاقة والوقت**؛ فلا نحمّل النفس فوق طاقتها في التعامل مع الناس، والمسلم يطلب في الدعاء أن لا يحمّله الله فوق طاقته، فعليه أن يرفق هو أيضاً بنفسه. وإنّ أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، فلا ينبغي أن يبالغ المرء بالعطاء ونكران الذات حتى لا يتعب أو يمل سريعاً. فلا نغتر الآن بقوتنا وقدرتنا على البذل، فقد نعجز عن ذلك يوماً.

والمشكلة أن الناس يتعودون على العطاء حتى ليظنونه حقاً واجباً لهم علينا وليس منة وتكرمة، فلا يتقبلون منا التوقف عنه بل يظنون أننا نقصر في حقوقهم وواجباتنا تجاههم. فلا تعوّدوا الناس على سلوك أو عطاء دائم قد تعجزون من بعد عنه.

ثالثاً: **الإحسان إلى من يستحق الإحسان**. وهذا مطلوب، وهو من باب إنزال الناس منازلهم. فعلينا اختبار الناس قبل التفاني في العطاء، فالناس معادن، وإنك إن أكرمت الكريم ملكته. أما من عاشر اللئيم فلا يلومن إلا نفسه، فمن الناس من يجحد المعروف، بل منهم من يقلبه ضد معطيه. ومنه تخير الرجل المناسب للعطاء المناسب، فلكل فرد ظروفه وشخصيته وذوقه، فلنقدم لكل امرئ ما يحبه وما يوافق هواه من أنواع الإحسان المادية والمعنوية.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

إن التعامل مع الناس علاقة متبادَلة، وهي على الأغلب علاقة واضحة: من يعطِ يأخذ، ومن يزرع يحصد، ومن يحسن يكافَأ... فلنثق بهذه المعادلات، لأنها هي القاعدة وتلك هي السنة التي فطر الله الناس عليها. ولكن لنتذكر أن لكل قاعدة شواذ، فعلينا من أجل ذلك أن لا نيأس إن فشلنا مع مجموعة من الناس لأننا سوف ننجح مع الأكثرية.

(٩) نبحث عن الصفات الحسنة في الناس:

ولا بد من جوانب مشرقة في كل إنسان، وإن في البحث عنها وتقصيها متعة وفائدة، وهذه درجة عالية لا يصلها إلا القليل (لأن أكثر الناس يبحثون عن السيئات ليبدوا هم الأفضل)، وهذا السلوك جيد لأنه هدف نبيل سام، وفيه تكبير وتوضيح للمزايا والصفات الحسنة في مقابل الصفاتً السيئة. فلنبدأ بجمع الخصال الحميدة في كل فرد لحظة التقائنا به، وهو أمر شيق ولعبة مسلية، لأنه كمن يبحث عن الذهب من مكمنه! فإحصاء العيوب أمر سهل يتقنه كل إنسان، أما اكتشاف المزايا الكامنة والصفات الرفيعة في داخل الشخص فهذا لا يقدر عليه إلا الحُذّاق من أصحاب الفراسة، وهو إبداع لم يسبق له إلا قلائل. وهو سنة وقد فعله النبي مع صحابته، فأشعَرَ كل واحد منهم بالتفرد والخصوصية لما حباه الله به من مزايا، حتى إنه أطلق عليهم ألقاباً مشرفة (فهذا أمين الأمة، وذاك سيف الله...) فلماذا لا نحذو حذوه فنتخير لكل فرد من أقاربنا لقباً لطيفاً يليق بسلوكه الطيب؟

ومن هذا الباب أن نلاحظ النواحي الإيجابية للآخرين ومقدار

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الفعالية والمنفعة في سلوكهم تجاه من حولهم والعطاء الذي قدموه للآخرين (فلا تشغلنا سلبياتهم وصفاتهم السيئة عن مزاياهم)؛ فنقدرهم وتعلو مراتبهم في أعيننا. وهذا السلوك عون لنا على مواصلة الجهاد في التعامل مع الناس، لأنه يجعلنا نتقبل مَن حولنا منهم لما نكتشفه فيهم من مزايا مقابل عيوبهم، فتشفع للناس حسناتهم الكثيرة لدينا وتثقل موازينهم بها (وتخف سيئاتهم في مقابلها وتبهت مثالبهم).

ولن نتمكن من رؤية الصفات الحسنة وإحصائها إلا بعد الترفع عن التفاهات والسخافات والتجرد عن الأهواء والاهتمام بجوهر الإنسان، لا بنظراته وكلماته وتعليقاته الآنية. وإلا إذا تجردنا من مشاعر الغيرة واعترفنا أن كل فرد فينا يتميز على غيره بمزية أو مزايا عدة فنتقبل هذا تماماً، ونسر له ونتيقن أن نجاحه وتفوقه لا يعني انهزامنا وفشلنا. إنه حافز لنا لنستفيد مما حباه الله به من قدرات وخبرات ولنتعلم منه كيف نبرز نحن أيضاً مواهبنا التي ميزنا الله بها فنكون سواء.

وحبذا لو أثنينا بعدها على الصفات الحسنة التي اكتشفناها في الناس لنشجعهم على التمسك بها. وليتنا -أيضاً- نمتدح أي بادرة خير أو سعي نحو الأفضل نلاحظها في سلوك الآخرين، فهذا عون لهم ليراقبوا سلوكهم وليسعوا للتحلي بما ينقصهم من الخصال الحميدة المطلوبة في المسلم. فإن فعلوا أصابنا خير كثير! فنحن أقرب الناس إليهم وبالتالي أكثر من يتعامل معهم.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

(١٠) نتذكّر ما قدمه الناس لنا ونحاول إثابتهم عليه:

بأن نتفكر دائماً بمعروف الناس ونتلمس إحسانهم إلينا وكيف ينبغي أن نرد لهم تكرمهم علينا. والرد يكون بالمعاملة بالمثل، أو بالزيادة، أو بتقديم خدمات أخرى، فإن لم يتوفر بين أيدينا أي شيء من هذا فالدعاء لهم بظهر الغيب.

وهذا كله منفصل عن الشكر باللسان، فالشكر واجب للمسلم على أخيه. فلا ننسَ أهمية شكر أقرب الناس إلينا؛ فطالما شكرنا الغرباء على أمر يسير وأبدينا الامتنان على الشيء البسيط، ثم أهملنا شكر المقربين من ذوينا على التضحية العظيمة.

ويجب أن نضع في الحسبان أمراً في غاية الأهمية، وهو أننا لا نستطيع تقدير عطاء الناس بقيمته الحقيقية؛ فلكي نقيم العطاء بدقة علينا معرفة قدرات المعطي وظروفه ساعة قدم المعروف، وهذا لا يمكن قياسه وهو يختلف من وقت لآخر في الشخص الواحد فكيف هو في الناس؟! كما أننا لا نعلم الغيب ولذلك فإن **الناس في بعض المواقف يبذلون كثيراً ليأتونا بالشيء اليسير ولكننا لا نشعر بهذا ولا نقدر**. ومنهم من يؤثرنا على ولده وزوجه ونحن لا ندري... ولذا فإن ما نحتقره قد يكون عظيماً وما نقدره قد يكون سخيفاً. فلنقدر للناس كل ما يبذلونه بلا تفريق حتى لا نقع في هذا الخطأ من حيث لا نحتسب، والمسلم الحق لا يحقّر من المعروف شيئاً ويشكر أي معروف يقدمه له الناس ولو كان صغيراً.

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

(١١) نحاول التكيف مع الناس:

إن أغلب مَن حولنا قد فُرضوا علينا فرضاً، فعلينا أن نتقبلهم جميعاً (أو على الأقل المقربين منهم) بسرور -مهما كانت صفاتهم- لأن الله قد اختارهم لنا، فنحن لم نختر أقاربنا، وحتى لو كان لنا دور في اختيار أصدقائنا فإن اختيارنا يبقى هو الآخر محدوداً بالزمان الذي خلقنا الله فيه وبالمكان الذي جعله لنا معاشاً. فما لنا من سبيل إلا بأن نتعايش مع هؤلاء الناس ونتكيف معهم كما نتكيف مع الحر والقر ومع الظروف الخارجة عن إرادتنا.

وإن منا من يحاول تغيير الناس ليوافقوا هواه، وهذا مستحيل؛ فنحن لن نستطيع أن نُخضِع الناس لقِيَمنا ولرغباتنا، ولن نستطيع حملهم على التكيف معنا في كل شيء، فكان لزاماً علينا أن نتكيف نحن معهم قدر الإمكان ومحاولة التقرب إليهم وتقريبهم إلينا لنجتمع معهم في وسط الطريق. فنحن أيضاً مطالبون بمراعاة الناس، ولا يمكننا أبداً أن نطلب منهم -وحدهم- أن يتخلوا عن رغباتهم لصالحنا وحدنا، فلا بد من أن نضحي من أجلهم ويضحوا من أجلنا.

ولنعلم أن محاولة تغيير الناس -وإن كانت نحو الأفضل- أمر صعب للغاية، وأصعب ما فيه هو كيف نبين للمرء العيوب المنفرة فيه (والتي تجعل الناس يعرضون عنه) ليراها بحجمها الحقيقي ويدرك بشاعتها فيتجنبها. فمهما حاولنا الشرح للناس فإن أحداً لن يفهم بدقة مشكلته وعيبه ليصلحه كأحسن ما يكون، ولذا يتوجب علينا -في أكثر الأحيان- الرضا بأنصاف الحلول من الناس فنتقبل ما بذلوه من جهد (في تعديل سلوكهم) ونشكرهم عليه ونحاول التعايش والتكيف مع

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

ما تبقّى من الطباع التي تزعجنا فيهم. خاصة وأننا مثلهم لا نرى عيوبنا جيداً وبالتالي لن نتمكن من التغلب على الطباع السيئة فينا.

ونحن لا نستطيع تغيير الناس لأن الإنسان منظومة متكاملة من الصفات والقيم مترتبط بعضها ببعض، فإن حاولنا إصلاح طرف منها أثر على شيء آخر فأفسده وأخل توازنه، فكان من الأفضل أن نحث الناس على التقوى وعلى خوف الله ونرشدهم إلى المعالي ثم نتركهم ليعملوا ما يقدّرهم الله عليه من الأعمال الصالحة ومن تهذيب خلقهم وتقويم سلوكهم.

ولنعلم أن القدرة على التكيف مع الناس خصلة جيدة؛ فالإنسان السوي المتوازن والمتمتع بالصحة النفسية هو الذي يتحامل على نفسه ويسع الناس، وكلما كان الإنسان أوعى وأنضج وأكثر خبرة ودراية استطاع أن يتكيف ويتقبل الناس كما هم، لأنه لمس ما لم يلمسوه وتعلم ما لم يتعلموه عن طبيعة الإنسان، وله -إن استطاع- أن يستغل ما تعلمه ليؤثر في الناس ويغيرهم نحو الأفضل. وأضمن طريقة لمساعدتهم على التحسن هي في حبهم ورعايتهم، فإن الحب يصنع الأعاجيب والمحب لمن يحب مطيع. والحرص على مشاعر الناس يجعلهم يبادلوننا الحرص، ونصيحة الأعرابية: «كوني له أَمَة يكن لك عبداً» لا تنفع الأزواج فحسب بل هي نصيحة ذهبية لكل علاقة اجتماعية.

(١٢) وحبذا لو توقعنا الأسوأ من الناس:

فإن هذا يجنبنا الحرج والألم ثم يجعلنا نرضى بالقليل من عطاء الناس، وإذا توقعنا الإيذاء منهم فلن نُصدَم من سلوكهم. وتوقع

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

الأسوأ يتوافق مع الطبيعة البشرية إذ لم يسلم أحدٌ من طعن الناس عليه وظلمهم له، حتى الأنبياء الذين تحلوا بأرفع الصفات لم ينجوا من شرور النفس البشرية التي استباحت قتل بعضهم واتهام بعضهم الآخر بما لا يليق والكذب عليهم، فكيف نتوقع أن نسلم من الناس أنا وأنت؟

بل لم يسلم منهم رب العزة والجلال فنسبوا له الولد ووصفوه تعالى جده بالبخل وغيره، فكان الإنسان لربه كفوراً. فإن جحد الإنسان فضل ربه فهل سيتذكر إحسانكم إليه، وهل سيبادركم بالمعروف؟ فلنحاول -قدر استطاعتنا- أن لا نتذمر ولا نشكو من الناس لأن هذه طبيعتهم ولأننا نشاركهم فيها، ولنبادر إلى شكر أي معروف وتقديره ليدوم ويكثر وينتشر (فهو -بهذا المنطق- خلاف الأصل!).

ولنتذكر دائماً أننا في دار ابتلاء، وما إيذاء الناس لنا إلا جزء منه. **وطالما أن الإنسان يعيش بين الناس فلا بدّ من أن يؤذيهم ولا بد من أن يؤذوه، وأن يجور عليهم ويجوروا عليه، وأن يبخسهم حقهم ويبخسوه حقه.** فهذا من قوانين الدنيا وإلا لصارت الدنيا مثل الجنة، ولذا جاء في الحديث أن المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم هو الأفضل، فإيذاء الناس لن يتوقف أبداً، وظلمهم لا يمكن التخلص منه بحال. ولا بد من تعويد النفس على الاستعداد له ثم تحمله واستيعابه.

ويدخل في هذا الباب أن لا نضع مُثُلاً عليا نقيس الناس عليها، لأنا قد نظلمهم بهذا (حين تبدو الفجوة كبيرة بين سلوكهم الفعلي

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

وما ينبغي أن يكونوا عليه) فأغلب الناس اليوم بعيدون عن الخلق الإسلامي الصحيح، فإن اضطررنا لوزن سلوك الآخرين وأعمالهم فلنقارن الناس بعضهم ببعض، وبهذا سنجد الدنيا بحال جيدة وسنجد الناس بخير. فالإنسان لا يقدّر الناس ولا يعرف حسناتهم حتى يرى سيئات غيرهم، فعندها يقدرهم ويتقبلهم ويحترمهم ويبذل ما يستطيع من أجلهم خوفاً من أن يفقدهم. فلننظر حولنا ولنتأمل طباع الناس نرَ أننا بنعمة وفضل مع ذوينا، ولعلنا بعدها نقدرهم ونرى فضائلهم.

ولو أننا استرخينا وتعاملنا مع الناس بود ومرحمة ولم ننتظر منهم شيئاً لشعرنا كم هم ظرفاء، وكم صحبتهم مشوقة ومثيرة، ولأحسسنا بمتعة الأخوة وحلاوة الصداقة، فالناس -رغم عيوبهم- يجعلون الحياة أبهج وأجمل.

* * *

ولن تنجح هذه النصائح مع كل الناس، لأن العلاقات الاجتماعية علاقات من طرفين فلا يمكن أن ينجحا إلا بالتعاون. فلنعِ هذا فلا نبتئس إن فشلنا مع بعضهم، حتى وإن كان فشلنا ذريعاً، لأنَ المهم هو نجاحنا مع الأغلبية.

ولنعذر أنفسنا إن حاولنا حقاً التقرب والإحسان إلى أولئك بالرفق والروية ثم فشلنا، لأن للنفس البشرية قدراتها وطاقاتها، وغالباً ما يكون سبب فشلنا -في مثل هذه الحالات- مع بعض الناس هو سوء طباعهم هم، ولو درسنا شخصياتهم لوجدناهم قليلي الأصحاب كثيري الخصوم بسبب مشاغباتهم ومشاكساتهم. وإن كنت أنصح بأن نجعل علاقتنا بمثل هؤلاء الناس في أدنى حد ممكن من

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

اللقاء والاحتكاك (ولو كانوا أقارب لنا) لأنهم سيسببون لنا الإرباك بشخصياتهم غير السوية، ثم الإحباط في مسيرتنا تلك نحو علاقات أفضل مع الآخرين؛ فإن ضربنا عنهم الذكر صفحاً (شفقة بهم) وابتعدنا عنهم كنا أقدر على التعايش مع من حولنا كلهم.

* * *

هذا ما لدي، فقد انتهى الكتاب!

وإني أحمد الله أن يسر لي إنهاءه على خير، فقد كُتِبَت فصوله بعد استخارات كثيرة وتم إنجازه بالدعاء. وإني لأرجو الله أن يجعل فيه الخير والفائدة، وأنا على استعداد لتقبل أي تعليق أو اعتراض أو إضافة على هذا الكتاب، وسوف أكون شاكرة إن نُبِّهت لنقص فاتني أو خطأ وقعت فيه. وهذا هو عنوان بريدي الإلكتروني:

e-mail: abida@al-ajyal.com

telegram @soramnqraa مكتبة سر من قرأ

المحتويات

وفاء وعرفان ٥
فكرة الكتاب وسبب اختيار الموضوع ٧

المبحث الأول
كيف نُقَوِّم أنفسنا
(فكرة الإنسان عن نفسه وفكرته عن الناس)

المشكلة الأولى: نظن أننا بلا عيوب ونستصغر أخطاءنا..... ٢١
المشكلة الثانية: نعتقد أن عقلنا هو الأرجح مطلقاً..... ٢٩
المشكلة الثالثة: نحسب أننا متفضلون على الناس بعطائنا..... ٣٧
المشكلة الرابعة: نتوقع الكمال في شخصياتنا ٤٥

المبحث الثاني
حقيقة سلوكنا مع الناس والأخطاء التي نقع فيها

تمهيد ٥٧
الخطأ الأول: نسيء الظن..... ٥٩
الخطأ الثاني: نتصرف بأنانية وأَثَرة..... ٦٨
الخطأ الثالث: نَكيل بمكيالَين..... ٧٧
الخطأ الرابع: نُقوِّم الناس بسلوكهم معنا ٨٥
الخطأ الخامس: نكره أن يتفوق الناس علينا ٩٤
الخطأ السادس: نظلم الناس ونأخذهم بالشبهات ١٠٢
الخطأ السابع: نجور في تقدير حقوقنا واستعادتها..... ١١٥

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ

الخطأ الثامن: نضر بمصالح الناس من أجل مصالحنا.....١٢٥
الخطأ التاسع: نتتبع عيوب الآخرين.....١٣٣
الخطأ العاشر: نُغلظ في القول والسلوك ١٤٣
الخطأ الحادي عشر: نخطئ في الفهم ١٥٣
الخطأ الثاني عشر: نكثر من اللوم والعتاب ١٦٤
الخطأ الثالث عشر: ننكر الجميل ونجحد المعروف ١٧٢
الخطأ الرابع عشر: نقف عند التوافه والسخافات.....١٨٠
الخطأ الخامس عشر: نفتقد أحياناً الأخلاق الإسلامية ١٨٩
كيف نتخلص من هذه الآفات؟.....١٩٧

المبحث الثالث

لماذا علينا أن نهتمّ بالناس، وكيف ينبغي أن نكون مع الناس؟ (نفسياً وفكرياً وسلوكياً)

لماذا علينا أن نهتم بالناس؟ ٢٠٣
كيف ينبغي أن نكون مع الناس؟.....٢٠٩
(نتأدب معهم بالخلق الإسلامي ٢١١؛ نكفّ أذانا عنهم ٢١٢؛ نعدل فيهم ٢١٣؛ لا نحاسبهم ٢١٤؛ نقدّر ظروفهم ونلتمس لهم أعذاراً ٢١٥؛ نتسامح معهم ٢١٦؛ نحبهم ٢١٦؛ نحسن إليهم ٢١٨؛ نبحث عن الصفات الحسنة فيهم ٢٢١؛ نتذكر ما قدّموه ونحاول إثابتهم عليه ٢٢٣؛ نحاول التكيف معهم ٢٢٤؛ وحبّذا لو توقعنا الأسوأ منهم ٢٢٥.

telegram @soramnqraa
مكتبة سر من قرأ